

شخصيّاتٌ عرفتُها

حسين أحمد أمين

دار العين للنشر

شخصيّاتٌ عرفتُها

شخصيات عرفتها

حسين أحمد أمين

الطبعة الأولى، ٢٠٠٧



دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل - روض الفرج - القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠ فاكس: ٢٤٥٨٠٩٥٥
E.mail: elainco2002@yahoo.com
www.elainpublishing.com

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٧/٢٠١٤٢
ISBN: 978-977-6231-11-1

شخصيّاتٌ عرفتُها

حسين أحمد أمين

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب المصرية

إدارة الشئون الفنية

أمين، حسين أحمد

شخصيات عرفتها/ حسين أحمد

أمين – ط٢ – الإسكندرية – دار العين للنشر، ٢٠٠٧.

٣٣٦ص؛ ٢٥سم

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٢٣١١١١

١- الرجال – تراجم.

٢- الآدباء العرب.

٣- المصلحون.

أ- العنوان ٩٢٠/٧١

المحتويات

ما كلُّ الأواني في قصر الأمير مصنوعٌ من الذّهب أو الفِضّة.

ــ تشوسر: "حكايات من كانتربري"

أحمـــد أمـــين

كنت في الثانية والعشرين وقت وفاته في شهر مايو سنة ١٩٥٤، عن ثمانية وستين عاماً.

***

لا أملك إلى اليوم نفسي من العجب كلما فكرت في بساطة معيشته وقلة احتياجاته: مأكله وملبسه ومسكنه ومختلف عاداته. فإفطاره كوب من اللبن وقطعة من الجبن، وغداؤه خال من النشويات لإصابته بمرض السكر البولي، وعشاؤه اللبن الزبادي وبعض الفاكهة. فأما الشاي فلا يكاد يشربه، وفنجان القهوة يشربه عقب الإفطار، وآخر بعد ساعة من النوم عقب الغداء. وأما الخمر فلا يقربه. ثم لا إفراط في شيء غير التدخين. فالسيجارة لا تكاد تفارقه، غير أنه لا يكاد يشعلها حتى يلقي بها بعد نفسين أو ثلاثة، ثم يشعل أخرى بأصابع يد ترتعش.

وهو قليل الاحتفال بالملبس، غير أنه لم يهمله كلية إلا في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته بعد إصابته بجلطة في ساقه وتدهور صحته. فاستغنى عندئذ نهائياً عن رباط العنق الذي كان يضايقه دوماً ولكنه كان يحتمله قبل ذلك، ولم يعد يستنكف من الظهور أمام الناس ولحيته لم تحلق، أو يستقبل ضيوفه مرتدياً جلباباً.

والمسكن رغم كبره ــ لكبر عائلته ــ يكاد يخلو تماماً من أيّ أثاث فاخر أو كماليات. ولا أعتقد أنه جدّد الأثاث مرة واحدة منذ زواجه. وكان في تنقلاته يستخدم الترام أو الأوتوبيس، حتى ضعفت صحته وكثرت مشاغله وارتباطاته، فاشترى سيارة في أواخر العقد

السادس من حياته واستخدم لها سائقاً.

وبساطته هذه في أسلوب معيشته تنعكس في كتاباته وأسلوبه الأدبي. فهو لا يعرف تأنقاً أو حذلقة، وإنما هو قلم يجري بما يعنّ له من خواطر، والجملة عنده على قدر الفكرة. وهو يكتب للعامة كما يكتب للخاصة، ولا يسعى إلا إلى الإفهام. غير أنه مع استنكاره للتأنق أو الحذلقة في كتابات غيره، وتكرر وصفه لأسلوب طه حسين مثلاً بغزل البنات، كان يدرك ـ فيما أعتقد ـ أن أسلوبه دون أن يستحق وصفه بالأسلوب الأدبي الرفيع. ولا زلت أذكر ـ بشيء من العجب والإشفاق ـ كيف أبهجه أشد البهجة أن يتحول العقاد إلى الاعتراف به أديباً بعد صدور كتابه "حياتي"، بعد أن ظل دوماً قبلها يصر على وصفه بالبحاثة أو المؤرخ العالم.

فثقته بنفسه لا تتعدى الثقة بمبادئه الخلقية وموقفه الأساسي من الحياة. أما بصدد كتاباته فإعجاب النقاد والقراء، أو حتى إعجاب زوجه وأطفاله، كان يجلب إلى شفتيه ابتسامة الرضا الشديد. وقد يؤرقه وييئسه لبضعة أيام هجوم في صحيفة.

وهو خجول حييّ في المحافل العامة خجل العذراء وحياءها، فإن دلف إلى قاعة اجتماع أو مجلس قوم اضطربت خطواته وتعثر. وقد دفعه ذلك الضعف الشديد في بصره إلى أن يتجنّب النظر إلى الناس حتى لا يحسب أحدهم أنه لم يحيه استكباراً أو تجاهله عامداً، في حين أنه لم يتعرّف عليه لضعف بصره. وهو مع خجله هذا عنيف المعارضة ـ ربما أعنف مما ينبغي بسبب هذا الحياء نفسه ـ حين يرى مبدأ يُهدر، أو أخلاقيات تنتهك، حتى إن كان (أو قل، خاصة إن كان) معارضه من علية القوم ورؤسائهم.

وهو شديد التواضع دون أدنى تكلف، تحيته للوزير كتحيته للساعي والخادم، وبابه مفتوح لهذا كما هو مفتوح لذاك. وقد كان يزوره في المستشفى وقت إجراء عملية الشبكية له وزراء وأعيان وسعاة وفلاحون، فيأذن لهم جميعاً بالجلوس حول سريره، حتى تكاد ساق الوزير تلامس ساق فراش مكتبه.

وكان سخياً إلى أبعد الحدود، ساذجاً أشد السذاجة في أمور المال، ولا أظنه كان ليترك مليماً لأسرته لولا حرص والدتي وحسن تدبيرها. فهو يمد يد العون دوماً لأقربائه الفقراء، خاصة ابنة أخته التي بترت ساقها تحت عجلات الترام. والباعة تتهلل وجوههم إن رأوه

يدخل محالهم، (إذ كان غالباً ما يشتري حاجيات البقالة والفاكهة بنفسه)، فهو لا يساوم ولا يتشكك في عدالة أسعارهم، وقد يخطئ ــ بسبب ضعف بصره ــ فيعطي الورقة من فئة العشرة جنيهات ويحسبها جنيهاً، بل وقد يزيد على الثمن المطلوب حتى ينتقي له البائع أفضل بضاعة.

وقد كان مع هدوئه وتواضعه وطول صمته وقلة كلامه قوي الشخصية مؤثراً فيمن حوله. وهي قوة نابعة أساساً من قوة خلقه ونبل مبادئه ومسلكه، وعدله وموضوعيته. فالعدل والموضوعية سمتان بارزتان فيه، سواء في حياته الخاصة أو العامة، وهي السمة الغالبة في كتاباته، وكان يُرجع ذلك إلى اشتغاله طويلاً بالقضاء.

وسمة أخرى بارزة فيه وغالبة عليه وهي الحزن، حزن عميق دائم حتى في حالات الرضا، ولحظات المجد، وساعات الاستجمام. فهو نادراً ما يضحك، فإن راقته نكتة أو استخفّه موقف فأقصى ما هناك ابتسامة حزينة. ولاشك في أن حزنه هذا نجم عن نشأته الأولى، فحياته بعدها كانت سلسلة من الإنجازات والارتقاء والنجاح، ولم يكن في حياته الخاصة أو العامة ــ حتى أصابه المرض ــ أدى مبرّر لمثل هذا الحزن العميق، كما أنه لم يعرف من مولده إلى وفاته ضائقة مالية.

وقد تفسر موضوعيته وعدله كراهيته للحزبية وعزوفه عن الاشتغال بالسياسة. كما يفسر هذا العزوف منه عن الاشتغال بالسياسة عدم تعيينه في أحد المناصب التي توصف عادة بالخطيرة، وعدم نيله رتبة الباشوية. وقد قص علينا كيف أن سعد زغلول امتعض منه يوماً وازورّ بوجهه إذ أجابه والدي برأي جاء موضوعياً على نحو لم يستسغه سعد، فإذا هو يتمتم في ضيق: "إنت موش عاجبني النهارده!" وقد حاول حزبان على الأقل استمالته: فقد نشر الشيخ حسن البنا في جريدته خطاباً مفتوحاً موجهاً إليه يقول له فيه إن مكاناً في الصف الأول من جماعة الإخوان المسلمين في انتظاره. غير أنه لم يستجب للعرض ولا عُني بأن يرد. كذلك فقد حاول صديقه النقراشي رئيس السعديين ضمه أو ربطه بالحزب السعدي، وهو حزب كان يضم الكثيرين من أصدقائه مثل الدكتور السنهوري. وأذكر أن النقراشي فاتحه مرة بالإسكندرية حتى يتولى رئاسة تحرير صحيفة الحزب الجديدة "الأساس"، فأبى رغم ضخامة المرتب المعروض، فأرسل إليه إبراهيم عبد الهادي في منزلنا

بسيدي بشر ليحاول كرة أخرى إقناعه، فعاد إلى الاعتذار بأنه أديب وباحث، لا يأبه كثيراً بأمور السياسة، ولا يصلح لمثل هذا المنصب.

غير أن كثرة أصدقائه من بين السعديين جعلت البعض، والقصر نفسه، يعتبرانه سعدياً. ولا أدري ما إذا كان هذا الاعتقاد أو امتعاض الملك فاروق منه لإحجامه الصارم عن الثناء عليه، هو ما دفع القصر إلى الاعتراض على منحه جائزة الملك فؤاد للأدب يوم قرر مجمع اللغة العربية منحها له وللعقاد وهيكل. وقد احتج القصر يومها في بلاهة بأنه لا يجوز منح الجائزة لاثنين من السعديين وواحد من الأحرار الدستوريين، ثم عاد فرضخ لإرادة المجمع حين أصر على موقفه، ومنح والدي الجائزة.

***

كان الصراع بين القديم الموروث والجديد الذي اتصل به عن طريق القراءة والأصدقاء والحياة، يحتدم دوماً في نفسه على أحدّ صورة، وبصدد كافة المجالات: في علاقته بزوجه وبأبنائه، وفي أسلوب معيشته، وفي كتاباته. فجذوره في القديم، (في الجو العائلي الذي نشأ فيه، وفي المجتمع الذي عرفه في شبابه، وفي الأزهر حيث درس)، أعمق من أن يستأصلها الجديد الطارئ، وحماسه للتغيير والإصلاح ومسايرة العصر أقوى من أن تطفئه التقاليد الموروثة. وقد تحول من العمامة والجبة إلى الزي الأوروبي على مضض وبناء على إلحاح أصدقاء له، غير أنه لم يرتح تماماً إلى الزي الجديد، ولا كان يستشعر الراحة إلا في جلبابه في بيته. فإن جلس إلى طعام بين أهله، أو إلى كتاب في بيته، تربع أو رفع رجله على قاعدة الكرسي أو الأريكة وكأنما هو في رواق بالأزهر. وهو يستغني بأصابعه عن الشوكة والسكين. وقد يستنكر في قرارة نفسه من أولاده تصرفاً لم يكن ليحلم أن يتصرفه في حياة أبيه، أو عقيدة تخالف عقيدته، غير أنه يؤمن كذلك بحقّهم في أن تكون لهم حياتهم الخاصة، وعقائدهم المتباينة، ويرضخ رضوخ الحكيم لمقتضيات التطور واختلاف الأجيال. ولا أذكر أنه حاول قط أن يفرض اهتماماته الفكرية على أحد منا، ولا أن يجبر أحداً على صلاة أو صوم. كما لا أذكر أنه استخدم عنفاً معي إلا مرة واحدة، كنت أقرأ له فيها من صحيفة فتكررت مني أخطاء نحوية، فإذا هو

يخطف مني الجريدة ويضربني بها ثلاث مرات على فمي!

غير أن القديم يتمثل فيه أكثر ما يتمثل في علاقته بأمي. فهو لا يصحبها معه في زياراته أو رحلاته أو نزهاته، ولا يشركها في اهتماماته العقلية أو شؤون حياته العامة. فإن حادثها حادثها عن الأهل أو مشاكل الأولاد والخدم. بل إنه ــ وهو ما نجده اليوم بالغ الغرابة ــ لم يكن يناديها باسمها، ولا كانت هي تناديه باسمه. فإن أراد أن يناديها رفع صوته أو تنحنح أو نادى نداء مبهماً عاماً. اللهم إلا في حالات تبسط مؤثرة، أو رضا شديد، أو اعتراف بذنب، فكان وقتها يناديها بالست أم حماده! فإن كتب إليها من بلد سافر إليه، كانت خطاباته لضرورة ملحة، ولم يستهلها بتحية أو حتى بلفظة عزيزتي، وإنما كان يدخل رأساً في الموضوع ويذكر المطلوب. ومن خطاباته التي بعث بها إليها مرة من رأس البر، وكان قد سبقنا إليها، (وهو خطاب لا نزال نذكره في محيط الأسرة ونضحك لتذكره أشد الضحك) ما يجري على هذا النحو:

"١ــ ٣ مخدات.

٢ــ وابور جاز.

٣ــ شمسية البلاج.

٤ــ مجموعة الكتب التي تركتها على المكتب.

أرجو إحضار هذه الأشياء معكم، والسلام."!

* * *

لم تبدأ رحلاته إلى أوروبا إلا وهو في منتصف العقد الخامس من عمره حين بدأ اسمه يلمع في ميدان التاريخ الإسلامي، وصار يُدعى إلى مؤتمرات المستشرقين، أو يكلف بمهام كحضور مؤتمر المائدة المستديرة في لندن، وهو المؤتمر الخاص بمشكلة فلسطين. فإن تذكرت اليوم ما كان يرويه لنا عند عودته من انطباعات عن الحياة الأوروبية، تذكرت لفوري "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" للطهطاوي. فهو منبهر بأمور صارت عند أبنائه وحفدته من الأمور العادية المألوفة: كالأمانة والنظافة والنظام وقلة الضوضاء ودقة المواعيد والديموقراطية وإطاعة القانون. وقد تأثر تأثراً عميقاً إذ رأى ارنست بيفين وزير

الخارجية البريطاني يحضر مؤتمر المائدة المستديرة في حلة رثة وياقة قميص بالية. كما تأثر تأثر الشيخ محمد عبده من قبله إذ رأى الشعوب المسيحية أشد التزاماً من الشعوب الإسلامية بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإن كان قد سطر في السنوات الأخيرة من حياته إدانة لمادية الغرب، فقد كان بوجه عام أميل إلى الاعتراف بتفوق الغرب في كل مضمار تقريباً، وإلى التحسر على حاضر العالم الإسلامي.

كذلك كان يكن احتراماً عميقاً لكبار مستشرقي عصره من أمثال جيب وبرجشتراسر وشفالي ومرجوليوث، خاصة الأول، الذي كان يزوره كلما حضر إلى مصر، والذي تولى كتابة مادة "أحمد أمين" في الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية. غير أنه مع أخذه ملاحظاتهم على أجزاء كتابه في فجر الإسلام وضحاه وظهره على نحو جدي، ومع استفادته استفادة جمة من بحوثهم التي كان يكن لها أعظم تقدير لما بذلوه فيها من جهد، لم يكن موقفه منهم موقف التبعية أو الانقياد التام.

***

كانت القراءة والكتابة عماد حياته، ومتعته الكبرى. وقد يجد المثقف في أيامنا هذه جوانب ضعف خطيرة في ثقافة والدي، مع تقدير عميق في نفس الوقت للشوط الذي قطعه في هذا المضمار. فهو يذكرني بالمثل القائل: "الثعلب يعرف أشياء صغيرة كثيرة، والقنفذ لا يعرف غير شيء كبير واحد". فوالدي كالقنفذ في هذا المثل، لا يكاد أحد يضاريه في معارفه الإسلامية وإلمامه بتاريخ حضارة الإسلام وعلومه. أما فيما عدا ذلك فثمة خلل خطير، تداركه بعض كتاب عصره كالعقاد بل وطه حسين. فهو لا يعرف شيئاً عن الموسيقى الغربية ولا يستسيغها، والأسماء الرنانة في ميدانها هي عنده مجرد أسماء. وهو لا يقرأ قصصاً أو مسرحيات غير بعض ما يهديه إليه من مؤلفاتهم أدباء عصره كتوفيق الحكيم ومحمود تيمور والروائي الشاب نجيب محفوظ، تجنباً للحرج حين يقابلهم بعدها. فلا أعتقد مثلاً أنه قرأ في حياته رواية لتولستوي أو دوستويفسكي أو مسرحية لموليير. وهو لا يعرف شيئاً عن الأوبرا والباليه، ولا عن فنّي التصوير والنحت، ولا أظنه زار متحفاً للفنون في مدينة أوروبية إلا من قبيل "الواجب". كذلك فقد كانت معارفه الخاصة بالتاريخ، عدا

التاريخ الإسلامي، بل وحتى بتاريخ مصر القديم، شديدة القصور. وفي ظني أن أي شاب يعرف اليوم عن الماركسية وغيرها من المذاهب الاقتصادية أكثر مما كان يعرفه والدي.

غير أنه مع كل هذا القصور لم يكن يتظاهر بعكسه، ولا كان الأمر يؤرقه. كل ما هناك هو أنه حين ضعف بصره ضعفاً شديداً وصار مهدداً بفقده، أحس بحسرة شديدة إذ لم يعن في شبابه بتنمية اهتمامات وهوايات مختلفة، ولم يهو غير القراءة والكتابة اللتين أصبح الآن مهدداً بأن يُحرم منهما. فكان يردد قوله: "لو أني نميت في نفسي هواية الاستماع إلى الموسيقى مثلاً، لكان في لجوئي الآن إليها العزاء عن فقد البصر".

وهو لم يشرع في تعلم لغة أجنبية إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين. وقد اختار الانجليزية (لم يعرف غيرها) فأتقنها قراءة وإن لم يتقنها كتابة أو حديثاً. وكان بقية عمره كثير القراءة فيها، ولكنه اقتصر على قراءة أبحاث المستشرقين وكتب الاجتماع والمنطق والفلسفة، خاصة كتب برتراند راسل وجود اللذين كان يعجب بهما. وكانت تستهويه العقلية الأنجلو سكسونية ومنطق الانجليز ونمط معيشتهم وتحفظهم في إصدار الأحكام، ويفضل ما يكتبون على ما يكتبه اللاتينيون. بل إنه كان دائماً يشعر أثناء زياراته لفرنسا أو بين جمع من الفرنسيين كالسمكة خارج الماء.

وكنت أعجب لقلة نظره ــ نسبياً ــ في الشعر العربي، وضعف تعلقه به واحترامه له. فهو يستنكر منه غلبة المديح، وبذاءة الهجاء، وجعجعة الفخر، وتكلف المشاعر، وزيف الوصف. وأعتقد أن زكي مبارك كان محقاً حين اتهم والدي بالعجز عن استساغة الشعر العربي، وبأن تفضيله المعلن لابن الرومي وأبي العلاء على سائر الشعراء ليس تفضيلاً حقيقياً، وإنماجاء اتباعاً لرأي العقاد في الأول، وطه حسين في الثاني، وتسليماً بحكميهما على الشاعرين.

أما أحبّ كتّاب العربية إليه فالتوحيدي قبل كل كاتب، يليه الجاحظ فابن عبد ربه. وكان لسبب ما، ربما لاشتراكه في تحقيق الكتاب وعمله فيه مدة طويلة، يفضل "العقد الفريد" على أغاني أبي الفرج. أما مذهب المعتزلة فيفضله على سائر المذاهب لاعتقاده أن مدرستهم أكثر المدارس الإسلامية التزاماً بالعقلانية والمنطق وحرية الفكر. ولم يكن يتعاطف مع الصوفية التي هي في رأيه أحد أسباب ما أصاب العالم الإسلامي من كوارث

وانحطاط. ومع ذلك فالغزالي قريب دائماً إلى قلبه، وكتابه "المنقذ من الضلال" من أحب الكتب إليه. وقد أدهشه وسره سروراً عظيماً – وأنا أقرأ له في المستشفى "اعترافات تولستوي" – ذلك الشبه الغريب بين الكتابين، وتلك التجربة الروحية الواحدة التي خاضها كل من حجة الإسلام والكاتب المسيحي الروسي.

***

وهويحب الغناء الشرقي ويطرب له. وكان مع إعجابه بأم كلثوم واحترامه الجم لها، يفضل أسمهان عليها بسبب نبرة الحزن في صوتها. فإن استمع إلى موال قديم هزّ رأسه طيلة الوقت طرباً. وهو يترنم بهذه المواويل بصوت جميل عميق خافت مرتعش كلما جلس مع أحدنا إلى لوحة الشطرنج واستغرق في التفكير في الخطوة التالية. فالشطرنج هو اللعبة الوحيدة التي يعرفها. وكان يعجب إعجاباً ساذجاً بمونولوجات ثريا حلمي. أما عن السينما فلا يزورها غير مرة في السنة أو السنتين، فإن قصدها فمقعده دائماً في الصف الأول أو الثاني قرب الشاشة حتى يستطيع أن يميز ما يعرض، ولا يذهب لمشاهدة فيلم غير مصري. وهو يفضل المسرح، خاصة إن كانت المسرحية لشوقي أو عزيز أباظة أو محمود تيمور، وكان من بين ممثليها صديقه الممثل القدير أحمد علام.

وهو لا يمارس شيئاً من الرياضة غير السير على الأقدام والسباحة حتى أصيب بالجلطة فحرم من كليهما. غير أنه كان في شبابه شديد الشغف بالمشي لمسافات طويلة عند جبل المقطم وفي صحراء مصر الجديدة، أو في عزبته الصغيرة التي اشترك مع الدكتور السنهوري في شرائها. كما كان كلفاً بحديقة منزله، يزرع أشجارها ويتعهدها بنفسه، ويركع عند صغار الشجر ليتأمل أوراقها، وكثيراً ما كان يفضل الكتابة على كرسي يضعه بينها. ولا يروقه شيء كمنظر غروب الشمس في الريف أو على ساحل البحر، يخرج إليه عمداً لمراقبته، ويفضل الغروب على الشروق أيضاً لما يوحيه الأول من مشاعر حزينة لا يوحي بها شروق الشمس.

***

أحبُّ أصدقائه إليه الدكتور عبد الرزاق السنهوري: كل منهما يرتاح إلى ذلك الالتزام الصارم بالمنطق لدى الآخر، وبعده عن الهوى عند إطلاق الأحكام. وكان السنهوري يحب الاستفادة من رسوخ قدم والدي في التاريخ الإسلامي والأدب العربي، فهو يعشقهما دون أن تسمح له دراسة القانون بوقت يقضيه في القراءة فيهما. وكان والدي يحب الاستفادة من إلمام السنهوري بالقانون الذي اشتغل به أبي زمناً ثم انصرف عنه كلية إلى التاريخ والأدب. وكانت المكالمات التليفونية بينهما تستغرق عادة ما بين ساعتين أو ثلاث؛ إن اتصل به السنهوري مساء هرعنا إلى إعداد مقعد لوالدي بجانب التليفون، وأحضرنا له علبة سجائره والكبريت وكوب ماء وكل ما قد يحتاج إليه خلال الساعات التالية، ثم نحييه منصرفين إلى حجراتنا على أن نراه في الصباح! كل ذلك قبل أن يلتقط والدي السماعة ليبدأ مكالمة لا يعلم غير الله متى تنتهي.

أما عن علاقته بأدباء عصره فلا أذكر أنه كان يتزاور مع المازني والعقاد وهيكل وتوفيق الحكيم، وإن كان على علاقة طيبة بهم جميعاً. ولا أذكر أنه كانت بينه وبين أحد من الأدباء ما يشبه الخصومة غير زكي مبارك، بسبب سلسلة طويلة من المقالات نشرها الأخير في مجلة "الرسالة"، بعنوان "جناية أحمد أمين على الأدب العربي". أما الأديب الأثير عنده فأشبههم به خلقاً وطباعاً، وهو محمود تيمور، وكثيراً ما كان يجتمع بتوفيق الحكيم سواء في مقهاهما المفضل على البحر بالإسكندرية في شهور الصيف، أو في اجتماع كل خميس في مقر لجنة التأليف والترجمة والنشر، حيث كانت تلتقي دائماً نخبة من مفكري مصر وأدبائها ورجال التربية فيها. غير أن الفارق الكبير في السن بين والدي والحكيم، وتباين اهتماماتهما الأدبية، ربما حالا دون أن تتطور الصلة بينهما إلى صداقة حميمة. وأذكر أني كنت كلما استفسرت من توفيق الحكيم عن كتب أقرأها، أو آداب ينصح بأن أغترف منها، أسرّ بالنصيحة أن أركز كلية على الآداب الغربية دون الأدب العربي، طالباً مني وهو يضحك أن أكتم أمر هذه النصيحة عن والدي حتى لا يغضب منه!

غير أن ثمة صداقة قوية كانت تربطه بقانوني بارز آخر وإنسان عظيم، هو عبد العزيز باشا فهمي، وكان والدي يكثر من زيارته وهو طريح الفراش بمنزله في مصر الجديدة، ويصطحبني إليه. فعبد العزيز فهمي يحمل لوالدي مودة عميقة، ويكن أعظم الاحترام لخلقه

القوي، ويرتاح إلى طبعه الهادئ. وكنت أعجب أثناء استماعي إلى الحديث لتلك المرارة التي يشعر بها عبد العزيز فهمي تجاه سعد زغلول، حتى بعد مرور عشرين عاماً على وفاة الأخير. ولم يكن والدي يكن إعجاباً ضخماً لسعد يدفعه إلى معارضة فهمي وتخطئته. وأذكر يوماً زرنا الرجل فيه، فرأينا إلى جانب فراشه هرماً عظيماً من نحو سبعين من علب سجائر البستاني، كتب على ظهرها عبد العزيز فهمي بخط مرتعش قصيدة طويلة صعبة من ثلاثمائة وستين بيتاً في ذم الحياة، وفي مختلف أوجه القصور في الحياة المصرية (نشرتها لجنة التأليف فيما بعد في كتيب مستقل). وأحب المضيف أن يسمع ضيفه القصيدة. وإذ كان كل منهما ضعيف البصر، فقد طلب المضيف إليّ، وأنا بعد الطالب بالمدرسة الثانوية، أن أنشدها، مقدّماً إليَّ علبة إثر علبة. وكان أن وجدت في القراءة صعوبة لم أجد صعوبة مثلها في شيء من قبل أو من بعد، وتكرر وقوعي في الخطأ وتلعثمي، ووالدي ينظر إليّ بين الحين والحين نظرة غاضبة تكاد تلتهمني التهاماً. فلما تركنا منزل الرجل، ظل أبي في السيارة طوال رحلة العودة إلى منزلنا بالدقي يكرر في حزن:

"كسفتني يا ولد.... كسفتني...!"

***

كان طويلاً عريضاً قوي البنية، ولا أذكر أنه عانى قبل الستين إلا من ضعف البصر ومرض السكر. وقد استعان على الأول بقارئ يقرأ له وهو أحد أبنائه وربما يتولى القراءة بنفسه، وهو لا يكاد يفصل بين الكتاب ونظارته السميكة للغاية غير ثلاثة سنتيمترات. كما استعان على مرض السكر بنظام في الأكل صارم، وحقن الأنسولين كل صباح ومساء. غير أنه أصيب في الستين بانفصال شبكية العين، واضطر إلى الرقود على ظهره في المستشفى ثلاثة أشهر معصوب العينين، لا يتحرك يمنة ولا يسرة بأمر الطبيب. وقد خرج من هذه الرقدة إنساناً غير الذي كان. ليس فقط لأن العملية لم تنجح وكادت البقية الباقية من بصره أن تذهب أدراج الريح، ولكن حالته الصحية والمعنوية بصفة عامة تدهورت بعد العملية تدهوراً شديدا سريعاً. فسرعان ما أصيب بالجلطة في ساقه وبشلل نصفي. وصادف ذلك المرض إحالته إلى المعاش لبلوغه الستين، وانفضاض جمع من حوله كان يظنهم من

مريديه فإذا هم من مريدي الانتفاع من وراء صلتهم به حين كان في وسعه أن ينفع. وكان يحزن أشد الحزن حين يجد صندوق بريده في الأعياد خالياً إلا من بطاقة تهنئة أو بطاقتين، في حين كان ساعي البريد منذ زمن غير بعيد يأتيه بالبطاقات والرسائل أكواماً مكومة. بل إنه حتى بعض أصدقائه المخلصين قل اتصالهم به وسؤالهم عنه وزياراتهم له بعد مرضه، واكتفى البعض بمكالمة تليفونية بين الفينة والفينة. وكان هذا التنكر له منهم، من أكبر منغّصات سنواته الأخيرة.

كان من وقتها إذا دق جرس التليفون في البيت، هرع إليه في لهفة وهو يتحامل على ساقه المريضة عسى أن يكون المتحدث صديقاً له. فإن لم تكن المكالمة له، نادى على المطلوب منا وناوله السماعة وعاد إلى مقعده حزيناً يجر ساقه خلفه. ولازلت أذكر يوم عيد لم يزره فيه للتنهئة غير شاب مخلص من طلبته في الجامعة، فزادت هذه الزيارة المفردة من إحساسه بالوحدة والمذلة، وأبى أن يستقبل ضيفه.

وفي مساء يوم ٢٩ رمضان عام ١٩٥٤، كان قد أنهى استعداده للسفر إلى الإسكندرية في اليوم التالي لبدء أجازته الصيفية، وجلسنا معه في شرفة الطابق الأعلى من المنزل نتحادث إلى ساعة متأخرة من الليل. وكان في حالة نفسية مطمئنة منبسطة. وفي الصباح أصابته الذبحة الصدرية واستدعينا الطبيب فلم يحضر إلا بعد أن كان قد مات.

***

بالرغم مما ذكرته من أنه لم يحاول قط فرض اهتماماته وآرائه ومنحى تفكيره علينا، وبالرغم من انشغاله ساعات طوالاً بالقراءة والكتابة ونشاطه في الحياة العامة، فقد ترك في نفوس أبنائه ــ وربما تلاميذه ــ أثراً عميقاً لا يعرف حداً. وهو تأثير قائم فيمن ورث عنه منا عزوفه عن السياسة واهتمامه بالدراسات الإسلامية أو من لم يرثهما، وفيمن تدين أو لم يلعب الدين دوراً رئيسياً في حياته، وفيمن خلّفه عند وفاته رجلاً أو صبياً. فموقفنا جميعاً من الحياة هو في جوهره نفس موقفه الأخلاقي الجاد، ومن السلطة ــ أي سلطة ــ هو نفس موقفه وتمسكه بحرية الرأي. وقد تأثرنا بمعاشرة هذا الإنسان العظيم عن قرب حتى بات من الصعب علينا بعده أن نحترم في أيامنا هذه رئيساً وقد رأينا رئاسته، أو كاتباً وقد

شهدنا موقفه الجاد من صنعة الكاتب، أو مسئولاً في الحياة العامة وقد خبرنا إخلاصه وتفانيه في نهوضه بالمسئولية. فالمثل الانجليزي يقول: "إياك إياك أن تستأجر خادماً خدم عند من كان يفضُلُك"... ولم ير أولاده بعده من يَفْضُلُه.

رحمه الله.

الشيخ مصطفى عبد الرازق

"ليس لدى رجالنا الدّينيّين بركةٌ يمنحونها،
فهل عندهم موعظة حسنة يُسْدُونها؟"
ــ مصطفى عبد الرازق

طالما أسْمَعَنَا الكتّاب والصحافيون عندنا ــ خاصة على أثر الحوادث الإرهابية وجرائم العنف ــ كلاماً مؤدّاه أن الطبيعة المصرية تأبى التطرّف.. كرّروا كلامهم هذا إلى حدّ الإملال، وإلى حدّ أن أصبحت الجملة من قبيل الكليشيهات التي لا يوليها أحدٌ اعتباراً، بل ولا يصدّقها أحد، خاصة بعد أن بِتنا نلاحظ في كلّ من حولنا من أهل زماننا ــ بمن فيهم الكُتّاب والصحافيون أنفسهم ــ ما يسمّيه الجاحظ بضيق العَطَن، أي ضيق الصدر بما يخالف آراءنا من آراء، وبما ألفناه وقَبِلْناه من أوضاع... لغة الحديث عندنا، ولغة المناقشة والجدل، صارتا تتّسمان دائماً بالحدّة والغضب، وبنبرة جنائزية نبويّة، وغدا الفرد منّا منذ انقلاب عام ١٩٥٢ وكأنما أصبح واجباً عليه أن يستشعر الكراهية العظيمة نحو شيء ما؛ كراهية يغذّيها ويرعاها ويتعهّدها رعايته للنبات في الوعاء... أدرك قادة الرأي العام والسياسيون ورجال الأحزاب أنهم متى أرادوا الناس أن يتْبعوهم، فما عليهم إلا أن يُخبروا الناس أنهم في هذه اللحظة بالذات تُعساء أشقياء بؤساء، بسبب أشخاص آخرين لئام أشرار خبثاء، ولكي نَحْظَى بالسعادة نحتاج إلى شيء معين، شيء ليس في داخلنا ولا هو في حوزتنا، بل هو خارجنا. والسبب في أن هذا الشيء ليس معنا هو أن أشخاصاً آخرين سرقوه منا.

أصبح من الصعب على الناس في مصر، وعلى علمائهم وفقهائهم وصحافييهم، بل وحتى رُوائيّيهم، أن يناقشوا أيّ أمر في هدوء، ودون انفعال، ودون سِباب وتكفير وتخوين، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن، وأن يصبروا على الإنصات إلى وجهة نظر مخالفة، وأن يعرضوا الرأي عرضاً موضوعياً نقدياً، دون ثورة وصراخ وصياح، ودون إطلاق اللسان

بما يُخالف الأدب.. فالقاعدة عند الكافة هي القَدْح المسعور، والتشنّج إزاء الفكرة الجديدة، والمبادرة إلى تكفير القولة الجريئة، والاتهام بفساد العقيدة، والانتقال من تسفيه الفكرة إلى الطعن الشخصي، بأسلوب يفيض بذاءة وينضح بالحقد والكراهية، دون مبرّر ظاهر غير اختلاف الرأي. وهو أمر يتعذّر فهمُه إلاّ على ضوء طبيعة تكويننا، وفساد أسلوب تربيتنا، وأُفُقنا المحدود، وحظّ بلدنا المنكود.

فهل ثمة مبرّر إذن لحديثٍ عن سماحة شعبنا ورحابة صدره، ورفضه للتعصّب واتساع أفقه؟

نعم ثمة مبرّر، يتلخّص عندي في أن أكثر مَن صادفتُه في حياتي تمتّعاً بالسمات المصرية الصِّرفة، وبالخلق المصري الصميم، وهو شخص لا تملك بعد الجلوس إليه، والحديث معه، أو القراءة له، إلا أن تهتف صائحاً هاكم النموذج الأصيل للشخصية المصرية الحقّة، كان أكثر أهل الأرض سماحة في طباعه، ورحابة في أفقه، وأعمقهم أدباً واحتراماً إزاء الرأي المخالف لرأيه، وأصبرهم على النقد، وأَخْلاهم من كل أثر من آثار الحفيظة والحقد.

وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق.

عرفتُه عن قرب في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته حين كنت أستذكر دروسي مع ابنه ممدوح في حديقة منزله الرّحبة بمنشية البكري، أو في حجرة مكتبته... كان يأتي إلينا أحياناً فيحادثنا في الأدب أو الدين أو الحياة، أو يسألنا عما نذاكره من دروس أو نقرأ من كتب، أو يستعيد ذكريات صداقته الحميمة لأبي منذ أن كانا معاً في مدرسة القضاء الشرعي في مستهلّ العقد الثاني من القرن المنصرم، ومنذ أن أدرك كلّ منهما تشابه آراء الآخر مع آرائه في سبل الإصلاح الديني.. ومما لاأزال أذكره إلى اليوم حديثه إلينا عن كيف أن عثمان بن طلحة سادن الكعبة قبل فتح مكّة أغلق يوم الفتح باب البيت ـ وكان لا يزال على شِرْكه ـ وصعد السطح. فطلب رسول الله المفتاح فقيل له إنه مع عثمان. فلما أرسل في طلبه أبَى، وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لما منعتُه المفتاح. فَلَوَى عليّ بن أبي طالب يده وأخذ منه المفتاح عنوة وفتح الباب. فدخل النبي البيت وصلّى فيه ركعتين. فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع بين السّقاية والسّدانة، فأنزل الله تعالى آية: (إن الله

يأمركم أن تُؤَدّوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل). وأمر رسول الله عليًّا أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه عما بدر منه. فلما فعل عليّ ذلك قال له عثمان: يا عليّ، أكْرَهْتَ وآذيتَ ثم جئتَ ترفُق؟! فقال عليّ: لقد أنزل الله قرآنا فيك. وقرأ عليه الآية. فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله، وأسلم.

وأردف الشيخ مصطفى قائلاً: أثمّة مثل أوضح لأسلوب النبي في الدعوة ولسماحة دين الإسلام من هذه القصة؟ ألا تريان فيها شَبهاً بخرافة لافونتين التي سمعتكما منذ لحظات تستذكرانها عن الريح والشمس اللتين تراهنتا أيّهما أقدر على أن يجرّد رجلاً في أحد الحقول من عباءة يلبسها؟ فأما الريح فهبّت تحاصره وتُشدّد من هجومها، فإذا الرجل يزيد من تشبّثه بالعباءة وإحكام قَبْضته عليها. وأما الشمس فقد طلعت في هدوء وثقة إلى كبد السماء، تبثّ حرارتها، حتى رأى الرجلُ من المناسب أن يخلع العباءة من تلقاء ذاته ويُلقي بها جانباً.

"كان عنف عليّ بن أبي طالب كفيلاً بأن يزيد من عداء عثمان بن طلحة للإسلام إذ يُسلَب عنوة حقٌ بني عبد الدار في السّدانة، لولا تدخّل رسول الله، وردّ الأمانة إليه، وأمره علياً أن يعتذر عن تصرّفه العنيف معه.. وكُتُب السيرة مليئة بالمواقف التي حقّق فيها الرسول بسماحته وحلمه، ولينه وسعة صدره، ما لم يحقّقه السيف والعنف، والغلظة والفظاظة. (ولو كنتَ فَظًّا غليظَ القلبِ لانفضّوا من حَوْلك)".

***

وقد يستغرب القارئ قولي إن لقاءاتي الشخصية به، وقراءاتي فيما بعد له، وأحاديث أبي إليّ عنه، لم تعمّق من فكرتي عن الشيخ مصطفى قدر ما عمّقتْه صداقتي لابنه السفير ممدوح عبد الرازق التي امتدّت من عام ١٩٤٤ إلى يومنا هذا، أي على مدى أكثر من ستين عاماً، وإحاطتي الوثيقة بكافة جوانب خلقه وطباعه. فالابن صورة ناطقة دقيقة للأب، والتُفّاحة لا تسقط أبداً بعيداً عن الشجرة.. نفس سماحة الطبع والنفس والقلب. نفس اتّساع الأفق. نفس الوقار والتؤدة والاتّزان أمام صروف الدهر، ونفس الحزن إزاء ما يلمسانه فيمن حولهما من "ضيق العَطَن". وكثيراً ما يخامرني إحساس غريب إذ أجلس إلى ممدوح

بأن عُمر صداقتنا تسعون عاماً لا اثنان وستون، وأن صداقة أبي للشيخ مصطفى وصداقتي لممدوح صداقة واحدة شاء لها القدر أن تمتدّ قُرابة القرن.

غير أن أثر الوراثة والجينات لا أراه كبيراً فيما يتعلّق بالأخوين مصطفى وعلي عبد الرازق.. كان أحدهما يُكْمل الآخر دون أن يكون صورة منه. كلاهما من مدرسة الشيخ محمد عبده، والاثنان أزهريان، تربّيا ودَرَسا في بيئة أُسريّة وعلمية واحدة، وعانيا من جمود الأزهر ومن بطش الحُكّام ما عانيا.. يعشق كلٌّ منهما صحبة أخيه عشقاً، فإن زار أحدهما الآخر في داره وقيل له إنه يستحمّ، سحب كرسياً ودخل به الحمّام ليجلس إلى جوار الإبزن (البانيو) ثم ينخرطان في الحديث! ولم يجد علي عبد الرازق وصفاً لمصطفى في حفل تأبينه بالجامعة المصرية في ٢٧ مارس ١٩٤٧ أدقّ من عبارة "شقيق روحي"، أجهش بعد النطق بها بالبكاء فلم يُكْمل كلمته.. غير أن علياً كان على وجه اليقين أكثر حدّة في الطباع من أخيه، وأقلّ صبراً حيال المخالفين وحيال أناس زمنه.. فما كان للجينات إذن من التأثير في تكييف الطبيعة السمحة للشيخ مصطفى قدر ما كان لاعتبارين قويّين آخرين:

الأول: انتماؤه إلى الريف والأزهر والحياة المصرية الصميمة، ثم إقامته لسنوات عديدة في فرنسا، ودراسته في جامعتي السوربون وليون، وانخراطه في الحياة الفكرية الغربية انخراط الباحث المتعمّق. وهي سنوات وصفها شقيقه عليّ في مقدّمة كتاب "من آثار مصطفى عبد الرازق" بأنها غيّرت فيه كثيراً، وكانت ذات أثر خطير في تاريخه".

والثاني: تتلمذه لاثنين من عمالقة الفكر المصري في العصر الحديث، مختلفين في العقلية والمنحى أشدّ الاختلاف، هما الشيخ محمد عبده وأحمد لطفي السيد، مما حدا بالشيخ مصطفى، وهو المعجب بفكر الرجلين وشخصيتيهما، والمتأثّر بآرائهما، والمُقرّ بحكمتهما وإخلاصهما، إلى أن يتمثّل الاتجاهين في شخصه هو، ويخرج بعد ذلك على الناس باتجاه جديد. وهو أمر أراه المسئول الأول عما تميّز به الرجل من رحابة الصدر، إذ دَرَج على احترام مدرستين فكريتين متباينتين في آن واحد، ونشأ على توقير عالمين جليلين كلّ منهما عميق الفكر ومخلص جادّ، غير أنهما يكادان أن يكونا على طرفَيْ نقيض.

ثمة مع ذلك ما اجتمع عليه الرجلان وورّثاه تلميذهما مصطفى. فكل من محمد عبده ولطفي السيد يؤمن بالتدرّج في الإصلاح لا بالطّفرة التي أخذ بها جمال الدين "الأفغاني"

وأحمد عرابي. وقد كان فشل الثورة العرابية وفشل الأفغاني في نهاية المطاف في تحقيق مآربه، هما المسئولان عن انصراف أذهان المصلحين عندنا في مطلع القرن العشرين عن استخدام العنف وعن اللجوء إلى الثورة من أجل إصلاح الأمور.. كذلك اتفقا على مفهوم الأمة، وتفضيل إعطاء الأولوية للأمّة المصرية على إعطائها للأمة العربية أو للأمة الإسلامية.. كان "الأفغاني".. شأنه شأن ليون تروتسكي فيما بعد ـ يؤمن بالثورة الدائمة وفي كل مكان، ويدعو إلى محاولة إيقاظ الأقطارالإسلامية كافة ودفعة واحدة حتى يضمن تضافرُها وتضامنُها نجاحَ ثورتها ضد المستعمرين وأشياع المستعمرين من الحكام.. أما محمد عبده ولطفي السيد فكانا ـ كجوزيف ستالين فيما بعد ـ يريان التركيز على البدء بإصلاح بلدهما مصر حتى تصبح متى نجح المسعى والإصلاح، نقطة ارتكاز للعمل الأوسع نطاقاً، ومثالاً تحتذيه بعد ذلك أقطار العرب والمسلمين الأخرى.. وفي رأي الاثنين أن أيّ تغيير مرجوّ في أحوال الأمة لن يتأتّى إلا بإصلاح نظم التعليم، والاهتمام بتربية أبناء مصر تربية سليمة تؤهلهم بمرور الزمن لنيل استقلالهم، وتحقيق الحياة الديموقراطية الحقة.

غير أن الطرق تفترق بعد ذلك بهذين المفكرين المختلفين في المزاج والميول، وفي البيئة الاجتماعية والطبقية، والخلفية الثقافية والدينية، وفي الزيّ والمنصب. فالشيخ محمد عبده ـ على سبيل المثال ـ يرى البدء بإصلاح الأزهر متى شئنا إصلاح الأمة، بالنظر إلى أن الأزهر هو المعهد الذي يُخرّج علماء الدين من مختلف الطبقات الاجتماعية، وكذا الدُّعاة الذين ينبثّون في كل أنحاء البلاد بعد تخرّجهم، ريفها وحَضَرها، آخذين بيد أبناء أمتنا في هوادة ورفق لمساعدتهم على تقبّل الحداثة وثمار العلم والمدنيّة.. أما لطفي السيد فيرى في قرارة نفسه أن الأزهر بجموده ورجعية فكر رجاله الذين انبروا لمحاربة الشيخ محمد عبده نفسه، هو كالصخرة في مجرى النهر، يعوق انسياب الإصلاح، وأن حاله لن ينصلح إلا بانصلاح الأمة. فمن الواجب إذن أن نبدأ بالأمة في مجموعها، ثم يضطر الأزهر اضطراراً بعد ذلك إلى مجاراتها.

كان تأثّر مصطفى عبد الرازق بالشيخ محمد عبده سابقاً على تأثّره بلطفي السيد. فمدرسة الأوّل كانت في شباب الرجل أسبق في الظهور، وأعلى صدى، وأكثر أنصاراً. وكانت تربية مصطفى الدينية ومزاجه الهادئ المحافظ كفيلين بأن يجعلاه أشدّ تجاوباً مع

آراء الأستاذ الإمام، وهو ما نجم عنه في النهاية أن أصبح مصطفى أبرز تلاميذه.. غير أن التلميذ الحقّ هو دائماً مَن تجاوز فكرُه فكرَ أستاذه لا مَن توقّف عنده.. وقد ساعد لطفي السيد الشيخ مصطفى على تجاوز فكر الإمام دون أن ينال منه.. وإنه لمما يبعث على الطرب والنشوة أن نقرأ عن تطور علاقة مصطفى بلطفي السيد في المجلدات العديدة من يوميات الأوّل التي لم تُنشر بعد، والتي لا تزال في حوزة ابنه ممدوح.. كتب علي عبد الرازق عن هذه اليوميات يقول:

"أعرف أنه شرع يدوّن مذكرات عن حياته اليومية يستودع فيها ما يجده جديراً بأن يسجّل من الحوادث ومن خواطر نفسه. وقد دأب على تدوين هذه المذكرات سنين من حياته، يبذل في كتابتها عناية غير قليلة، فجاءت سجلاً حافلاً بالتاريخ والأدب.. لم أحاول، ولم أُرِد، أن اطلع على هذه المذكرات من بعده، إذ رأيتُ أن ذلك حقٌ خالص لأولاده، وإن كان هو قد اعتاد أن يقرأ لي فيها كثيراً ويحدّثني بها. وقد يبدو لذراريه ــ بارك الله فيهم ــ أن ينشروا يوماً من الأيام ما يكون صالحاً لأن يُنشر منها".

فها هو الشيخ مصطفى يزور لطفي السيد في ١٧ مارس ١٩٠٩ ــ بعد أربع سنوات من وفاة محمد عبده ــ فيكون حديثهما عن الموسيقى والغناء، "وأثرهما في ترقيق الشعور، وحاجة الأمة إلى شيء من الملاهي يبعث نشاط العاملين ويجدّد ما يُفني العملُ من طاقتهم.. وأعجبني قول لطفي إننا لا نجد ما يُفرّج عنّا كُرْبة هذه الحياة المملوءة بالآلام . فلا مغاني، ولا موسيقي، ولا ملاعب ــ أي مسارح ــ وكل ما بين أيدينا من ذلك فاسد لا يهيج شعوراً، ولا يبعث سروراً".. ثم يكتب بتاريخ ١٩ إبريل (بعد شهر من ذلك اللقاء) ــ يقول "مضت مدّة لم أزر فيها لطفي، وله عندي مكانة تحبّب إليّ زيارته. فذهبت إليه اليوم وتحدّثنا عن حرّية الأمة؛ أهي حق طبيعي أم حق اجتماعي.. لله لطفي! ما أصدقَ لهجته، وأبين حجّته، وأعذب حديثه! مجالسُه مجالس العلماء، وكلماته فيها كلمات الحكماء". وفي ٢ مايو، أي بعد نصف شهر: "قال لي لطفي: إنني أُحبّ لك أن تتفرّغ للعلم، وتجعل حياتك وقفاً على خدمته. ولابدّ لك من السفر إلى أوروبا، والإقامة هناك زمناً يمكّنك من التعرّف على ما عند القوم من علم نافع. فإذا عُدتَ إن شاء الله كنتَ لأمّتك خير مصلح، وما أشدّ حاجة هذه الأمة إلى العلماء المصلحين.. سأكون معك عند سفرك إلى أوروبا فأهيّئ لك

الأسباب، وأُعرّفك بأناس هناك تنفعك معرفتُهم".. فما مضى شهر ونصف على هذا الحديث حتى كان الشيخ مصطفى في قطار يُقلّه إلى بورسعيد (١٠ يونيو ١٩٠٩)، ومنها بالباخرة إلى مارسيليا، فالقطار إلى باريس حيث وجد لطفي السيد في انتظاره بالمحطة، فاصطحبه إلى فندق حَجَزَ لصديقه حجرة فيه، ثم تناولا العشاء وخرجا معاً يطوفان بشوارع المدينة. ولم يترك لطفي السيد صديقه ويقفل عائداً إلى مصر إلا بعد أن اطمأن تماماً إلى أنه وضعه على أول الطريق الذي يفتح أمامه أبواب المعارف الحديثة، ليس فقط بين جدران جامعة السوربون، بل وخارجها أيضاً.

كذا كان رجال مصر في الماضي. فما الذي عساه أن يكون قد حدث للمصريين؟!

أقام الشيخ مصطفى بفرنسا أكثر من خمس سنوات ونصف (١٩٠٩ ـ ١٩١٤). فما مضت تسعة أشهر على بدء تلك الإقامة حتى نراه يدوّن في يومياته في ١١ مارس ١٩١٠: "لولا أن الشيخ محمد عبده صاح صيحته التي زلزلت دعائم الجمود لما كان لمثلي أن يتخطّى الحَجْرَ الديني ليصل إلى باريس.. أجل إن تعاليم الأستاذ وعشرته قد أفادتني وطهّرت أغلب عقائدي الدينية.. ولكن بقى أثر للجمود يحدّد دائرة عقلي بحدود وهمية. وهذا التحديد الصناعي الخالي من المعنى هو الذي أشعر أن عقلي يجد من حين إلى حين إقداماً على تخطّيه". وإذ نقلّب صفحات يومياته صفحة تلو صفحة نجده يقلّب النظر في تأثير كلٍّ من محمد عبده ولطفي السيد في نفسه وفكره، محاولاً جهده أن ينفذ إلى جوهر ذاته هو بعيداً عن خضمّ تأثير الرجلين، وبعيداً عن تأثير بيئته الريفية والأزهرية وتأثير بيئته الأوروبية الجديدة معاً.. اقرأ له في يومياته بتاريخ ٨ يونيو ١٩١٠: "كنت أتكلم الليلة مع ع. ش. عن الشيخ محمد عبده وقيمته العلمية وأثره الإصلاحي. فقال: إننا نبالغ كلّ المبالغة في تقدير مَن يمتاز بيننا بشيء من الذكاء أو الاطلاع. ومن ذلك نَعْتنا للشيخ عبده بالفيلسوف والمصلح الديني، وما هو في الحقيقة إلا عالم أديب لم يميّزه عن غيره إلا سبقُه لأقرانه، لا امتيازه في الواقع بما هو من خصائص المصلح أو الحكيم.. وقد بذلتُ جهدي في أن أُبيّن له أن الأستاذ جاء بنهضة دينية علمية إن لم تكن جديدة في نظر الأمم الراقية فقد كانت عندنا جديدة وكانت ذات أثر.. وأكثر شباب نهضتنا الحديثة لا يكادون يعترفون للشيخ عبده بمزية لأن عمله العلمي كان في الأزهر وإصلاحه الديني غُرس بين ربوعه. ولهذا

كان خفياً على فتياننا أن يعرفوا القيمة الحقيقيّة لمبادئ الشيخ بالرغم من تمتّعهم بثمراتها... يريدون ألا يعدّوا منا فيلسوفاً حتى يكون كحكماء هذه الأمم أصحاب المذاهب الجديدة المبنيّة على علم غزير، وعقل قدير، وفاتَهم أننا أمة متواضعة في علمها ومدنيّتها فيكون حكماؤنا على نسبة من مركزنا، لأنهم خرجوا من أعصاب الأمة وأُلهموا ما يسدّد خطاها في سيرها الطبيعي.. ففي العالم إذن صنفان من الحكماء: مصلحو العالم ومصلحو الأمم. الأولون هم الفلاسفة على الإطلاق، والآخرون هم الفلاسفة إلى حدّ".

أما عن علاقته بلطفي السيد الذي كان يتابع باهتمام من مصر أخبار صديقه طوال مدة إقامته في فرنسا، فإننا نقرأ في يوميات الشيخ مصطفى في أغسطس ١٩١٣: "كنت أتحدث مع أ. ز. عن "الجريدة" ــ صحيفة لطفي السيد ــ وما ينبغي لترقيتها وتقوية مركزها. فقال لي: إن لطفي يريدك للجريدة ويعلّق عليك آمالاً كباراً. فقلت له: إنني أريد أن أشتغل بحركة علمية، وأول قواعدها فصل العلم عن السياسة ليكون القول في العلم للعلماء بعيداً عن المشاحنات الحزبية والمداهنات التي قد تبرّرها السياسة ولا يبرّرها العلم". ثم حدث بعد هذا الحديث بشهرين أن عاد مصطفى إلى مصر في زيارة قصيرة، فجاءه لطفي السيد في صباح ١٤ أكتوبر ١٩١٣ يرجوه أن يبقى في مصر ليشتغل معه بالجريدة، وأن يُتمّ رسالته بمصر ثم يعود إلى فرنسا ليناقشها. غير أن تلميذه أبى، قائلاً إنه أمْيل إلى تولّي حركة علمية مستقلة، وأن الأقرب إلى ذلك هو الاشتغال في الأزهر. وحاول لطفي أن يُثنيه عن هذا العزم، مؤكداً له أن الأزهر ليس بالوسط المناسب لمساعيه العلمية، وأن الصحافة هي الوسط الصالح للدعوة. فأصرّ الشيخ على الرفض.

شرع الشيخ إذن في تحرير نفسه، وأقدم يخطّ لها مساراً منفرداً خاصاً به.. يقول ابنه ممدوح: "لم يكن ينقصه ما كان ينقص لطفي السيد من الاحتكاك عن قرب بالأزهر وأوساط الأزهريين، ولا كان ينقصه من الجانب الآخر ما ينقص أستاذه الإمام من الاحتكاك بالأجيال من الشباب الذي تلقّى تعليمه في معاهد الدراسة المصرية غير الأزهرية وفي معاهد الدراسة في الخارج.. كان كالبرزخ بين رجال الدين وبين الناشئة الحديثة، وحلقة وصل بين القديم والجديد. وقد استطاع بفطرته السمحة المعتدلة أن يوفّق في منهجه بين مدرستي محمد عبده ولطفي السيد، فهو لا يرى تناقضاً في أن يبدأ الإصلاح داخل الأزهر وخارجه

في نفس الوقت، ما دامت الغاية النهائية واحدة، ألا وهي أن تبقى الشخصية موحّدة لا تتعرّض للازدواج الثقافي الذي صاحب مراحل عصر النهضة في بلدان أوروبا ذاتها"..

ظلت تشغل باله دائماً، في الغربة والوطن، مشكلةُ الصراع بين النظم الوافدة والمستحدثة، وبين التقاليد الراسخة، و"أمرُ الانقسام الأخلاقي الواضح في فتياننا من أثر التربية المدرسية والتربية الأزهرية". وقد نشأت تلك المشكلة وذلك الانقسام بتبنّي محمد علي لنظامين متباينين للتعليم: نظام تقليدي قديم تُرك على حاله دون إصلاح، يبدأ بالكُتّاب في القرية وينتهي بالأزهر في القاهرة، ونظام جديد له مدارسه التي تؤهّل خريجيها لتولّي المناصب المرموقة في الدولة، والتي أنشئت ووُضعت مناهجها على غرار معاهد العلم الأوروبية، فكانت لا تولي الدين وعلومه العناية الواجبة. وهنا بدأت تظهر في مصر تلك الهوّة الهائلة بين التعليم الديني والتعليم المدني، وذلك الاختلاف الواضح بين المشايخ وسواد الناس، سواء في الزّيّ أو نمط المعيشة أو العادات الاجتماعية أو أوجه التسلية أو حتى لغة الحديث، وبدأت المدارس الجديدة تخرّج جيلاً بعد جيل ممّن فُرّغوا تفريغاً من كل ما يصلهم بماضيهم ودينهم وتقاليدهم، قد فقدوا كل اهتمام حقيقي عميق بالدين، فإن هم أقبلوا عليه كان إقبالهم راجعاً في المقام الأول إما إلى أسباب شخصية، أو إلى بيئة يغلب التديّن عليها، لا إلى طبيعة تعليمهم. وزاد الطين بلّة ذلك الضعف المتفاقم في لغتهم العربية التي ضعف اهتمام المدارس بها، فانقطعت الصلة أو كادت بينهم وبين تراثهم الفكري..

صارت الأمة المصرية إذن أمّتين، لا حلقة وصل تصل بينهما عبر الفجوة المتزايدة الاتساع. وقد كتب الشيخ مصطفى في مايو ١٩١٤ عن تلك الفجوة يقول:

"سمعتُ من ع. بك. س. أنه كان مع جماعة من أصدقائه في باريس فأَثْنَى على شيخ طالب هناك. عندئذ صاح الباقون من البكوات: إنما هو أزهري، وسيبقى شيخاً ما عاش، ولو قضى حياته كلها في أوروبا.

"وكنتُ مرّة في دار الشيخ هـ. فقرّظتُ علم أستاذنا ز. أفندي، فقال الحاضرون من الشيوخ: هل يستطيع أستاذنا العالم أن يستخرج أوْجه البسملة من أبيات الشيخ الأجهوري: إن ينصب الرحمن أو يرتفعا.. قلت إنه خير مؤرّخ وجغرافي في مصر. فضحك زعيم القوم ملء أنفه وقال: علم لا ينفع، وجهل لا يضرّ!

"هكذا يحكم المدرسيّون إذن على الأزهريين، وينظر الشيوخ إلى أبناء المدارس!"

***

اضطرّ الشيخ إلى العودة من فرنسا في أواخر عام ١٩١٤ لسببين: الأول إصابته بداء السلّ، والثاني نشوب الحرب العالمية الأولى ورغبة المصريين في العودة سريعاً إلى بلدهم قبل أن تنقطع بهم السبل. وقد عُيّن عام ١٩١٥ موظفاً في المجلس الأعلى للأزهر، فمفتّشاً بإدارة المحاكم الشرعية، فلم يهنأ قلبه بهذا المنصب أو ذاك، ولا هو وجد ميدانه الحقيقي إلا حين اختير أستاذاً مساعداً للفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد عام ١٩٢٧. وكان لهذا الشيخ الأزهري المعمّم أسلوب خاص في التعليم الجامعي لا يكاد ينهجه غيره من الأساتذة في مصر. فالتعليم عنده لم يكن مجرّد إلقاء الدرس على الطلاّب وتلقينهم إيّاه، ولكنه عبارة عن صلة عقلية ينشئها بينه وبين طلاّبه. فهو يُشركهم معه في بحث الموضوعات واستخراجها من مظانّها، وفي مناقشة المسائل وفهم النصوص وتحرير الآراء. وهو في كل ذلك يُراجعهم ويُراجعونه، ويُعينهم ويُعينونه.. كلُّهم لكلِّهم أساتذة، وكلّهم لكلهم طُلاّب! وهكذا يصير درسُه عبارة عن مجتمع تتقاربُ فيه الأرواح، وتتآلف النفوس، وتنبتّ في جنباته عواطف الصِّدْق والإخلاص. وبهذا المنهج الجامعي كان يُربّي طلبة يحبّهم ويحبّونه، وينشأون على ما عوّدهم إياه من سُنَن العلماء وآدابهم، ومن الجدّ في طلب العلم لذاته والمثابرة عليه.. وكان في طريقته هذه من غير شك لمحة مما شاهده في جامعتّي باريس وليون، وما عرفه عن بعض الجامعات الأوروبية الأخرى.

وأما موقفه من الفلسفة ذاتها فموقف ينفرد به أو يكاد، وهو ما نستشفّه من مقال نقديّ له سطّره عن كتاب "الواجب" الذي ألفّه بالفرنسية چيل سيمون ونقله إلى العربية عام ١٩١٤ الدكتور طه حسين والأستاذ محمد رمضان بُغية أن يُزيلا ما علق بأوهام المسلمين من سوء الظن بالفلسفة، وأن يجعلا ذلك الفن صناعة عملية تشترك الطبقات كلّها في تناول مباحثها، والانتفاع بها في مضمار الحياة.. كتب يقول:

"لا يسعنا إلا أن نشكر الأستاذين على نيّتهما الشريفة.. غير أني لست من رأيهما في القول بأن حقّ الفلسفة أن تُتَّخذ نصيراً للدين، ووسيلة إلى تأييده، فإن ذلك ضارّ بالدين

والفلسفة جميعاً.. فأما ضرره بالدّين فلأنه يُعرّض عقائده، وهي عواطف قدسية تتأثّر بها النفس كما تتأثّر بلهجة الجمال، لمناقشات العقل ومتناقضاته. ومتى ما صارت عقائد الدين فلسفة تُكْتَسَب بالأدلة، وخرجت عن حكم المشاعر القلبية إلى حكم النظريات العقلية، وجدتَ في خيار المؤمنين من يقول:

كلٌ يعـــزّز رأيــه   يا ليت شعري ما الصحيح؟

"وأما ضرره بالفلسفة فلأنه يحدّد لمقدّماتها نتائج تقليدية، ويجعل بحثها عن الحقائق موجّهاً إلى غاية هي تأييد الدين، فتأخذ هي أيضاً شكلاً دينياً مقدّساً لا يتناسب مع حرية البحث والنقد.

"إن أقصى أماني الدين والفلسفة أن يتعاونا على إسعاد الإنسان: هذا من طريق القلب والعواطف، وهذا من طريق العلم والنظر، لا أن يلتقيا في ميدان واحد وجهاً لوجه.. إنني أحب الحرية حباً يجعلني حريصاً على أن تكون للعقول حريتها في الفهم، وللقلوب حريتها في الإيمان.. وما كانت الفلسفة لتعادي الدين، ولكنها أيضاً لاتخدُمه".

رُقّي الشيخ إلى درجة أستاذ للفلسفة عام ١٩٣٥. ثم عُين عام ١٩٣٨ وزيراً للأوقاف، وهو منصب شغله سبع مرات قبل تعيينه في ٢٧ ديسمبر عام ١٩٤٥ شيخاً للأزهر، فحسب أن بوسعه أن يرسم مناهج الإصلاح الذي كان يرتجيه للأزهر والأزهريين، وأن ينال هنا من النجاح ما ناله بالجامعة المصرية. ولكن هيهات! فقد أُقيمت في سبيل تعيينه شيخاً للأزهر عقبات مستندة في ظاهر أمرها إلى قانون الجامع الأزهر، ومردُّها في الحقيقة إلى أن الأزهريين نَفَسوا عليه ذلك المنصب الذي تتعلّق به أرواحهم وتنتهي إليه آمالهم وأبصارهم، وكلّهم وَرِمَ أنفُه أن يخرج هذا الأمر من يديه، فحاولوا أن يُشعلوها فتنة طاغية، وأن ينصبوا بدسائسهم الشباك له.

كان قانون الجامع الأزهر يقضي بأن يُختار شيخُه من هيئة كبار العلماء. ولايُعيَّن في هيئة كبار العلماء إلا مَن تولّى وظائف معيّنة في القضاء الشرعي، أو التدريس مدة معينة في بعض المعاهد الدينية. ولم يكن هذا الشرط متحقّقاً في الشيخ مصطفى. وقد كانت المدّة التي تولّى فيها التدريس بالجامعة المصرية، وهي أحد عشر عاماً، جديرة بأن تهيّئه ليتولّى مشيخة الأزهر، لولا أن قانون الأزهر نص صراحة على اشتراط أن يكون التدريس في

المعاهد الدينية خاصة.. ومن أجل ذلك رأى أولياء الأمر إصدار تشريع جديد يقضي بأن يكون التدريس في الجامعة مساوياً للتدريس في المعاهد الدينية في الترشيح لمشيخة الجامع الأزهر..وهكذا انحلّ الإشكال القانوني الذي كان السبب الظاهر للمعارضة بصدور هذا القانون الجديد بموافقة البرلمان. غير أن همس الناقمين ومكائدهم لم تنقطع.. يقول علي عبد الرازق:

"ولكن الأزهريين لا يريدون لأنفسهم ولا لأزهرهم خيراً ولا صلاحاً، فما انفكّوا يوصدون كلّ باب يُفتح لإصلاحهم، ويتربّصون الدوائر بكل من تحدّثه نفسه بأن يرتجي لهم الخير والإصلاح. بل لعلّ الله جلّت حكمته قد قضى ـ ولا رادّ لقضائه ـ بألا يتمّ للأزهر ولا للأزهريين خير ولا إصلاح؟..

وزاد الطين بلّة ما عَزَتْه جريدة "لوموند" الباريسية إلى الشيخ مصطفى ـ بعد تولّيه مشيخة الأزهر ـ من حديث اتّخذ منه خصومُه أداةً للنَّيل منه. وخلاصته أن فرنسا أحرزت مكاناً ممتازاً بما بذلت من الجهود الكريمة في نشر الثقافة بين المسلمين، وأن الشيخ يأمل ألا تتخلّى فرنسا عن خطّتها هذه حتى تحتفظ بالحبّ الذي يكنّه لها العالم الإسلامي.. وقد قامت صحف مصر والشام تُغالي في تزييف رأيه في مدح فرنسا، خاصة بعد أن أهدته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف من رتبة الصليب الكبير!

وفي يوم ١٥ فبراير ١٩٤٧ ـ أي بعد عام واحد، وخمسين يوماً من تولّيه مشيخة الأزهر ـ توجّه الشيخ مصطفى إلى الأزهر ليرأس جلسة لمجلسه الأعلى إلى ما قبل العصر، ثم عاد إلى منزله فتغدّى ونام القيلولة، ثم استيقظ فتوضّأ وصلّى. وأخذ يلبس ثيابه فشعر بإعياء وهبوط، فأوى إلى فراشه. واستُدعى الطبيب لإسعافه فوجد قضاء الله قد نفذ.

أجهش والدي بالبكاء حين قرأ الخبر في جريدة الصباح، وهتف صائحاً في غيظ شديد:

ـ قتله الأزهريون قاتلهم الله!

* * *

فهل مرّ بذاكرة الشيخ في لحظاته الأخيرة تحذير لطفي السيد له يوم ١٤ أكتوبر ١٩١٣ من الاشتغال في الأزهر؟

مَن يدري؟

سـيد قطـب

ـ يا سلام يا حسين! كلما جلستُ إليك وأغمضتُ عينيّ، خُيّل إليّ أني جالس إلى سيّد قطب!.. نفس الصوت، نفس النّبرة، نفس اللهجة والطريقة في الحديث... شيء غير معقول!

كذا كان زوج أختي عبد العزيز عتيق يقول لي، وهو ما أكّده غيره أيضاً فيما بعد.. غير أني لا أستطيع أن أحكم بنفسي، خاصة أني لم أستمع قط إلى تسجيل لصوت سيّد قطب، وأني لم ألتق به إلا وأنا في الثامنة أو التاسعة من العمر حين كان صوتي بالتأكيد مختلفاً عما أصبح عليه بعد ذلك.

كان سيد قطب ـ على نحوٍ ما، ودون قصد منه ـ سبباً لأكثر أيام دراستي مجداً!

كان صديقاً حميماً لزوج أختي. وهو الذي اقترح على عبد العزيز عتيق ـ حين قرّر الزواج ـ أن يتقدّم لخطبة إحدى ابْنَتَيْ أحمد أمين. ثم كان أن بات يتردّد على دارنا لزيارة أبي في صحبة عتيق.. وكان الاثنان وقتئذ يصدران من حين لآخر سلسلة من الكتب بعنوان "المحفوظات الجديدة"، كلّ منها يحوي مجموعة من القصائد التي يسهل على طلبة المدارس الثانوية قراءتها، وفي آخره تمثيلية شعرية طويلة (من ثلاثين إلى أربعين صفحة) عن أحد أبطال المصريين أو العرب، كرمسيس الثاني، أو عبد الرحمن الداخل، أو الناصر صلاح الدين، أو رفاعة الطهطاوي. وإذ لمسا مني إقبالاً على قراءة السلسلة وحفظ عدد من قصائدها، قال لي سيد قطب يوماً:

ـ إن أنت حفظت تمثيلية "صقر قريش" كاملة أعطيتك خمسين قرشاً.

وكان أن حفظتها وأخذت القروش الخمسين منه.. ثم حدث خلال السنة الأولى من

دراستي بالمدرسة النموذجية الثانوية، أن أعلن مدرس اللغة العربية أنه اختار لفصلنا تمثيلية "صقر قريش عبد الرحمن الداخل" لتمثيلها في حفل نهاية السنة الدراسية، ثم قال إنه سيقرأها علينا أوّلاً ثم يوزّع الأدوار. وإذ بحث في أوراقه عن الكتاب ليقرأ منه، تبيّن أنه نسيه في حجرة المدرسين، فأمر أحد الطلبة أن يحضره من مكتبه هناك.. غير أني أسرعتُ بالوقوف لأعلن بلهجة غير المكترث أنه لا حاجة لإحضار الكتاب نظراً إلى أني أحفظ التمثيلية برُمّتها:

ـ تحفظ ماذا برمّتها؟

ـ التمثيلية.

ـ تمثيلية "صقر قريش"؟

ـ نعم.

ـ تحفظها كاملة؟

ـ نعم.

وحدجني المدرس والطلبة بنظراتهم بينما ثَبّتُ عيناي على القمطر أمامي.

ـ فلنسمعها منك إذن.

ـ تمثيلية "صقر قريش" تأليف سيد قطب وعبد العزيز عتيق.. الفصل الأول.. يُرفع الستار عن عبد الرحمن الداخل جالساً مُطرقاً محزوناً في حجرته.. يدخل عليه خادمُه بدر.

عبد الرحمن: إيه يا بدر، ما وراءك؟ قل لي!/ هات، قصّ الاخبار في صدق قولِ/ هاتها! هاتها على أيّ شكل/.

بدر: ماذا أقول وقد غدَوْنا في الحياة مُهدّدينا

من معشر نقضوا العهود وأصبحوا في الغادرينا؟

عبد الرحمن: نقضوا العهود؟

بدر: أجل، وصاروا يقتلون ويظلمونا...

وعهد المدرس إليّ دون تردّد بدور عبد الرحمن، إلى جانب مهمة الملقّن لسائر الممثلين.

لم يكن ثمة ما يوحي في تلك الفترة من حياة سيد قطب ـ وهو الذي يقال إنه من أصل هندي ـ بنزعة إسلامية متطرفة أودت بحياته في نهاية المطاف.. كان أديباً قصصياً، وشاعراً من تلاميذ عباس محمود العقاد ومن المدافعين عنه ضد انتقادات محمد سعيد العريان وإسماعيل مظهر، يدعوه "إمام المدرسة الجديدة في الشعر". غير أنه كان ناقداً أدبياً من الطراز الأول، وهو ما يجعلني كلما تذكرتُ الآن تحوّله بكلّيته إلى النشاط الإسلامي وتفسير القرآن وإلى العداوة الضارية لمجتمعنا "الجاهلي" أفكر في حَسْرةِ نيتشه على تحوّل باسكال من العلوم الرياضية إلى الدّين.

لم يكن قبل سفره عام ١٩٤٨ إلى الولايات المتحدة لدراسة إدارة التعليم يختلف كثيراً عن غيره من الأدباء والشعراء، لا في نمط حياته ولا في أسلوب تفكيره، بل ولا عُرف عنه وقتها تمسكٌ صارم بأهداب الدين.. لم يتزوج قط. غير أني أعرف أن صديقه عبد العزيز عتيق، بعد زواجه من أختي، أراد أن يردّ له الجميل (أو الانتقام منه!) فسعى إلى تزويجه، وعرّفه بفتاة من أسرة غنيّة أعجبته، وتقدّم إلى أهلها لخطبتها فلم يقبلوه إذ رأوه "دميم الوجه، ثقيل الدم، لا مال له ولا جاه". كذلك كانوا قد سمعوا عنه أنه شديد السرف، يتقاضى مرتبه أول كل شهر فينفقه كله في يومين أو ثلاثة، ثم يدور على أصدقائه لاقتراض جنيه من هذا وجنيه من ذاك.. أما عما حدث له خلال الأشهر القليلة التي أمضاها في الولايات المتحدة فقَطعَ بسببه بعثته، وعاد إلى مصر لينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين ويصبح في فترة وجيزة علماً من أعلامها، وقطباً من أقطاب الثورة الإسلامية، فلغز لم يستطع أحد كشف النقاب عنه، ولا هو فسّره فيما بعد في أحاديثه عن نفسه. كل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد هو أنه أصيب بخيبة أمل في حضارة الغرب، وأنه انزعج إزاء "فساد الأخلاق" في المجتمع الأمريكي، وإزاء انحياز الأمريكيين ضدّ العرب إبّان الحرب الفلسطينية الأولى عام ١٩٤٨.

عاد إلى مصر فشرع يهاجم نظام التعليم فيها وتأثّره بالاستعمار البريطاني، داعياً إلى مناهج دراسية أكثر تمسكاً بالمفاهيم الإسلامية. وفي عام ١٩٥١ انضم إلى جماعة الإخوان، وكوّن في نفس الوقت علاقات وثيقة مع بعض الضباط الأحرار الذين كانوا يدبّرون ثورة ضدّ النظام الملكي، خاصة مع كمال الدين حسين الذي سعى بعد نجاح ثورة

يوليو ١٩٥٢ ــ ولكن دون جدوى ــ إلى إقناع عبد الناصر بتعيين سيد قطب وزيراً للتعليم.

عندئذ قطع سيد قطب علاقته بالضباط الأحرار وبهيئة التحرير التي كان أول من عُيّن أميناً عاماً لها، وكرّس وقته للدعاية لحركة الإخوان المسلمين والإشراف على تحرير جريدتهم. غير أن عبد الناصر لم يُمهله. فبعد محاولة اغتياله بالإسكندرية في خريف ١٩٥٤ ألقي القبض على سيد قطب بتهمة التحريض على هذه الجريمة فلم يفرج عنه إلا في عام ١٩٦٤. وسرعان ما ألقي القبض عليه مرة أخرى عام ١٩٦٥ بتهمة تدبير محاولة أخرى لاغتيال عبد الناصر، وكان أن حكم عليه هذه المرة بالإعدام، وكان أن شُنق في أغسطس ١٩٦٦.

الشيخ حسن البنّا

كنت وقتها (عام ١٩٤٦) في الرابعة عشرة من العمر، أمرّ بفترة من التديّن الشديد. وقد التقيت خلالها في الإسكندرية بزميل لي في المدرسة في مثل تديّني يدعى خليفة. كنا نلتقي كل صباح فنسير جيئة وذهاباً على شاطئ ميامي، كل يشير للآخر إلى ما يصادفنا من مناظر لا يرضى عنها الدين، ثم نعبّر معاً عن استنكارنا لها، مستعيذين بالله منها، ونحاول أن نلفت أنظار النساء في ملابس البحر إلى تعبير الاشمئزاز والازدراء على وجوهنا.

وخطر لخليفة يوماً أن ننتقم للدين من كل هذا الفجور الذي يملأ الشاطئ، وأن نقدم على عمل يرى فيه هؤلاء البابليون يد الله وغضبه. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، التقينا في مكان محدد بالشاطئ وقد أتينا بمجموعة من الخرق الصغيرة وقدر من الجاز وأعواد الثقاب، فكنا نشعل النار في الخرقة ونلقي بها في الكابينة من إحدى فتحات نوافذها، ثم ننتقل إلى الكابينة التالية.. فعلنا هذا في ست من الكبائن أو سبع، وعدنا لاهثين إلى البيت نرتقب وصول الأخبار إلينا عن حريق هائل يجتاح الشاطئ، فلما قصدناه عند الظهر، إذا الأمور تجري فيه كالمعتاد والنساء في ملابس البحر.

ثم بدأ العام الدراسي الجديد فجدّدت صلتي بخليفة. وقد لاحظتُ منذ الأيام الأولى أنه يقتصر في صلاته بالمدرسة على خمسة أو ستة من الطلبة ذوي طابع خاص يميّزهم عن غيرهم. فهم أعفّ الطلبة لساناً وأعزفهم ع اللهو والهذر، وأقلّهم اعتناء بالملبس. فإن كانوا لا يتمتعون بذكاء كبير ففي جدّهم واجتهادهم عوض عن الذكاء. وهم يلتزمون في علاقاتهم بقدر من السرّية عظيم. وكثيراً ما نراهم في أوقات الفسح منتحين ركناً من أركان حديقة المدرسة يتحادثون بصوت خفيض، لا يشاركون رفاقهم في لعب البلي والجري والضحك.

فإن انضم إليهم غريب شعر من فوره أنه قطع عليهم حديثهم الخاص. وهم في معاملتهم لمن ليس في حلقتهم يتخذّون سمت التنازل شأن الأخ الكبير العاقل. وبالرغم من أنهم كانوا يبادرون بمدّ يد المساعدة إلى كل من يحتاج إليها، فقد شاع بين الطلبة وصفهم بثقل الدم. وقد ميّزهم عن غيرهم أنهم كانوا إذا ذكروا النبي، أو ذُكر النبي في حضرتهم، تمتموا على الفور: صلى الله عليه وسلم. فعُرفوا لذلك في المدرسة بجماعة صلى الله عليه وسلم.

عرّفني خليفة بهم فكرهتهم منذ اللحظة الأولى: ربما لتفضيل خليفة لهم عليّ، وربما بسبب لهجة التعالي والإرشاد التي كانوا يتحدثون بها إليّ، بل ربما لأن شعوري نحو خليفة نفسه كان قد أخذ يتغيّر لإحساسي بأنه يعاملني معاملة الهادف إلى أمر، وأنه يتبع أساليب مرسومة للوصول إلى هذا الهدف، وكأني أداة يمكن استخدامها بعد علاجها.

بدأ بأن سرد عليّ قصة حياته: كيف أنه كان فاسداً شريراً (كان وقتها في الرابعة عشرة!)، ثم كيف أنه مرض مرضاً خطيراً كاد الأطباء ييأسون من شفائه منه. غير أن الله تعالى شاء له النجاة، فإذا به يقوم من فراش المرض إنساناً غير الذي كانه. وها هو أبوه (وهو قاض شرعي) يقرأ معه أثناء فترة النقاهة كتاب الغزالي "المنقذ من الضلال"، ويشرحه له، فإذا الكتاب نور أضاء له عقله وقلبه، فعرف الحق وأقسم ليكرسن حياته لتعريف الآخرين به.. ثم قال عني إني أشبه في الملامح شقيقاً عزيزاً له اختطفه الموت في ريعان الشباب، وأنه لذلك يكنّ لي مودّة خالصة، ويريد أن يفيدني من تجاربه وثمار تفكيره، موفّراً عليّ الآلام الشديدة التي عاناها قبل أن يدرك الحق. وقد كان لخليفة هذا فضل تعريفي في ذلك الوقت بكتابات ابن تيمية وابن حزم، وهي الكتابات التي ظلت الأثيرة عندي من بين كتب التراث الإسلامي لمدة طويلة.

ثم إذا به في أحد الأيام ينتحي بي في جانب الفناء أثناء فسحة الظهر ويقول:

ـ أتسمع عن الأستاذ الشيخ حسن البنا؟

ـ زعيم جماعة الإخوان المسلمين؟ قد سمعت به.

ـ وما رأيك فيه؟

ـ كل ما أعرفه عنه أنه نشر منذ أسبوعين في جريدة الإخوان خطاباً مفتوحاً إلى أبي يعرض عليه فيه الانضمام إلى الجماعة، ويقول إن مكاناً ينتظره في الصف الأول من

صفوفها.

قال فجأة:

ـ أتحب أ، تقابله وتسمع منه؟

ـ وكيف لي بذلك؟

ـ سيحضر هذا المساء إلى بيتنا لزيارة أبي، وهو يرحب دائماً بمقابلة الشباب.

ـ ليس لديّ مانع.

واستأذنت أبي عصراً في الذهاب، فتردّد لحظة يفكر، ثم أذن لي، على أن أسرد عليه عند عودتي ما دار من حديث. ثم قال وأنا أتأهب للانصرف:

ـ إن سألك الشيخ البنا لماذا لم أجب على خطابه المفتوح، فقل إنه لا علم لك بالموضوع.

***

في شقة خليفة بحيّ كوبري القبة، كان الشيخ حسن البنا جالساً مع أربعة أو خمسة من الضيوف الآخرين في حجرة الاستقبال عتيقة الطراز، وقد كُسيت مقاعدها بالقماش الأبيض.. كانوا فيما عدا الشيخ حسن البنا يحتسون القرفة. وإذ عرّفهم خليفة بي، ذكر للشيخ البنا أنني ابن الأستاذ أحمد أمين، فأبدى الشيخ على الفور دلائل الاهتمام، وخبط بكفه الغليظة ثلاث مرات على حشية الكرسي المجاور له إشارة لي أن أجلس بجانبه.

ثم واصل حديثه مع أحد الحاضرين:

ـ المسألة يا مولانا خلافية إلا فيما يتعلق بالطعام والشراب. فالحديث متَّفق عليه، والنهي شديد، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا من صحافهما". ويقول: "الذي يشرب في آنية الذهب والفضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم". ولا قياس مع النص، ولا مناص من الامتثال.

أجاب محدّثه:

ـ يا أستاذ، أنا أحكم بقوانين نابوليون، وفضيلة القاضي يحكم بالكتاب والسنّة، وكل منا ملتزم بشريعته.

ــ الأمر إنما جاء للمسلمين عامة وأنت واحد منهم.

ثم التفت الشيخ البنا فجأة إليّ:

ــ إذن فأنت ابن أستاذنا الجليل أحمد أمين.. لقد قرأت كل حرف كتبه أبوك مرات ومرات. وأقولها مُشْهِداً الله على ما في قلبي إني أراه قد استكشف تاريخ الحياة العقلية للمسلمين استكشافاً لم يُسبق إليه.

كان يتكلم بصوت جهوري عميق، وبسرعة عجيبة وكأنما يسمّع لنفسه في أقصر وقت ممكن درساً حفظه.

وبدأت أردّ بأن أبي يبادله شعور الاحترام والإجلال، فقاطعني بحركة من يده ورأسه وكأنما هو يرفض ما يقال من قبيل المجاملة.

ــ لعلك سمعت منه أنني وجّهت إليه خطاباً مفتوحاً بجريدتنا أدعوه فيه إلى الانضمام إلى الجماعة. أَحَدَّثكم في هذا الأمر؟

حاولت أن أكذب فلم أستطع. فلهجته الحاسمة، وسرعته في الكلام التي توحي بالرغبة في الحصول بسرعة على الردّ الصحيح لكي يتمكن من الانتقال إلى النقطة الهامة التالية، لم تتركا لي مجالاً سوى لأن أجيب:

ــ نعم.

ــ فلماذا لم يردّ إذن؟

ــ أبي يرى أن جماعة الإخوان المسلمين بدأت بداية طيبة محمودة في دعوتها الدينية، غير أنها انحرفت بعد ذلك عن غرضها الأصلي بتدخلّها في السياسة، وهو لا يرى الربط بين السياسة والدين.

ــ لا يرى الربط بين السياسة والدين؟!!

قالها في تهيّج شديد وهو يشدّ لحيته السوداء بأصابعه الخمسة، وكأنما هي المرة الأولى الي يسمع فيها هذا الانتقاد يوجّه إلى جماعته.

ــ لا يرى الربط بين السياسة والدين!! أنا بصراحة لا أفهم هذه العقلية. لا أفهمها إطلاقاً. (قال ذلك موجهاً حديثه إلى الآخرين). قد أفهمها من ملحد علماني، نعم. أما ممن لاشك في صدق إيمانه كأحمد أمين فلا.. هي نفس العقلية التي ألحظها في الشيخ مصطفى

عبد الرازق وهيكل باشا.. كيف يمكنكم أن تفسّروا أن أكبر علماء المسلمين شأناً عندنا يتحدثون عن عدم ارتباط السياسة بالدين، وكأنما لم يسمعوا قط عن الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ألم يكن الرسول عليه السلام يربط بين السياسة والدين؟ أيمكن أن نتصور شأن الإسلام الذي كتب أحمد أمين تاريخه لو لم يكن عليه السلام قد أحدث هذا الربط؟ ما رأيك؟

هززت كتفي لا أدري بم أجيب.

ـ تحب أن تفهم؟

ـ نعم.

ـ فاسمع إذن. الواضح من ملامحك أنك فتى نجيب. فاستمع إليّ، واشرب قرفتك قبل أن تبرد.. ما نعنيه بربط السياسة بالدين هو الإرادة أن تحكم هذه الأمة لا وفق دستور من وضع بشر قد يخطئون، وإنما وفق أحكام القرآن الكريم والسنة الشريفة. وهي أحكام لا يمكن أن يعتروها خطأ.. ما العيب في ذلك؟

ـ يقول والدي إن مقتضيات العصر....

ـ ماذا؟! (صاح مستنكراً دون أن يدعني أكمل جملتي وهو يخبط الأرض بعصا في يده). كيف إذن يسمي نفسه مسلماً ويحلّ لنفسه الكتابة في الإسلام؟ مقتضيات العصر؟!!

ـ أنا أرى أن أحكام القرآن وسنة النبي....

ـ صلى الله عليه وسلم.

ـ صلى الله عليه وسلم، تصلح لكل زمان ومكان.

ـ أنت ترى ذلك. ولكنه يرى أن القرآن لم يحو كل ما يمكنه أن ينظم علاقاتنا وأوضاعنا التي تختلف عما كان قائماً وقت النبي عليه السلام، وكأنما لم يكن من السهل على الله عز وجل أن يرى ما سيكون في المستقبل!! ومع ذلك، فلننظُر إلى الأوضاع التي لم تختلف.. خذ السرقة مثلاً. القرآن يقول: اقطعوا يد السارق. فلماذا لا يقطعونها اليوم؟

ـ أبي يقول...

ـ هذه سفسطة لا تفسير للدين.. (أيضاً دون أن ينتظر إكمالي للجملة). في عهد النبي كانوا يقطعون يد السارق، وكفى بذلك تفسيراً.. عبد العزيز باشا فهمي أيضاً ظهر مؤخراً ببدعة جديدة في الدين، محاولاً أن يثبت أن القرآن لا يسمح بتعدد الزوجات. ولكن النبي

والصحابة كانوا يتزوجون بأكثر من واحدة.. ما أريد قوله هو أن الحكومة الحالية تحكم بما يخالف الشرع، بما يخالف حكم الله. ومن يحكم بما يخالف حكم الله والشرع حقّت محاربته وإسقاطه. ومن ثم فلا مفر من ربط السياسة بالدين إن أردنا أن نهيئ مجتمعاً يرضى عنه الله، ويمكن للمسلم فيه أن يعيش حياة إسلامية حقاً.

ثم ابتسم الشيخ البنا في وجهي فجأة وكأنما هو يعتذر عن لهجته المتحمسة:

ـ لا يمكن للمسلم في يومنا هذا أن يكون مسلماً حقاً إلا إن وحّد مع غيره من الأتقياء المخلصين جهودهم في سبيل تهيئة المجتمع الصالح. العمل الفردي لايجدي.. الصلاة والصوم والزكاة لا تكفي.. والجهاد في سبيل فرض حكم الله واجب.. هذا ما تبيّنتُه حين كنتُ في مثل سنك يا سيد حسين.. الجماعة قوة، والمسلم بمفرده غير ذي شأن. وإذ أن جماعتنا هي الجماعة الوحيدة في أمتنا التي نصبت أمام عينها هذا الغرض، فإن الانضمام إليها واجب ديني.. هو الحل الوحيد. وإني أقولها مخلصاً مؤمناً: إن رفض الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين إعراض عن الإسلام بأسره.. قل هذا لأبيك!

ثم حوّل عني وجهه بغتة، فلم يوجّه إليّ كلمة واحدة بقية الجلسة.

ونقلتُ عند عودتي نص الحديث إلى والدي، فهزّ رأسه مرتين أو ثلاث، ولم يعلّق.

***

لم أجد في حديث الشيخ حسن البنا ما يغريني بالانضمام إلى الجماعة. وقد كان خليفة يتوقع أن يكون لقائي بالشيخ نقطة تحوّل في حياتي. فلما سألني بعدها عن انطباعي وارتآه سلبياً، فترت مشاعره نحوي فتوراً ملحوظاً، وكذا مشاعري نحوه ونحو أصحابه. ثم إذا بحادث يقع حوّل هذا الفتور عندي إلى عداء صريح ومجابهة مريرة، ألا وهو حادث اغتيال رئيس الوزراء في ذلك الحين، محمود فهمي النقراشي، على يد أحد أفراد جماعة الإخوان المسلمين، وقيل إنه كان بإيعاز من الشيخ حسن البنا.

كان النقراشي، زعيم السعديين، صديقاً حميماً لأبي، يسكن داراً قرب دارنا بمصر الجديدة، وكثيراً ما يتزاوران. وقد رأيته لأول مرة إذ كنت صبياً في روضة الأطفال.. دخلت علينا مدرسة الفصل ذات صباح تخبرنا أن النقراشي باشا وزير المعارف سيزور روضتنا

خلال النهار، وأنها ستطلب منا كتابة جملة، فمن كتبها ولم يخطئ في كلمة منها ناب عن الفصل في الترحيب بالضيف. وكانت الجملة:

"رَأسَ المجلسَ رئيسٌ من الرؤساء".

فلم يكتبها سليمة غيري. وإذ تقدّمتُ في فناء المدرسة للترحيب بالوزير، صافحني وقبّل رأسي وسألني عن اسمي. وعندما سأل عما إذا كنت ابن أحمد أمين، تقدّمت ناظرة المدرسة تجيب نيابة عني بالإيجاب، وتضيف قولها إن ابن الوزّ عوّام. فعاد يقبّل رأسي ويصافحني من جديد. ثم قال:

ـ حجم رأسه وبريق عينيه وحدهما يحكمان بذكائه.

ومن وقتها بات النقراشي عندي زعيم الأمة دون منازع، لا أقبل من أحد قولةَ سوءٍ فيه. فما اغتالته جماعةُ الإخوان المسلمين، حتى تبلور عدائي لها ولمرشدها العام.

زكي نجيب محمود

ظل والدي دائماً ينظر إلى طائفة من الأدباء الأصغر منه سنًا (كزكي نجيب محمود، ونجيب محفوظ، وعلى محمود طه، بل وتوفيق الحكيم) باعتبارهم من تلاميذه "الشبان" الموهوبين الذين يبشر مستقبلهم بالخير. فكانت علاقته بهم ـ حتى بعد أن شاخوا وحقّق بعضهم شهرة تعادل أو تفوق شهرته ـ علاقة الأب بابنه، أو الرئيس بمرءوسيه.. ومن الطريف حقاً أن نظرته هذه إليهم جعلتني مُذْ كنت صبياً، أعاملهم معاملة الندّ للند، والقرين في السن، رغم أن منهم من كان يكبرني بربع قرن أو ثلث قرن! وهو ما قد يفسّر جانباً من وقائع القصة التي سأرويها بعد قليل بشأن زكي نجيب محمود.

كنتُ في الثانية من عمري حين بدأ عام ١٩٣٤ يتردّد يومياً تقريباً على منزلنا بمصر الجديدة للاشتراك مع أبي في تأليف كتاب "قصة الفلسفة اليونانية" (صدر عام ١٩٣٥)، فكتاب "قصة الفلسفة الحديثة" (١٩٣٦)، ثم "قصة الأدب في العالم" (١٩٤٥).. فهو إذن يكاد يكون فرداً من أفراد العائلة، لا حاجة بنا إلى اصطناع الكلفة معه، وهو الذي يعرف أبناء أستاذه فرداً فرداً، ويتبسّط مع كل منهم في الحديث خلال الدقائق ما بين استقبالنا له عند وصوله إلى البيت، وبين نزول أبي للقائه في غرفة الصالون بالطابق الأول.. ثم تولّى بعد ذلك رئاسة تحرير مجلة "الثقافة" التي كان والدي صاحب امتيازها ورئيساً لمجلس إدارتها، وهو مااستدعى المزيد من توثيق الرابطة بينهما. وكان الدكتور زكي يحرص على ألا تفوته ندوة من ندوات الخميس المسائية في لجنة التأليف والترجمة والنشر التي ترأسها أبي منذ إنشائها عام ١٩١٤ وحتى وفاته عام ١٩٥٤، والتي كانت تتولّى إصدار مجلة "الثقافة". وهي ندوات كان أبي يسمح للصبية من أولاده بحضورها، فكانت مناسبة فريدة لنا

للاستماع إلى آراء الحاضرين من أقطاب الأدب والسياسة والقانون والفنون في مصر.

كنت وأخي جلال شديدَيْ الإعجاب بمقالات زكي نجيب محمود في "الثقافة". ليس فقط لما اعتبرناه عُمقاً في أفكارها، وإنما أيضاً لنبرة الإخلاص والصراحة حين كان يتحدّث فيها عن نفسه أو تجاربه الشخصية أو عن علاقته بأبيه.. ثم عنَّ لنا عام ١٩٤٩ (كنت وقتها في السابعة عشرة وجلال في الرابعة عشرة) أن نبدأ في كتابة المقالات للمجلة. ولا ندري إلى اليوم ما إذا كانت موافقة زكي نجيب على نشرها نابعة عن رغبة في إرضاء أبي وإرضائنا، أم عن رضا حقيقي عما نكتبه.. وكان كثيراً ما يصدّر مقالاتنا تلك بكلمة ثناء منه، أو بتعليق إيجابي قصير، كنا نكاد أن نرقص له طرباً! ولا زلتُ أذكر من بين هذه المقالات مقالاتي في نقد فلسفة الذّرائع عند وليام جيمس، ومقالاً لجلال في شرح إثباتات ديكارت الأربعة لوجود الله!

غير أن إعجابي بشخصيته كان يفوق إعجابي بكتاباته. فهو جمّ التواضع والأدب في سلوكه، عظيم الصدق والصراحة في حديثه، متقشف زاهد في أسلوب حياته، واسع الصدر لا يبخل بالنصح والتشجيع على المبتدئين وصغار المؤلفين.. وكثيراً ما كنت أزوره في شقته المتواضعة في شارع الجيزة مع صديق لي يُدعى إدوارد منسي كان وقتها يكتب الرواية والقصة، ثم تفرّغ بعد زواجه لعمله في مجال البترول. فكان زكي نجيب يناقش كتاباتنا مناقشة تدلّ على أنه يولي قراءتها اهتماماً فائقاً يندر أن يوليه كتاب كبير لآخر ناشئ.

ثم حدث في يناير ١٩٥٢ أن وُلد للملك فاروق ابنُه أحمد فؤاد، فطلعت الصحف والمجلات المصرية تهلّل كالعادة وتبارك، وتتظاهر بالفرح وتنافق، عدا مجلة واحدة هي مجلة "الثقافة". فكان أن اتصل المستشار الصحفي للملك، وهو كريم ثابت باشا، بوالدي تيليفونياً، يخبره أن جلالة الملك غاضب حانق ـ وكأنما كان الملك يقرأ "الثقافة"! ـ وهدّده بأنه ما لم تنشر المجلة تهنئة لجلالته في العدد التالي فسيصدر الأمر إلى وزارة المعارف بوقف اشتراكات المدارس المصرية في المجلة، وهو ما كان سيؤدّي في واقع الأمر إلى إفلاسها.. فاجتمع أبي برئيس التحرير (زكي نجيب)، وأطلعه على حقيقة الوضع، وأخبره أنه شخصياً عاجز عن أن يخطّ بقلمه تهنئة للملك، أو أن يعبّر عن "فرح" لا يشعر به، وعن

"أهمية" حدث لا يراه هاماً. ثم ترك الأمر برُمَّته لزكي نجيب ليرى فيه رأيه، فإن شاء تجنَّب إفلاس "الثقافة" كتب الدكتور زكي تهنئة قصيرة، وإن رأى أنّ ضرر النفاق يفوق ضرر إغلاق المجلة لم يكتب.

وكان أن طلع العدد التالي من "الثقافة" يحمل في صدارته مقالاً بالغ القصر بعنوان "مولد أمير" بقلم زكي نجيب محمود. وبالرغم من قصر المقال، والفتور الجليّ في عبارات التهنئة فيه، ووضوح أن هذا المقال المتأخّر قد خرج "من تحت ضرس" كاتبه ورغماً عن إرادته، فقد استشطتُ غضباً حين وقع بصري عليه، وبادرتُ بإرسال خطابٍ عنيف اللهجة إلى الدكتور زكي، أعبّر له فيه عن شدة ألمي وخيبة أملي إذ ينضمّ مثقف مثله إلى زمرة الغوغاء المنافقين.

ومضى يومان.. وإذ كنت جالساً ذات ليلة أقرأ في غرفتي بالطابق الثاني من منزلنا، سمعت من ينادي بالحديقة:

ــ يا حسين! يا حسين!

فأطللت برأسي من النافذة.

ــ حسين؟

ــ نعم.

ــ أنا زكي نجيب.

قلت: والدي ليس هنا.

قال: لا أريد والدك، وإنما أريدك أنت.. انزل.

فنزلت.. وخرجنا إلى الطريق نتمشّى وقد قبض بيده على ذراعي وهو يكرّر في صوت حزين:

ــ أنا آسف.. أنا آسف.. أنا آسف.. والله ما خطر ببالي قط أن أكتب ذلك المقال. وما كنت لأكتبه لولا ما قصّه عليّ أبوك من نبأ مكالمة كريم ثابت التيليفونية معه. ولا بوسعك أن تتصوّر ما شعرت به بعد نشره من جزع وتأنيب ضمير، خاصة بعد ما تلقيتُ رسالتك.. أنا آسف.. أنا آسف.. وأعدك ألا أعود إلى مثلها أبداً.

كنت وقتها طالباً في الجامعة دون العشرين، وكان زكي نجيب مفكراً مرموقاً في

السابعة والأربعين، ورئيس تحرير إحدى كبريات المجلات الثقافية في العالم العربي. ومع ذلك فقد رأى من واجبه أن يتوجّه بنفسه إلى بيت ذلك الطالب للاعتذار عن مقال كتبه، وليطمئنه على أنه لن يعود إلى مثلها قط!

لم تُفلس المجلة ولا هي أغلقت أبوابها في أيام الملك، وإنما خلال الأشهر الأولى من عهد الثورة. ثم كان أن توفيّ أبي، وانفرط عقد لجنة التأليف والترجمة والنشر، وترك زكي نجيب مصر ــ شأن الكثيرين غيره ــ للعمل سنوات طويلة أستاذاً بجامعة الكويت. وكان في إجازاته التي يقضيها في القاهرة يتصل بي تيليفونياً لأقابله في حديقة "جروبي" لمناقشتي بشأن تجديد عقد نشر الكتب التي اشترك مع والدي في تأليفها، ثم ندخل في دردشة حول نشاطه الأدبي ونشاطي.. وأذكر من بين هذه الأحاديث أنه أخبرني أنه في الكويت بدأ يشعر بوخز الضمير إزاء جهله الفاضح بثمرات التراث العَربي، وتركيزه الكامل في الماضي على النهل من منابع الفكر الغَرْبي. وقد حفزه اتساع أوقات فراغه هناك، وقلة المكتبات التي تبيع الكتب الأجنبيةَّ، على الشروع في قراءة بعض كتب التراث، فقرأ منها ــ حتى تاريخ لقائنا ذاك ــ خمسة كتب ذكر عناوينها ليّ!! ثم راح يسألني في تواضع حلو ــ وقد علم أني غارق لقمة رأسي في النهل من التراث العربي ــ عما أنصحه بقراءته منه. وكنت كلما ذكرت في حديثي تاريخاً هجرياً لتأليف كتاب أو وفاة مؤلف، هزّ رأسه بضيق ويقول: "أنا لا أفهم التواريخ الهجرية. اذكرها بالميلادي".. لما لم أغتفره له هو أنه ما مضت أشهر قليلة على هذا اللقاء حتى ظهر له كتاب "تجديد الفكر العربي" الذي تحدّث فيه عن التراث العربي حديث الواثق الملمّ به من جميع أطرافه، وكأنما قضى حياته بأسرها لا يقرأ إلا فيه!

كان دائماً ــ منذ صباه فيما أعرف ــ يشكو من ضعف شديد في البصر. وقد بلغ هذا الضعف في سنوات عمره الأخيرة أن كان إذا جلس للكتابة تجاوز القلم في يده حدود الورقة التي يكتب فيها فيسطّر كلمات على مفرش المائدة! وقد قصّ عليّ مرة قصة هامة عن والدي الذي كان يشكو هو أيضاً من ضعف شديد في بصره، لم أسمعها إلا منه.. وخلاصتها أن والدي حين اعتزم يوماً ما زيارة لندن، بعث برسالة إلى زكي نجيب فيها يرجوه تحديد موعد له مع طبيب عيون انجليزي. وقد اصطحبه الدكتور زكي في زيارته للطبيب الذي قال لوالدي بعد انتهاء الكشف:

ـ أنت مهدّد بفقدان البصر، ولن يُجدي معك علاج.. غير أني أنصحك بهجر القراءة والكتابة إلى نشاطات وهوايات أخرى، كالاستماع إلى الموسيقى مثلاً.

وخرج والدي من العيادة حزيناً مهموماً، والتفت في الطريق إلى زكي نجيب قائلاً:

ـ الاستماع إلى الموسيقى مثلاً! الرجل لا يعلم أن أمثالي وأمثالك قد أخطأوا منذ البداية خطأ فادحاً إذ وضعوا كل بيضهم في سلّة واحدة، متى راحت راح كل شيء.. لم نتعلّم صناعةً غير القراءة والكتابة، ولا كانت لنا بغيرهما اهتمامات يمكن أن تعوّضنا في يوم ما عند فقد البصر.. والمحزن حقاً أنني لم أتعوّد قط إملاء أفكاري على سكرتير لي، أو التركيز معه إن هو قرأ عليّ من كتاب.. فماذا عساي أن أصنع؟!

وتوالت الأيام فألهتني مشاغلي في العمل الدبلوماسي وكثرة أسفاري عن الالتقاء بزكي نجيب.. وكنت قد غضبت في فترة ما من تصريحات تفوّه بها في مجالسه الخاصة، ثم نشرها أنيس منصور في عموده اليومي بصحيفة "الأهرام" مؤدّاها أن أحمد أمين لم يشترك إلا بالقليل القليل في تأليف كتب "قصة الفلسفة اليونانية"، وقصة الفلسفة الحديثة"، و"قصة الأدب في العالم"، وأنه المؤلف الوحيد لها في واقع الأمر، وإن كان قد رأى وقتها استغلال شهرة أبي بوضع اسميهما جنباً إلى جنب على الغلاف!.. وكنت أحياناً أقرأ مقالات له من مقالاته الأسبوعية الطويلة في "الأهرام" التي أصبح في سنواته الأخيرة أحد كُتّابها الرئيسيين.. غير أني لم أكن استسيغها، وكنت أراه فيها يتكلّف الإنتاج، وأعجب إذ أرى شهرته تتزايد وتتضخم مع أفول فكره، وإذ أسمع وأقرأ نعت الناس له بالفيلسوف الكبير وهو الذي لم يُسهم في مجال الفلسفة بغير الترجمة وشرح أفكار الغير.

غير أن التدهور المتفاقم في الحياة الفكرية المصرية هو الذي أهّله لتلك المكانة البارزة.. كذلك لم تنل كتبه في الستينيات مثل "قصة نفس" و"قصة عقل" و"فلسفة وفن" أيّ حظوة عندي أو عند أخي جلال، حتى بتنا نفسّر إعجابنا بكتاباته ونحن صبية، بأننا كنا وقتها.. مجرّد صبية!

عبد الرحمن بدوي

لا أُنكر، ولا يستطيع مثقف من أبناء جيلي أن ينكر، فضل عبد الرحمن بدوي على تكويننا الذهنيّ في صبانا.. فالكثير من الكتب التي ألّفها أو ترجمها، والتي جاوز عددها المائة والعشرين، دخل نسيج هذا التكوين.. ألممنا منها لأول مرة بفلسفات نيتشه، وشوبنهاور، وشيلينج، وكانط، وشبنجلر، وارسطو، وأفلاطون، ودفعتْنا دفعاً إلى التزيّد من الاطلاع على هذه الفلسفات، وكانت قراءتنا الأولى لأسفار تشايلد هارولد لبايرون، و"الأنساب المختارة" لجوته، و"أندين" لفوكيه، ومسرحيات لوركا، هي في ترجمة بدوي العربية لها.. كذلك فإنه ما من أحد منّا بوسعه أن ينكر أن الرجل خدم الثقافة العربية كما لم يخدمها غير القليلين من أئمة التنوير في وطننا، وأنه ـــ بأحد معاني الثقافة والعلم ـــ أوسع معاصريه ثقافة وعلماً، وأكثرهم إحاطة باللغات الأجنبية، وأعظمهم إلماماً بالتراث الغربي والتراث العربي على سواء، يسبح في كليهما كالسمكة داخل الماء، ويتحدّث ويكتب عن أيّهما حديث العالم النّحرير وكتابته.

كل هذا لا يحول بيننا وبين أن نتساءل: ما محصّلة أو جدوى كل ما أفاده الرجل من ذلك العلم الواسع العريض؟ هل جعله رجلاً أفضل؟ هل أعانه على أن يكون إنساناً أسعد؟ هل زاد من رهافة حسّه ومشاعره؟ هل عزّزت الفلسفة من وقاره وثباته أمام تقلّبات الدهر؟ هل جعلته أكثر تقبّلاً للحياة وتفهّماً لنقائص البشر حوله؟ فإن كان طه حسين قد وصف بدوي في عام ١٩٤٤ بأنه أول فيلسوف مصري، فإن خلاصة الرأي الذي نخرج به بعد استعراض حياة الرجل هي: إن كانت ثمرة تكريس الحياة الطويلة لدراسة الفلسفة، والتعبّد في محرابها، والعزوف عن الزواج ومعاشرة الناس وتعهّد الصداقات من أجل التفرّغ الكامل

لها، هي الوصول إلى مثل هذه الحالة الكئيبة البائسة التي تبدو عليها شخصيته، فَبُعْداً للفلسفة أيّ بُعد، ولعنة الله على من أولاها اهتماماً، أو نظر بعد اليوم في كتاب فيها!

صاح كانديد في رواية ڤولتير بعد زيارته مع أستاذه دكتور بانجلوس لأحد مشاهير المفكرين: "ما أعظمه من فيلسوف! ما من شيء يُعجبه. ما من شخص عنده هو خليق بالاحترام".. فيجيبه دكتور بانجْلوس بقوله: "لا صديقي.. أقوى المعدات ما تهضم كل ما دخل إليها من طعام، لا ما تلفظ كلَّ لقمة تصلها".

وهي إجابة تدوّي في خاطري كلما قفزتْ إلى ذهني ذكرى الدكتور عبد الرحمن بدوي.

قابلتُه عدة مرات في حديقة دار الشيخ مصطفى عبد الرازق، وهو الذي شمل بدوي بعطفه ورعايته منذ التحاقه طالباً بكلية الآداب، وساعده على نيل مجانية التعليم فيها.. وإذ كان بدوي يمقت والدي أشدّ المقت لرفضه وهو عميدٌ للكلية السماح له بتجاوز شروط اللائحة الخاصة بتسجيل رسائل الماجستير، ولأنه وهو صاحب امتياز مجلة "الثقافة" كان يجيز نشر مقالات تعدّد الأخطاء التي انزلق إليها بدوي في بعض مؤلفاته، ولأنه ـ أي والدي ـ سمح لنفسه مرّة أن يغيّر عنوان قصيدة ترجمها بدوي للمجلة عن الإنجليزية، فجعله "صلاة جنين" بدلاً من "صلاة من لم يولد بعد"، أقول إن مقته لوالدي انعكس على موقفه مني، وإن خفّف من ذلك ما رآه واضحاً في مسلكي تجاهه من توقير وإجلال.

قضاء الساعات الطوال في حضرة بدوي أو في قراءة سيرته الذاتية ذات المجلدين (٧٦٥ صفحة من القطع الكبير) يعني قضاء الدّهر في السباحة في لُجّة الحقد والضغينة، والكراهية والمرارة والشكوى، والتحقير والتخوين والازدراء، والتسفيه وتلطيخ السمعة، سواء كان يتناول في حديثه أهلَ زمانه أو أهلَ غير زمانه، فيروعك أن تكون أكثر الكلمات تردّداً على لسانه أو على قلمه هما "الحقد" و"الحقود"، وهو ما قد يرى فيه دارسو علم النفس ضرباً من ضروب الإسقاط.

فالإسكندر الأكبر "طاغية مخرّب" ـ والشيخ محمد عبده "مصلح ديني مزعوم، متواطئ مع الاستعمار البريطاني" ـ وشيوخ الأزهر عامة "هم بطباعهم طمّاعون حاقدون يأكل الحسد قلوبهم، وفي سبيل نيل أيّ منصب ذي شأن لا يتورّعون عن استخدام أخسّ الوسائل، من وقيعة ودسّ ووشاية" ـ وسعد زغلول "تاريخه شائن ينضح بالخيانة

والوصولية وممالأة الإنجليز المحتلين" ـ ومصطفى النحاس "أبله معتوه، يرتكب المحسوبيات الصارخة والمظالم البشعة" ـ وجمال عبد الناصر "كان لا يُقدم إلا على ما يكفل له الشهرة والدويّ حتى لو جرّ على مصر الخراب" ـ وثورة يوليو ١٩٥٢ "أكبر كارثة عانتها مصر منذ الفتح العثماني لها" ـ والدكتور محمود فوزي "رجل معتوه جهول لا يدري في السياسية شيئاً، عييّ غبيّ لا يستطيع أن ينطق بحجّة، فضلاً عن صوته الذي كان يموء به مواء القط المخنوق" ـ ومحمد حسين هيكل باشا "رجل مفكّك الشخصية والإرادة" ـ والسعديون "وصوليون لا يستندون إلى أية مبادئ وطنية، بل يجمعهم الطمع في الحكم وما يجرّه عليهم من منافع" ـ والشيوعيون المصريون استولوا عام ١٩٦٤ على كل أدوات الإعلام، وراحو يتوزّعون فيما بينهم رئاسة تحرير الصحف، والهيئة العامة للكتاب، وإدارة المسارح وقطاع السينما والإذاعة، بل وزّعوا مكافآت للتأليف والترجمة على أنفسهم عن كتب لم يشرعوا فيها ولن يشرعوا أبداً!" ـ وأحمد حسين "طائش أحمق، عنيد مستبدّ الرأي، ضيّق التفكير، مندفع انفعالي جرّ على حزب مصر الفتاة الدّمار".

فماذا عن الكُتّاب وأساتذة الجامعات؟

طه حسين "كان يبلغ رجال البوليس عن زعماء الطلبة المعارضين للحكومة في كلية الآداب، مستعيناً في ذلك ببعض الجواسيس المتزلّفين إليه من الطلاّب" ـ وعباس العقاد "سليط اللسان، كان طول حياته مأجوراً لحزب من الأحزاب، للوفد حتى عام ١٩٣٥، ولخصوم الوفد حتى ١٩٣٨، وللسعديين حتى ١٩٥٠، ومأجوراً لبريطانيا طوال مدة الحرب على الأقل" ـ وأحمد أمين "حقود صفيق ضيق الأفق، تأكل الغيرة قلبه من كل متفوّق، لم يصل إلى منصبه بالعلم، بل بالصلات مع من في الحكم" ـ عبد الوهاب عزام "دجّال ديني وسياسي، أبعد ما يكون عن البحث العلمي" ـ أحمد بهاء الدين "شيوعي قحّ يتلوّن بألوان مختلفة بحسب الظروف" ـ عبد الرحمن الشرقاوي "متعدّد الأطوار، يدور من اليمين إلى اليسار، ويجمع بين عمامة الإسلام وكاسكيت الشيوعيين" ـ أحمد صدقي الدجاني "مأجور متزلف، مرتزق وصولي" ـ محمد الطالبي "أحمق جاهل" ـ قسطنطين زريق "هذا المسيحي المتّجر بالعروبة والممكّن للمسيحية في الجامعة الأمريكية ببيروت" ـ نجيب محفوظ "يلهث وراء الشيوعيين ويدعو الناس إلى قراءةٍ ماركسية لقصصه، زاعماً أنها قصصاً رمزية

تقوم على الصراع الطبقي" ــ توفيق الحكيم "أَرْسَلَتْه أخبار اليوم عام ١٩٤٩ على نفقتها الكاملة إلى باريس ليوافيها بمقالات عنها، فبعث بمقالات هزيلة سمجة تدلّ على جهله التام بباريس" ــ زكي نجيب محمود "لم يدرس الفلسفة دراسة منتظمة في معهد علمي، ولم يكن له من الإنتاج إلا مقالات مستواها لايزيد عن مستوى طالب في المرحلة الإعدادية" ــ على إبراهيم باشا (عميد كلية الطب) "وقح جبان، انتهازي لا مبدأ له، يأكل على كل الموائد" ــ عبد العزيز السيد (وزير التعليم العالي) "جاهل مهرّج لا مؤهّل له عند صاحب السلطان إلا سرد النكات والفكاهات" ــ إسماعيل غانم "عميل جهاز المخابرات، يتولّى كتابة التقارير السياسية ضد أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، فعيّن وزيراً للثقافة ثم مديراً لجامعة عين شمس مكافأة له على هذه الأعمال الخسيسة الدنيئة" ــ كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول "عُشّ للأفاعي، وموئل للمنافقين، ومرتع خصب للجهال والدسّاسين".

ثم البابا يوحنا بولس الثاني: "هذا البابا الرحّالة، السندباد الجوي، الذي جعل الموضوع الرئيسي في نشاطه البابوي ومواعظه الرعوية هو مسألة وسائل منع الحمل!".

ثمة عامل واحد يجمع بين مواقف عبد الرحمن بدوي من الكافة: هو أن الشريرين الحقودين، الكذّابين الدسّاسين، الأفّاقين المأجورين، الدجّالين الوصوليين المعتوهين، والجهلاء الاغبياء الأدعياء السفهاء العملاء، هم عنده كلّ من وقف في طريق ترقية له، أو لم يجدّد له إعارة في الخارج، أو لم يعجبه كتابٌ ألّفه، أو عاب على ترجمة له، أو لم يحتف به الاحتفاء الواجب؛ وأن الأفاضل الجديرين بالودّ والاحترام في كل هذه الحياة الدنيا، وعددهم لايتجاوز عدد أصابع اليدين، هم:

١ــ الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي أيدّ طلبه مجانية التعليم بدعوى تفوّقه، فساعده على تحقيق بُغيته رغم معارضة العميد الشرير منصور فهمي بحجة أن والد بدوي من الأثرياء.

٢ــ طه حسين (رغم ما سبق أن أوردناه من وصف بدوي له) لأنه أرسله وهو طالب في رحلة صيفية إلى ألمانيا وإيطاليا، ولأنه أيدّ تسجيله لرسالة الماجستير في وجه معارضة العميد "الحقود" أحمد أمين.

٣ــ أحمد نجيب هاشم وزير التربية والتعليم، "وهو رجل يتحلّى بالنزاهة ونبالة

الأخلاق وحُسن التقدير"، الذي وافق على ترقية بدوي إلى درجة أستاذ ذي كرسي.

٤ــ السفير محمد التابعي سفير مصر في إيطاليا، "الذي أفاض عليّ أثناء إقامتي في روما من كرمه وحرارة استقباله ما ضاعف من سعادتي".

٥ــ محمد حسن الزيات وزير الخارجية، الذي توسّط لدى السادات عام ١٩٧٣ من أجل العمل على إطلاق سراحه من معتقله في ليبيا.

٦ــ أحمد حسن الفقي "ذلك السفير المصري الممتاز في الهند الذي سعى سعياً مشكوراً لدى وزارة الثقافة الهندية حتى ترسلني على نفقتها في جولة من المحاضرات في أربع جامعات هندية كبيرة".

وتتراوح مراكز المغضوب عليهم والضالين عند عبد الرحمن بدوي ما بين جمال عبد الناصر "الذي استولى الإصلاح الزراعي في عهده على ٢٥ فداناً من أملاكي، ولم أحصل على مليم واحد تعويضاً عما استولى عليه، والذي قرّر فرض الحراسة على أسرتنا فكانت إحدى ضحايا اللجنة العليا لتصفية الإقطاع"، وبين موظف لبناني في مطار بيروت، اكتشف أنه ليس بجواز سفر عبد الرحمن بدوي تأشيرة دخول، "فراح يهرف بما لا يعرف، وكان غبيًّا غليظاً جباناً معاً، ذا خيال مريض، وحقد دنيء"، فأبى أن يسمح له بدخول لبنان.

غير أن ما يثير عجبنا حقاً هو ضعف المنطق عند هذا الفيلسوف الذي حصل على مجانية التعليم بكلية الآداب بدعوى تفوّقه في "المنطق"..

تأمّل قوله عن المصريين إبّان الحرب العالمية الثانية: "وكان المصريون جميعاً ــ باستثناء الخونة من أذناب الإنجليز وعملاء الشيوعية ــ يتمنّون انتصار ألمانيا، لأن هذا الانتصار هو الذي سيحلّ مشاكل كلّ البلاد العربية".. أيّ منطق هذا؟ المصريون جميعاً؟ باستثناء الخونة؟ انتصار ألمانيا كان سيحلّ مشاكل كلّ البلاد العربية؟.. أو استمع إلى حديثه عن عزيز المصري باشا: "كنت وأصحابي معجبين به، لأنه القائد المصري الوحيد الذي خاض معارك حربية، بينما لا يوجد في الجيش المصري كله ضابط ــ بأيّ رتبة كان ــ قد خاض غمار أيّ حرب"... الوحيد؟ في الجيش المصري كله؟ غير أننا نترك هذا لندلف إلى الحديث عن مدى إعجاب بدوي بهتلر والنازية. فأدولف هتلر هو عند فيلسوفنا أحد العشرة المبشّرة بالجنّة ممن سبق أن أوردنا أسماء ستة منهم: "وقد قرّرتُ إبّان إقامتي في ميونيخ

ـ عاصمة الحركة النازية ـ عام ١٩٣٧، أن أدرس هذه الحركة دراسة عميقة، وبدأتُ بكتاب "كفاحي" لهتلر، وتلوته بكتاب "أسطورة القرن العشرين" لألفريد روزنبرغ، وغيره من الكتب العديدة التي اعتمدتُ عليها في سلسلة المقالات التي كتبتُها في جريدة "مصر الفتاة" في صيف ١٩٣٨ وما تلاه. وعلى الرغم من أن إقامتي في ميونيخ استغرقت شهراً وأحد عشر يوماً فقط، فقد تبلورت أثناءها أفكاري السياسية، ومنها إيماني بأن النموذج الذي ينبغي لمصر استلهامه هو ما تحاول النازية تحقيقه لوطنها ألمانيا. ولما كانت ألمانيا لم تستعمر مصر ولا أي بلد عربي أو إسلامي، وكان الإعجاب بألمانيا أصيلاً في الشعب المصري، بل وسائر الشعوب العربية والإسلامية، فلم يكن ثمّ أيّ تحرّج في استلهام نموذج ألمانيا".

وقد رأى بدوي في شهر فبراير ١٩٣٨ أن يتّصل بزعماء جماعة "مصر الفتاة"، أقرب الجماعات والأحزاب المصرية شبهاً بالحركات الفاشية، وأن يتعاون معها، وأن يكتب في جريدتها معرّفاً قرّاءها بأيديولوجية الفاشية والنازية. "فكتبتُ عدة مقالات عن النازية: مبادؤها، والفلسفة السياسية التي تقوم عليها، وتنظيماتها الحزبية، وترجمتُ وشرحتُ برنامج الحزب النازي، مستعيناً بكتابيْ هتلر وروزنبرغ، وبرسائل صغيرة كانت من مطبوعات حزب النازي حملتُها معي من ميونيخ. وكانت كل هذه المقالات بتوقيعي وباسمي الكامل".

من هذا المنطلق النازيّ إذن يدافع بدوي عن جريمة اغتيال العيسوي لرئيس الوزراء أحمد ماهر في أول فبراير ١٩٤٥ عُقَيب تلاوة ماهر في مجلس النواب لقرار إعلان مصر الحرب على ألمانيا وإيطاليا واليابان، على ضوء قرار الحلفاء بعدم السماح بالانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة إلا للدول التي أعلنت الحرب على دول المحور قبل انتهاء الحرب. يقول بدوي:

"لقد كان عملاً مشيناً خسيساً عارياً من كل شهامة وكرامة أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا في فبراير ١٩٤٥، في الوقت الذي أطبقت فيه جيوش الحلفاء على ألمانيا وتيقّن أمرُ هزيمتها بعد بضعة أسابيع.. ثم ماذا كان سيحدث لو لم تُضَمّ مصر إلى هيئة الأمم المتحدة؟.. لقد اعترف العيسوي منذ اللحظة الأولى بكلّ شجاعة ورباطة جأش أنه هو

القاتل، وأنه هو وحده المسئول، وأنه قام بهذا العمل دفاعاً عن شرف مصر، وبدافع من الوطنية الخالصة، لأنه شعر أن إعلان مصر الحرب على ألمانيا هو عمل دنيء يلوّث كرامة مصر ويجعلها مجرّد ألعوبة في يد بريطانيا. فماذا جنت ألمانيا ضد مصر حتى تعلن مصر الحرب عليها؟ إن الجاني على مصر هو بريطانيا التي تحتلّ مصر منذ ثلاثة وستين عاماً وتسومها الذلّ والهوان. فبأيّ حقّ إذن تعلن مصر الحرب على عدوّ عدوّها؟".

كذلك يدافع بدوي عن جريمة اغتيال حسين توفيق في ديسمبر من نفس العام لوزير المالية الوفدي أمين عثمان، "الرمز المتجسّد للخيانة العظمى، الذي كان من المتوقّع أن يلقى جزاءه عن هذه الخيانة على يد أحد الشباب الوطنيين". فإن نحن غضضنا الطرف عن هذه المباركة النظرية من جانب بدوي لجرائم الاغتيال السياسي، فإنه لمن المذهل المدهش حقاً أن نرى فيلسوفنا لا يتحرّج من أن يلعب دور القباضيات والبلطجية وعصابات النازيين والفاشيين إزاء مفكر مرموق مثله، هو عباس محمود العقاد. اسمعه يقول:

"كتب العقاد مقالات ضد الإخوان المسلمين، لكن هؤلاء سكتوا ولم يحرّكوا ساكناً. ثم انكفأ بعد ذلك يهاجم مصر الفتاة. فلما كتب أوّل مقال، تشاورنا في مصر الفتاة بماذا نردّ. فرأى محمد صبيح أن يكون ذلك بالردّ القاسي في مجلتنا، وكتب فعلاً مقالاً بعنوان "العقّاد جهول يريد أن يعلّم الناس ما لا يعلم". فكتب العقاد مقالاً آخر أشدّ وأعنف. وكان من رأيي أن العقاد يرحّب بالمقالات، فلا علاج له عن هذا الطريق، بل لابدّ من استخدام العنف معه لأنه لا يردعه غير العنف. وأخذ برأيي اثنان من أعضاء الحزب أحدهما هو الذي كان قد أرهب قاضي الإحالة. فتربّصا للعقاد وهو عائد إلى بيته رقم ١٣ شارع سليم في مصر الجديدة، وانهالا عليه بالضرب والصفع والركل، وأفهماه أن هذا تأديب مبدئي بسبب مقاليه ضد مصر الفتاة، فإن عاد، عادا إليه بما هو أشدّ نكالاً... وأحدثتْ هذه العلقةُ أثرها الحاسم، فخرس العقاد خرساً تاماً، ولم يعد إلى الكتابة ضد مصر الفتاة"!

***

تلك إذن مجرد لمحات من الحياة الكئيبة المثمرة لهذا الفيلسوف التعس. حياة قضى ساعاتها بأسرها في القراءة والكتابة، دون أن يسمح إلاّ لماماً للصداقة أو الحب أو الزواج

بأن تقتطع من هذه الساعات. (سأله الضابط الليبي وهو معتقل في سجن الكويفية شمال بنغازي: "لماذا لم تتزوج"؟ فأجاب بقوله: "لأني آثرتُ التفرّغ للعلم وحده، ولم أُرد أن يشغلني عن العلم والبحث العلمي شيء، وأنت تعلم مشاغل الأسرة والأولاد".

وكم كنت أودّ ـ لولا ضيق المساحة أن أتناول بالتحليل موقفه من المرأة. فهو يحرص كلّ الحرص على أن يورد هنا وهناك في كتابه "سيرة حياتي" أسطراً عن فتيات أوروبيات التقى بهن أثناء إقامته في ميونيخ (٤١ يوماً)، وبيروجيا (٤٣ يوماً)، وهولندا (٤٢ يوماً)، دون إشارة واحدة في الكتاب كله إلى صلة بامرأة مصرية واحدة. وهو يتحدّث في تلك الأسطر عن جلوسه مع فتاة ألمانية في السادسة عشرة تحت ظلال الزيزفون في الحديقة الإنجليزية بمدينة ميونيخ، "نتساقى أحاديث الغرام وملاطفات الهوى، حتى انتصف الليل، لكني لم أرها بعد ذلك أبداً!!". وعن فتيات ألمانيات ونمساويات في بيروجيا بإيطاليا، "كنتُ أوثر واحدة منهن بالنزهة الخلوية في الروابي المحيطة بالمدينة، فنقضي المساء حتى ساعة متأخرة من الليل، والعفاف أقوى رقيب علينا، فلا نتبادل أكثر من لمسات الأيدي أو المخاصرة في المشي، وحرّمنا على أنفسنا ما يتجاوز ذلك، حتى القُبَل الخفيفة". ثم يستقرّ قلبُه ـ ولمدة أربعة عشر يوماً ـ على فتاة نمساوية، كان يقابلها كلّ مساء عقب انتهاء المحاضرات العامة فيتجاذبان أطراف الحديث حتى منتصف الليل، وسافرا معاً إلى فلورنسا حيث أمضيا بها نهاراً كاملاً قضياه في زيارة المتاحف. ثم كان أن اضطر إلى العودة إلى مصر، فتبادلا في ليلة الوداع الأقسام على الوفاء في الحب وهما جالسان على الصخر خارج بيروجيا. وكان القمر وقتها ساطعاً، "فاستحلفناه أن يكون شاهداً على هذه الأيمان". وثمة فتاة هولندية رائعة الجمال "تبادلنا أحاديث الغرام البرئ، لكن علاقتنا لم تستمر إلا أسبوعاً واحداً، لأنها كانت مضطرة إلى السفر". أما الهولندية الثانية "فقد عرفتُها سنة ١٩٥٠ في متحف اللوفر بباريس وأنا واقف أتأمّل لوحة الموناليزا، وقد زادني بها إعجاباً ثقافتها الأدبية والفنية الواسعة، فخرجتُ أتجوّل معها في حديقة اللوكسمبورج، ثم التقينا في المساء في مقهى غنائي تونسي، وقد أحضرتْ هي معها أخاها الأصغر. ثم ودّعتُها إذ كان عليها أن تستقلّ القطار في اليوم التالي عائدة إلى أمستردام".

إنه لا يتحدّث أبداً عن علاقة جنسية كاملة. ولعلّ إقدامه على الحديث عن تلك العلاقات

السطحية غير الكاملة هو من قبيل التفاخر بأن له صولة حتى في هذا المجال "غير الإبداعي"! غير أنه لا يذكر في هذا المجال إنجازات له "لم تحدث لغيره من قبل أو من بعد!". والغريب حقاً أنه يرى مناسباً أن يُنهي هذا الكتاب الضخم بأسره (٧٦٥ صفحة من القطع الكبير جُلّها مخصص لاستعراض إنجازاته العقلية)، بالحديث عما انتابه أثناء زيارته لإيران عام ١٩٧٣ (وهو في السادسة والخمسين من العمر) من حسرة على صعوبة التعرّف إلى فتيات أو سيّدات في إيران "لحرصهن كلّ الحرص على عفافهن"، ثم يورد أبياتاً من قصيدة هزيلة سقيمة كتبها في هذا الموضوع الهام، مطلعُها:

شكوتُ إليك يا خيّام من حالي بطهران   فلا "شيرين" تبسم لي، ولا "زهراً" تمنّاني

* * *

أثمة قراءةٌ هي أدعى إلى إحساس المرء بالحسرة، والألم، وخيبة الأمل من قراءة هذا الكتاب لفيلسوف مصر الوحيد؟

إبراهيم باشا عبد الهادي

قابلته أول مرة في منزلنا بالإسكندرية عام ١٩٤٦.. كان النقراشي باشا يحاول جاهداً وقتئذ أن يربط أبي بالحزب السَّعْدي الذي كان يرأسه، والذي يضمّ الكثيرين من أصدقاء والدي كالدكتور عبد الرزاق السنهوري. وقد فاتحه حتى يتولّى رئاسة تحرير صحيفة الحزب الجديدة "الأساس"، فأبى رغم ضخامة المرتب المعروض (ثلاثمائة جنيه في الشهر!). فأرسل النقراشي إليه إبراهيم عبد الهادي ليحاول كَرّةً أخرى إقناعه. فعاد إلى الاعتذار.

حاول أبي في شبابه الأول أن يهتمّ بالسياسة فلم يفلح. "فقد كنتُ أخاف السجن وأخاف العقوبة. ولعلّ من أهم أسباب خوفي إشفاقي على والديّ وقد أصبحتُ ابنهما الوحيد بعد وفاة أخي، إذا سمعا بحبسي أو عقابي هدّ ذلك من كيانهما الذي أشرف على السقوط. وقد علّمني أبي الإفراط في التفكير في العواقب. ومن فكّر في العواقب لم يتشجع. والسبب الثاني أن مزاجي مزاج علمي لا سياسي. ولهذا كنت أختلف عن كثير من زملائي السياسيين كمحمود فهمي النقراشي وصبري أبو علم بأنهم كانوا يؤمنون بسعد زغلول كل الإيمان، ويعتقدون صحة كل ما ذهب إليه وارتآه، ويؤوّلون ما يصدر عنه من خطأ، ويلتمسون الحجج لتبريره. ولم أكن على هذا المذهب، بل كنت أؤيد سعداً وأنقده، وأؤيد عدلي يكن وأنقده، وليس هذا هو مزاج السياسي الذي يؤمن بكل ما يصدر عن الحزب ويتحمس له..".

ثم كانت مقابلتي الثاني معه عام ١٩٤٨، في مناسبة كانت ذروة حياة والدي الأدبية وتتويجاً لها وله. فهو لم يُمنح فيا جائزة الدولة للأدب فحسب، بل ودرجة الدكتوراه الفخرية التي قرر مجلس كلية الآداب خلعها عليه. وقد حضرتُ مع كافة إخوتي الاحتفال الضخم

الذي أقيم لهذا الغرض في قاعة الاحتفالات بجامعة فؤاد، فكانت دموع الفرح لا ينقطع تدفّقها من عينيّ طواله. فما تقدّم أبي في روبه الجامعي من المنصة ليتسلّم براءة الجائزة من إبراهيم عبد الهادي رئيس الديوان الملكي، حتى قمتُ من مقعدي أصفق بكل ما فيّ من قوة، ولم أملك نفسي من أن ألتفت إلى الجالسين جواري قائلاً: "هذا أبي!". وكان إحساسنا جميعاً وقد رأيناه يخرج منديله ليمسح دموعه أن ذلك اليوم كان أعظم أيام حياته. كما خفقت قلوبنا إذ نسمع عبد الهادي يقول لوالدي بالعربية الفصحى وهو يشدّ على يده: "ما سررتُ يوماً سروري اليوم بتكريم صديق عزيز، وكاتب عظيم".

ثم ها هو يزور والدي بمستشفى الكاتب وقت إجراء عملية الشبكية له، وكان وقتها قد خلف النقراشي في رئاسة الوزراء، فيجلس إليه طويلاً وقد دمعت عيناه إذ يرى أبي في فراشه معصوب العينين، ويحاول جاهداً أن يسرّي عنه وأن يضاحكه.

وتمرّ السنين، فإذا بالقائمين بانقلاب يوليو ١٩٥٢ يأمرون بالقبض عليه وتقديمه إلى محكمة الثورة بتهمة الخيانة العظمى، وإذا هو وقد صدر الحكم بإعدامه، ثم خُفّف الحكم فيما بعد إلى السجن المؤبد. وقد كان الغرض من هذا كله إرضاء جماعة الإخوان المسلمين التي ظلت حكومة الثورة قرابة عامين تحاول التودّد إلى أعضائها وكسْب تأييدهم. فلما فشلت وقام أحد أعضائها بمحاولة اغتيال عبد الناصر بالإسكندرية عام ١٩٥٤، قلب لها عبد الناصر ظهرالمجنّ، وتذكّر أن إبراهيم عبد الهادي الملقَى الآن في سجنه كان من أوائل من تنبّه إلى خطر تلك الجماعة على البلاد، وأنه أثناء تولّيه رئاسة الوزارة استخدم تجاه أفرادها قبضة من حديد، فأصدر عبد الناصر من فوره قراراً بالإفراج عنه بدعوى تدهور صحته.

ثم تمرّ سنوات أخرى فإذا بابنه السفير حسن عبد الهادي يتزوج من ابنة خال زوجتي، فتربطني بإبراهيم عبد الهادي صلة عائلية، وتكثر لقاءاتي به في دوائر الأسرة، وتتاح لي فرص سؤاله عن الماضي ورجاله وأحداثه.

"يقولون أن حكم السعديين كان يتميّز بالشدّة والقسوة.. أية شدّة؟ أو أية قسوة؟ يكفيهم فخراً أنه ما من أحد مسّ نزاهة حكمهم بكلمة.. كان حكماً مستقيماً، لصالح أبناء البلد لا لصالح أنصار السعديين أو لملء جيوبهم. ثم ما هي الشدّة؟ هل تجاوزنا القانون مع أيّ

إنسان؟ كنا نحكم عن طريق مجلس نيابي، ولم تنعم مصر بمثل ما نَعمت به أثناء حكم السعديين من حرية التعبير والمناقشة. كان النقراشي مشهوراً بالاستقامة والنزاهة، وإن كانت نزاهته مشوبة بالخشونة، واستقامته يعيبها التصلّب.. لم يكن يقبل وساطة أحد، أو شفاعة أحد. فاشتهر ظلماً بالشدّة. وكان الوفد كما تعلم بارعاً في إثارة الشائعات، ينشرها في الحواري والأزقّة والشوارع والمقاهي بواسطة صبيانه والمنتفعين من ورائه، وتنظيمات كتنظيمات القمصان الزرقاء. وكان هذا هو دأبهم دائماً، إلى جانب حشدهم لصبية يقذفون خصومهم بالطّوب، ويفرّقون اجتماعاتهم بالهراوات.. أصبح مثل هذا المسلك علّة العلل في الحياة السياسية المصرية، وقوام نشاط حزب الوفد الذي عُرف أيام سعد زغلول بالعمل الوطني والجهاد من أجل مصر.

"وهم أحياناً يحمّلون السعديين تبعة أخطاء فاروق. غير أني أسألهم: من ذا الذي تصدّى للملك بمثل شجاعة النقراشي؟ أيّ رئيس للوزراء غير النقراشي كان يمكنه أن ينهى الملك عن الغناء في المقاهي؟ لم تسمع بهذه القصة؟ توجّه فاروق ذات ليلة إلى ملهى جديد بالإسكندرية يطلّ على البحر، وشارك المغنيين غناءهم فيه. وإذ علم النقراشي بذلك توجّه غاضباً إلى القصر وقال للملك: مولاي، الملوك لا تغنّي في المقاهي! وكان فاروق يستاء منه جداً لمواجهته بمثل هذا الكلام في العديد من المناسبات. غير أنه كان يحبّ النقراشي ويرتاح إليه لعلمه أنه رجل شريف المسلك، حريص على قول الحق، ولا يدسّ له من ورائه..

"ثم انظر ما فعلتُه أنا.. أرسل الملك إليّ بأوراق طلاقه من فريدة حتى أوافق على خطوته، فألقيتُها في درج مكتبي شهوراً طويلة دون أن أردّ، ودون أن أمدّ يداً إليها. وعندما توجّهت لزيارته في مستشفى المواساة بالإسكندرية حيث أُجريتْ له عمليةٌ جراحية، أشار ضمن حديثه معي إلى أن فريدة لم تزره وهو بالمستشفى مرة واحدة. قلت له: "والله لو علمتْ أن زيارتها سترضيك لما رأت واجباً أحبّ إليها من واجب زيارتك". وشعر الملك بأني قد انتهزت الفرصة لمحاولة الإصلاح بينهما، فقال: "لا. لا. لا. إعمل معروف خلّص إجراءات الطلاق". غير أني لم أفعل، ولا أخرجتُ الأوراق من مكتبي، حتى اضطر إلى الاستعانة بوكيل المحكمة الشرعية حتى يُنهي إجراءات الطلاق شأن سائر الخلق.. سألني

رأيي في الموضوع، فقلت له إن طلاقه من الملكة لن يكون في مصلحته، خاصة في ضوء تعاطف كافة المصريات معها، وهن يشكّلن نصف تعداد شعب مصر. قال: ألا يمكنني أن أفعل ما هو من حق كافة الرجال أن يفعلوه؟ أجبته: أَلِكُلِّ الناس مثل مالك من حقوق؟ بالطبع لا. وهو ما يفرض عليك من الواجبات ما لا يفرض عليهم، ويحرمك من حقوق لا يحرمهم منها.

"وانظر إلى موضوع تجديد يخت "المحروسة" الذي تناولته محاكمتي في محكمة الثورة. لقد كنتُ أناالذي وقفت أثناء اجتماع اللجنة المالية في مجلس النواب أصرّ على تكبيل الموافقة على نفقات تجديده بشروط، وبشروط قاسية، وجعلت رئيس الوزراء مسئولاً مسئولية شخصية عن صرف أي مبلغ في سبيل هذا التجديد. استَوْجَبْتُ استشارة خبراء أجانب فيما إذا كانت "المحروسة" حقاً في حاجة إلى إصلاح، وفيما إذا كان من الأفضل تجديدها أم الاستعانة بالمبلغ المطلوب في شراء قطعة بحرية جديدة.. فلما خرجتُ من الحكم إذا بخلفي حسين سري باشا يوافق على صرف المبلغ المطلوب كله، دون اتباع شروط، ودون الاستعانة برأي الخبراء، ودون أن يُلقي بالاً إلى الرأي العام.. خيّبه الله من رجل! إنسانٌ لا شخصية له ولا كرامة ولا مبدأ.. أثمة رئيس وزراء مصري ضُرب بالشلّوت غيره؟ نعم. ضربه أحمد عبّود باشا بالشلوت حين كان موظفاً عنده واكتشف خللاً في تصرفاته.. وتمرّ الأيام فإذا هو يتولّى رئاسة الوزارة عدة مرات، ويصبح لا همّ له في كل مرة إلا ضمان فوز حزب الوفد في الانتخابات العامة.

"هل حدث في مجلس الشيوخ أو مجلس النواب أن قيدتْ حكومة السعديين حق أحدٍ في المعارضة، أو عاقبت أحداً على انتقادات وجّهها إليها؟ أبداً. ومع ذلك فإنه حين طلبتُ من البرلمان الموافقة على مدّ الأحكام العرفية بسبب استمرار جرائم الإخوان المسلمين، وقف فؤاد سراج الدين يهاجمني ويفتري عليّ، ويتّهمني بالظلم في تطبيق الأحكام العرفية لأني قبضت على فلان وفلان من الإخوان، ولأني أخّرت نشر مقالٍ للنحاس باشا لمدة أربع وعشرين ساعة، ولأني لم أعاقب مجلة "روز اليوسف" لنشرها كاريكاتيراً للنحاس في صورة ثور هائج، وهو في اعتقاده أمرٌ لا يليق!

"نعم قبضتُ على عدد من الإخوان المسلمين. فهل أمرتُ بالقبض على أحدهم لأني لا

أحبه؟ من أجل خصومة شخصية؟ لأن بيني وبينه حدّ أطيان أنازعه عليه؟ لا. كنت آمر بالقبض على من قتل القاضي الخازندار، وعلى من قتل رئيس الوزراء، وعلى من فجّر القنابل والمفرقعات فمزّقت أجساد المارة ورجال الشرطة الأبرياء والتصقت أشلاؤهم بالحيطان.. نعم أعترف بهذا.. أمّال شغلتي إيه؟ أنا رئيس حكومة. وما جدوى الحكومة إن هي لم تراع العدالة وتوفّر الأمن للناس؟ يكون لك حق مؤاخذتي ومحاكمتي إن كنتُ في هذا قد جاوزتُ صلاحياتي، أو كنتُ قَدمت المتهمين إلى محكمة عرفية. غير أني كنتُ أقدمهم إلى محاكم عادية تُصدر عليهم من الأحكام ما تراه هي لا ما أراه.. وكنت أعيش أياماً عصيبة مُهدّداً بالاغتيال في أي ساعة. فلماذا تحمّلت كل هذا؟ من أجل مصر. من أجل حماية كل مصري. من أجل ضمان مباشرة الناس لأعمالهم وتنقّلهم الحرّ دون خوف.

"أخّرتُ نشر مقال النحاس باشا لمدة أربع وعشرين ساعة؟ أهذا كلام يُعقل؟ راجل قاعد فاضي يكتب المقالات، وأنا مشغول ليل نهار بمكافحة الجريمة وفرض النظام والأمن، وأطمع مع ذلك في بضع ساعات أكتب خلالها بيدي ردًّا على اتهامات النحاس لي في مقاله.. لم أكلّف أحداً من الصحافيين أو الكُتّاب بالردّ على الباشا، وإنما تولّيتُ ذلك بنفسي، وطلبتُ تأجيل نشر مقال النحاس يوماً حتى لا يسبقني بإشاعة الأكاذيب فيبلبل أذهان الناس. وكان أن نُشرتْ مقالتُه إلى اليمين من صفحة الجريدة، ونشرت مقالتي إلى اليسار فهل في هذا الذي فعلتُه انتهاك لحرية التعبير؟ هل أضفتُ فقرة من عندي إلى مقاله، أو حذفتُ منه فقرة من فقراته "البليغة الرائعة"؟ لم أفعل شيئاً من ذلك.

"ثم ثور إيه اللي انت جاي تقول عليه؟! المجلات الهزلية مثل روز اليوسف تفضّل نشر الرسوم الكاريكاتورية على نشر الصور الفوتوغرافية.. وقد حدث في أوائل هذا القرن أن كانت جريدة "الجهاد" تنشر إعلاناً عن مشروب يدعى "بوڤريل" يقال إنه يبعث القوة والحيوية في جسد من يشربه، وفي الإعلان صورة ثور هائج صادف أن كانت عيناه شبيهتين بعيني النحاس باشا، وتحت الصورة عبارة "هذه هي آثار تناول البوڤريل".. ثم كان أن اطّلع محرر بروز اليوسف على هذا الإعلان القديم فأعاد نشره على أنه كاريكاتير للنحاس باشا.. فما ذنبي أنا في كل هذا؟

"نعم أمرتُ أثناء رئاستي للوزارة بالقبض على ستمائة من الإخوان. قبضتُ عليهم بناء

على قوائم تنظيمهم السرّي والأسماء الواردة فيها، لا بناء على إشاعات أو على ظنون وشكوك. ثم قدّمتهم إلى المحاكمة، فمنهم من حُكم بإدانته، ومنهم من حُكم ببراءته وأُفرج عنه لأن التحقيقات لم تُثبِت ضدّه تهمة.. أما السفّاح جمال عبد الناصر، فلأن رصاصة الذي حاول اغتياله بالإسكندرية أصابت سترته بمزق، فقد أمر بشنق ستة من الإخوان وحبس ثلاثين ألفاً لمدة خمسة وعشرين سنة، قُتل منهم الكثيرون داخل السجن، ثم ادّعت السلطات أنهم هربوا، أو أنه قد أُفرج عنهم، أو أنهم ماتوا في السجن نتيجة المرض.. تأمّل هذا القبح الذي لا يتناسب لا مع رجولة ، ولا مع روح عسكرية، ولا مع مشاعر وطنية، ولا مع شرف النفس.. نساء المعتقلين من الإخوان أُلقي بهن في السجن الحربي، وسيق عليهم العساكر ليفعلوا بهن ما شاءوا، وحين رفض أحدهم الإقدام على ارتكاب هذه الشناعة خَصوه. هي قضية معروفة في المحاكم، وحُكم فيها مؤخراً بدفع تعويض لهذا الجندي... ثم يتكلمون بعد هذا عن شدّة حكم السعديين!!.

"أرادت الثورة المباركة أن تحظى بتصفيق الناس لها، واتخذت من الإخوان في بداية عهدها بطانة، فسمحت لهم بأن يكتبوا ما شاءوا، وأن يكيلوا لي من الاتهامات والأكاذيب ما شاءوا، وأباحت لهم رأسي وحياتي. وكان أن قُدّمت للمحاكمة أمام محكمة ثورة بغير قانون، بغير إجراءات، بغير حيثيات، واتّهموني بالخيانة.. فُجُورٌ في ممارسة الباطل، وتمريغ لأنف مصر في التراب، ولأنف العدالة في الوحل! يتهمونني بالخيانة؟! الأرض والسماء تكذّبانهم. أفي حاجة أنا إلى شهادة بالوطنية من أمثالهم؟ إن أردتَ شهادة فثمة شهادة سعد زغلول بوطنيتي، وثمة قصيدة أحمد شوقي في جهادي من أجل مصر.. تريد محاكمتي بتهمة الخيانة؟ حاكمني إذن محاكمة علنية حتى يعرف الجمهور الحقيقة. غير أنكم تتهمونني علناً، وتحاكمونني سراً، وتصدرون الحكم بإعدامي وحين تتبين لكم حقيقة الإخوان ترسلون إليّ في السجن من يخبرني أنكم على استعداد للإفراج عني إن أنا قدّمت التماساً بالإفراج لتدهور صحتي!

"يقولون اتّسم حكم السعديين بالشدّة؟ شدّة إيه؟ هوّه لما الناس يتقتلوا في الشوارع أنا أقعد طرطور؟ ما قاومش الجريمة؟ إيه اللي حصل منّي أو من النقراشي؟ الحقيقة وكلام في سرّك إن النقراشي ربما يكون قد أخطأ برفضه شراء ذمم الصحافيين بالمال، فانقلبوا

علينا.. رفض توزيع الهبات على أولاد الحواري ثم يوزّعهم على القهاوي البلدي للدعاية لنا وبثّ الشائعات المغرضة عن خصومنا.. غير أني قائل لك إن مصر نعمت في عهدنا بسكينة وأمن واستقامة في العمل ونزاهة في الحكم لم تعرفها من قبل أو من بعد.. سمعتَ في عهدنا عن تلاعب في البورصة؟ عن تدخّل في عطاء من العطاءات؟ أبداً! فماذا جنينا إذن؟ اعتقلنا الولد أنَس الذي زرع قنبلة في محكمة الاستئناف كي ينسفها فتختفي مستندات قضية سيارة الچيب التي اتُهم فيها عدد من الإخوان المسلمين؟ ينسفون محكمة بمن فيها من قضاة ومستشارين ومتقاضين من أجل إخفاء مستند في قضية. ماذا كان عليّ أن أفعله بعد القبض عليهم متلبسّين؟ أسيبهم؟ أصرف لهم مكافأة؟ يا بلد فيها حكومة يا مفيهاش، ولا يستقيم حكمٌ مع وجود إرهاب.

"غير أن مشيئة الله هي الغالبة. والتاريخ يسطّر سطور الحق. والحقيقة تسخر من هؤلاء ولكنهم لا يستحون. هم يراهنون على ضعف ذاكرة الناس، ويردّدون وصف شوقي لبلدنا" كلُّ شيء فيه يُنسى بعد حين". لكن شعبنا لا ينسى. قد يُكره على النسيان. لكنه لا ينسى.. لماذا يتذكّرون اليوم لا قبله إرهاب الإخوان وقتلهم للخازندار وأحمد ماهر والنقراشي؟ لماذا يكثرون اليوم من الحديث عن فظائع الإرهاب وضرورة القضاء عليه، ولم يتحدثوا بذلك بالأمس، ولا تذكّروا أنني والنقراشي حاولْنا جاهدين قمع الإرهاب وضبط القتلة لتقديمهم إلى المحاكمة؟

"نعم هناك تقصير من جانبي إذ لا أكتب الآن عما حدث، ولا أدافع عن نفسي.. غير أني لا أبالي بهم، وما أسكت إلا احتقاراً لأكاذيبهم وتصغيراً لشأنهم، ولثقتي في أن شعبنا سيدرك الحقيقة في المستقبل القريب ويكشف أكاذيبهم. ولولا ذلك ما سَكَتّ.. ما سَكَتّ".

توفيق الحكيم

كان من أكثر معارف أبي اتصالاً به، وأطيبهم معشراً، وأحلاهم حديثاً. لا يكاد يكفّ عن المزاح والضحك، أو عن سرد الطرائف من سجلّ حياته الخاصة والعامة.. ومع ذلك فما كان أبي ليعتبره صديقاً. فهما من جيلين مختلفين. لا لمجرد أن أبي كان يكبره بثلاثة عشر عاماً، وإنما لأن مزاج الحكيم كان يجعل منه شاباً على الدوام، أو بالأحرى صبياً وإن وَخَطَ الشيبُ شعره، أما مزاج أبي فقد جعله شيخاً قبل الأوان، أهْرمه قبل أن يغيض رونق الشباب في وجهه. لذلك لم أشعر أبداً أن معاملة والدي للحكيم تختلف كثيراً عن معاملته لأبنائه، ولا كنت أعجب لو أني سمعته ينهره ويزجره، أو رأيت الحكيم يهابه ويوقّره.

ليس هذا فحسب. فقد كان الفن يسري في عروق الحكيم مسرى الدم، في حين كانت الحاسة الفنية عند والدي ضعيفة واهية، لا تحرّكها غير المواويل القديمة، والأغاني المصرية الحزينة. وكان قليل المبالاة بالمسرحيات والروايات التي هي المجال المفضّل لدى الحكيم، فهو غير مؤهّل لتذوّقها والحكم عليها.. ومع ذلك فقد كانت أحاديثهما التي دار الكثير منها أمامي غنيّة شائقة، وكذا مساجلاتهما في الصحف والمجلات، كذلك السّجال الذي دار بينهما عام ١٩٤٤ على صفحات مجلتَيْ "الثقافة" و"الرسالة" بصدد دعوة والدي أدباء العرب إلى الالتزام في أدبهم بالقضايا الاجتماعية والسياسية، ودفاع الحكيم عن حرية الفنان في التعبير عن ذاته وانشغالاتها، وإن لم تكن من بينها تلك القضايا.

وقد كان موقف الحكيم إبّان هذه المساجلة، واختياره لسلسلة مقالاته في مجلة "الرسالة" عنواناً هو: "من البرج العاجي"، وعزوفه ـ عكس طه حسين والعقاد ـ عن الانضمام إلى أيّ حزب سياسي أو مناصرة هذا الزعيم أو ذاك، هي أسباب شيوع اتهام

الحكيم بأنه لا يعرف الانتماء السياسي والاجتماعي. وهو اتهام غير صحيح. فكثيراً ما انعكس في مسرحياته ورواياته وكتبه الأخرى ما يتمتع به من حاسة اجتماعية وسياسية قوية، قد تكون أقوى حتى من تلك التي توفَّرت للعقاد وطه حسين.. ويكفيني أن أذكر أنه حين طلع عام ١٩٣٨ بكتابه "شجرة الحكم" ــ وكان وقتها مديراً لإدارة التحقيقات في وزارة المعارف ــ استُدعي للتحقيق معه بتهمة انتقاد نظام الحكم السياسي في مصر، وحكم عليه بخصم نصف مرتبه عن شهر واحد.. غير أن الجمهور عندنا من السخف بحيث يحكم على كاتب سلسلة بعنوان "من البرج العاجي" بأنه يعيش في برج عاجي بمعزل عما يدور في المجتمع حوله، وعلى من كان اسمه العقاد بأن كتبه معقَّدة، وعلى من كانت قامته من الأدباء مفرطة الطول بأنه كاتب عملاق.

كان أشهر الكتّاب المصريين في فترة صباي هم طه حسين، وعباس العقاد، وأحمد أمين، ومحمد حسين هيكل، وتوفيق الحكيم. غير أن كتابات الأخير كانت أحب كتابات هؤلاء الخمسة إلى قلوب الصبية في مثل سني. فما من شيء كان يعادل عندنا روايتيه "عودة الروح" و"يوميات نائب في الأرياف".. وقد حاولت مؤخراً إعادة قراءة "عودة الروح"، فإذا بي أنحّيها جانباً في ملل وإحباط وأنا أسائل نفسي متعجباً عما عساه يكون قد أثار إعجابي بها وقت صباي. وهو تماماً كإحساسي حين حاولت أن أعيد قراءة ثلاثية نجيب محفوظ، و"قنديل أم هاشم" ليحيى حقي، و"مليم الأكبر" لعادل كامل، و"سلوى في مهب الريح" لمحمود تيمور.. أما كتاب الحكيم الذي كانت قراءتي الأولى له وأنا في السابعة من العمر، فتمثيليته "محمد"، لا أبالغ حين أقول إني أعدت قراءته بعد ذلك أكثر من ثلاثين مرة، حتى بتّ أحفظه عن ظهر قلب، وحتى بات جزءاً لا يتجزأ من تكويني الديني والعقلي واللغوي. ولا يزال أحبّ المجلدات إليّ من مجلدات مكتبتي هو هذا الكتاب في طبعته الأولى الفاخرة التي صدرت عام ١٩٣٦، بورقها اللبني المصقول اللامع وغلافها الكرتوني البديع، وصفحته الأولى التي كتب عليها الحكيم إهداءه إلى أبي.. كما أذكر أني أثناء مقابلة لي معه في مطلع عام ١٩٥٧ بعد عودتي من إقامة طويلة في إنجلترا، وخلال جلسة لنا في الشمس في حديقة المجلس الأعلى للثقافة، أخبرته أن كافة من قابلتهم من المستعربين الإنجليز يعتبرون تمثيليته "محمد" أروع كتبه على الإطلاق. غير أن الحكيم لم يسرّه كثيراً هذا القول

وهذا التفضيل، وهتف معترضاً: "غير أن معظم الحوار في "محمد" هو من كتب التراث، ولم يكن لي فيه دخل كبير، ولا كنت حُرًا في أن أضيف إليه الكثير من عندي".

كان أبي يأذن لي ـ ولم شاء من إخوتي ونحن بعدُ صبية ـ بحضور اجتماعات يوم الخميس من كل أسبوع لأعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر. وكان الحكيم مواظباً على حضور تلك الاجتماعات، ويكاد يكون المسئول الأول عن إشاعة روح الفكاهة والمرح فيها. أذكر مرة طولب الحاضرون فيها بذكر ما يتخيّلون أنها ستكون آخر أقوالهم وهم على فراش الموت، فجاء ردّ الحكيم: "سأصرخ في ورثتي: آه يا ولاد الكلب ياللي حتورثوا فلوسي اللي تعبت وشقيت في جمعها! تورثوها كده بالساهل يا ولاد الكلب؟!". وقد كانت مثل هذه الأقوال منه عن نفسه هي المسئولة أيضاً إلى حدّ كبير عن شيوع حديث الناس عن بخله.. غير أنه كان بخيلاً فعلاً، وإن أفلح ظرفه وفكاهته في إخفاء المعالم القبيحة لهذا البخل.. وقد حدث مرة أن أقبلتُ عليه في مجلسه مع أصحابه بمقهى "الشانزليزيه" على البحر في الإسكندرية، فما جلستُ حتى طلب لي من الجارسون فنجان قهوة "على حسابه". وهو ما جعل الحاضرين يحملقون فيّ وقد فغروا أفواههم مصطنعين الدهشة، ويقولون: "فنجان قهوة لك على حساب الحكيم! إنه الفتح المبين يا أستاذ حسين!". وظل هو يقهقه لقهقهاتهم وتعليقاتهم، حتى لمح في طريق الكورنيش حافلة ركاب تتوقّف بحذاء نافذة المقهى التي يجلس عندها، وإذا بالسائق والكمساري ينزلان منها يمدّان يديهما إليه لمصافحة الكاتب الكبير وتحيته.

لم يكن يمتلك سيارة. فكان غالباً ما يعتمد على أبي في توصيله بسيارته إلى منزله بعد اجتماعات اللجنة، أجلس إلى جانب السائق، ويجلس هو في الخلف إلى يسار أبي. وإذ طلب أبي من السائق يوماً أثناء رحلة العودة أن يتوقف عن بقالة العجيل بوسط البلد، ونزل من السيارة لشراء بعض الحاجيات، التفتُ إلى الحكيم وقد بقينا وحدنا بالسيارة أقول له:

ــ عندي سؤال يلحّ عليّ منذ مدّة.

ــ تفضل.

ــ هل يسرّك أن يتملّقك المعجبون بك، وأن يفرطوا أمامك في الثناء عليك ليل نهار؟

قال: لا.

قلت: فلماذا يطالب الله عباده بأن يكثروا من حمده وشكره والثناء عليه؟

ضحك الحكيم ثم قال: مطالبته لعباده بالإكثار من حمده ليس المقصود بها إرضاؤه، بل المقصود صالح العباد أنفسهم إذ يذكرون خالقهم وصفاته وأفضاله عليهم، فتتطهّر بهذا الذكر قلوبهم.. أكثيراً ما يخطر بذهنك مثل هذه الأسئلة؟ كم سنّك؟

ــ تسعة.

ــ ما شاء الله، ما شاء الله! فما عساها أن تكون تساؤلاتك حين تصل إلى سنّي أنا؟!

وتمر الأيام والأعوام، فإذا بي وقد عُيّنت عام ١٩٥٩ ملحقاً بالسفارة المصرية في كندا تحت رئاسة ابن خالة توفيق الحكيم، السفير عبد الحميد سعود. وهو رجل طيب القلب، لطيف المعشر، عظيم الجهل. اصطحبني في فبراير ١٩٦٠ في رحلة طويلة إلى مدينة ساكفيل بولاية نيو برونزويك، ومدينتَيْ وولفڤيل وهاليفاكس بولاية نوڤاسكوشا، ألقَى خلالها أربع محاضرات عن القضية الفلسطينية في أربع جامعات كندية.. وفي عربة القطار المتجه إلى وولفڤيل، أخرج السفير من جيب سترته رواية جنسية من تلك الروايات التي تباع في الصيدليات ومحلات السجائر بعشرين سنتاً، والتي تزيّن غلافها الورقي عادة صورة امرأة جالسة على السرير في ملابسها الداخلية تلبس ــ أو تخلع ــ جوربها، بينما يقف عشيقها متثائباً في خلفية الصورة.. وإذ حذوت حذو السفير وأخرجت من حافظة أوراقي كتاباً، التفت إليّ وسألني عما أقرأ.

ــ "الفتاة الزنجية في بحثها عن الله" لبرنارد شو.

ــ يا ولد إنت موش حا تبطّل الفلسفة بتاعتك دي؟ أنا قريت شو.. قريت شو من قبل ما انت تتولد. راجل كويس وروحه خفيفة.. فيلسوف.. إنما بعد ما أكون بذلت مجهود ذهني زيّ مجهود محاضرة امبارح، أفضّل إن أنا أقرا رواية خفيفة ما تحتاجشي لتفكير.. توفيق الحكيم اتأثر كتير ببرنارد شو.

فهو كلما أراد أن يتنازل ويحدّثني في الأدب، أو الفلسفة، أو الفن ــ وكلها في ذهنه شيء واحد ــ حدّثني عن ابن خالته توفيق الحكيم، وذكرياته عنه، وعن الشخصيات الحقيقية من أفراد عائلتهما مما استخدمه الحكيم في تصوير أبطال روايته "عودة الروح".

ــ أذكر مرة أنه عندما ماتت جدّتنا كان توفيق الحكيم متغيباً في الإسكندرية، ولم تشأ

والدته ــ خالتي ــ أن تزعجه، فلم تبرق إليه بالخبر. غير أن توفيق قرأ نعيها في الجرائد، فأسرع من فوره إلى القاهرة، ودخل علينا المنزل غاضباً أشدّ الغضب إذ لم نستدعه ليكون بجانب جدته خلال الساعات الأخيرة. وعندما ذكرت له والدته أنها لم تشأ إزعاجه، صاح بها: "ليس في الأمر إزعاج على الإطلاق. وإنما أردت أن أكون بجانبها كي أستخدم وصف النزع الأخير ونحيب النساء والجنازة في إحدى رواياتي إن استدعى الأمر"! وهنا ثارت ثائرة أختي لما اعتبرته بروداً عاطفياً عند توفيق، ولعنت له أباه في وجهه، وطردته من البيت...."!

***

أما لقاءاتي المثمرة حقاً مع توفيق الحكيم فكانت حين يصطحبني والدي معه للجلوس إليه في قهوة "رويال" على البحر في سيدي بشر أثناء أشهر الصيف، وذلك قبل أن ينقل الحكيم مجلسه إلى مقهى "بترو" ثم مقهى "الشانزليزيه" اللذين انضم إليه فيهما نجيب محفوظ.. وكم كنت اتحسّر إذ أستمع إلى أحاديثه الطليّة عن ذاته وخبرته وقراءاته وذكرياته عمن قابلهم من المشاهير أن لم يكن في تلك المجالس من يلازمه ملازمة بوزويل لدكتور صامويل چونسون، مسجّلاً في يومياته ما علق بذهنه من الأحاديث، ثم ينشرها في كتاب. وسأذكر الآن جزءاً من حديث له معي يوم ٨ أغسطس ١٩٥٣ في مقهى "رويال" وكان والدي يومها مريضاً فلم يتمكن من الخروج.

بدأت بالاعتراف له بأن قراءاتي مُذْ رسخت قدماي في اللغات الأجنبية باتت مقتصرة على الآداب الأوروبية والأمريكية، وسألته عما إذا كان تحوّلي عن النظر في كتب التراث العربي قد تترتّب عليه خسارة كبيرة لي.. أجاب الحكيم ضاحكاً:

ــ سأجيبك على ألا تذكر شيئاً من إجابتي لوالدك حتى لا يغضب مني.. فلتمض قُدُماً فيما أنت بصدده. فإذا كان في نيّتك احتراف الأدب، فلا بأس من أن تلقي بين الحين والحين بنظرة في "كتاب الأغاني" أو "العقد الفريد" حتى تشدّ من أزر لغتك.. ومع ذلك، فما أعتقد أن متانة اللغة لا تزال لها تلك الدرجة من الأهمية التي كان الناس في الماضي يخلعونها عليها بعد أن صار الأدب تقريرياً لا إنشائياً.

ثم استطرد يقول:

ـ تأمّل حال أدبنا قبل اطلاع مثقفينا على ثمار الآداب الغربية.. كان مثاله هو أن يرسل الشيخ فلان إلى حفني ناصف قفصاً من العنب ومعه رسالة، فيردّ عليه ناصف شاكراً برسالة يصف فيها العنب بالدرّ والدرّ بالعنب، ويقول: "وصلني أدام الله فضلك، وأطال عمرك، قفص من العنب.. " إلى آخره. نعم.. كانوا يقولون إن هذا هو الأدب. وقد ثاروا عندما طلع المويلحي بروايته "حديث عيسى بن هشام"، وقالوا إنه عابث ماجن. بل إنهم حتى اليوم يهتفون: "توفيق الحكيم؟ محمود تيمور؟ أين هؤلاء من الأدب الحقيقي، أدب المنفلوطي وصادق الرافعي؟". وقد جاء تجديد المويلحي بفضل السنوات التي قضاها بفرنسا. فمع أن لغته وأسلوبه كانا كلغة مقامات الحريري وأسلوبها، ومع أن النقلة التي حققها كانت نقلة متواضعة، فقد كانت له رِجل في الداخل ورجل في الخارج، وكان أول من كتب عن الأوساط الشعبية المصرية وعن العمد والفلاحين.

كان حملةَ لواء النهضة الأدبية الحديثة في مصر أناسٌ عززوا ثقافتهم العربية التي نشأوا عليها بثقافة غربية ــ قويت أم ضعفت ــ تلقاها بعضهم في بلادها، كلطفي السيد وهيكل وطه حسين وأنا، واغترف بعضهم منها في بلادهم بعد أن جدّوا ونصبوا في تعليم أنفسهم لغة أوروبية، كالعقاد ووالدك، مؤمنين بأنه لن تكون لهم قيمة حقيقية في عالم الأدب ما لم يتبنّوا أساليب الغرب في التعبير، ومناهجه في التفكير.. بل إن أبعدهم عن الروح الغربية، كالمنفلوطي، رأى داعياً إلى الاستعانة بمن يترجم له مؤلفات غربية، مثل "سيرانو دو برچراك"، و"بول وڤيرچينيا"، و"مجدولين"، ثم يعيد هو صياغة الترجمة الحرفية أو شبه الحرفية في أسلوب عربي رصين، ولا غضاضة في تطعيمها هنا وهناك بأبيات شعر جاهلية أو إسلامية، وتعابير وأمثال عربية محضة، ثم ينسب العمل الناتج إلى نفسه إو إلى مؤلفه الغربي حسب الأحوال! أو انظر مثلاً إلى شاعرين من فحول شعراء العربية، هما مطران وحافظ إبراهيم، تجدهما لايستصغران من نفسيهما أن يتحالفا ويتعاونا من أجل ترجمة كتاب صغير ضحل في "الاقتصاد السياسي" لكاتب أوروبي.. كل هذا والأعور ــ كما يقولون ــ هو بين العميان مبصر: إن قرأ الفتى كتابين فهو مثقف، وإن تثقف فهو أديب، وإن كتب أدباً فهو عبقري من أنصاف الآلهة.. إن نظم أبياتاً فهو شاعر، وإن صاغ

"مجدولين" صياغة عربية جزلة فهو فنان خلّاق، وإن ترجم كتابين أو ثلاثة لأرسطو ـ ولو عن الفرنسية! ـ فهو فيلسوف الجيل!

ومع ذلك فقد أدّى هؤلاء خدمة جليلة لشعبهم لا ينبغي التحقير من شأنها. فقد فتحوا الباب أمام المتعلمين منا للرجوع إلى الأصول. ومازال بيننا الكثيرون مما يدينون "لترجمة" حافظ إبراهيم العرجاء الشوهاء، أو "ترجمة" المنفلوطي المثيرة للضحك، باطلاعهم الأول على "بؤساء" هيجو و"سيرانو" روستان، وحثّهم على قراءة الأصليْن وغيرهما سواء في الفرنسية أو الإنجليزية.

أما المنشئون من أدباء هذه الفترة فذوو المكانة الأخطر، والأثر الأكبر.. كانوا أول من رفع قيمة المضمون فوق قيمة الشكل، وشأن الجوهر فوق شأن الإطار، مستخدمين سلاحهم الغربي الجديد المكتسب في الدراسة التحليلية المتمعّنة القاحصة لمشكلات مجتمعهم. فإذا الجمل الرشيقة الخاوية التي كاد أدبنا يصبح قاصراً عليها، قد امتلأ خواؤها، بل وازدادت رشاقة، على يد طه حسين، وإذا العقاد يعلنها ثورة في ميدان الشعر، وإذا هيكل يغدو مجدداً في كتابة التراجم، والمازني في النقد، وتيمور في القصة، وأحمد أمين في تأريخ العقلية الإسلامية. فإذا سألتني عن أهم واضعي أسس الأدب المصري بعد المويلحي، قلت: هم أحمد أمين صاحب أول محاولة شاملة لإدخال منهج النقد في التأريخ الإسلامي العربي الحديث، وطه حسين صاحب أجمل أسلوب في الأدب العربي منذ أبي حيان التوحيدي، ومؤلف أهم كتاب أدبي مصري على الإطلاق، وهو "الأيام"، وعباس العقاد المجدّد في ميدان الشعر العربي. أما عني فبوسعي أن أقول إنني وضعت الأسس لأنماط متعددة من الأدب. فقد كتبت الروايات الاجتماعية، والمسرحيات الاجتماعية والفلسفية، والقصص القصيرة، والمقالات، والرسائل، وجاء بعدي من تخصّص في كل فرع من هذه الفروع. أما الفرع الذي لا أظن أحداً بعدي سيجاريني فيه، فهو التمثيليات على النمط الإغريقي التي لا تلائم روح العصر، والتي كتبتها لأتقرّب بها إلى القارئ الغربي، حتى يقارن بينها وبين مثيلاتها في الآداب الأوروبية.

ومع أن كافة أفراد هذا الرعيل جهدوا وجدّوا ـ بل وناضلوا ـ في سبيل نصرة المضمون على الشكل، وانتزاع لواء الأدب من مدرسة المنفلوطي، فقد كانت كتاباتهم بحكم

نشأتهم وثقافتهم العربية عميقة الجذور، والتعليم الأزهري الذي تلقّاه بعضهم، سلسة اللغة في غير معاناة، قويّتها في غير تكلّف، حتى كان نثرهم من أجمل ما كتب في النثر العربي. ومع ذلك فقد كان لهجومهم على العناية المفرطة بالأسلوب وجزالة اللفظ، وإصرارهم المستمر على تفوّق شأن المضمون، أثر في الأدب الآن ـ خاصة في مصر ـ لولا ما تضمّنه من كارثة لاعتبرناه طريفاً.. وأعني بهذا الأثر إهمال أدباء اليوم من الشباب لا لجودة الأسلوب فحسب، وإنما أيضاً لأبسط قواعد النحو، بحيث أصبحنا لا نكاد نرى فارقاً بين لغتهم ولغة الصحف والعامة. غدا "الأديب" منهم لا يرى غضاضة في أن يدفعه بمسوداته إلى مصحح معمّم بالمطبعة، يرفع له ما نُصب خطأً، وينصب ما رُفع، وكأن مراعاة النحو أضحت مهمة لا ترقى عن مهمة جمع الحروف، لا تؤثر في قيمة الأديب أحاطته بالنحو أو جهله إياه، ناسين أو متناسين أن الأسلوب للمضمون هو بمثابة الإناء للماء، لا غنى عنه إذا أريد حفظه ونقله.

فإن كنت قد ذكرت أن كتابات أفراد ذلك الرعيل كانت بمثابة العصر الذهبي في الأدب المصري، فإنما عنيت بذلك أنهم وضعوا الأسس السليمة والدعائم القوية للأدب بفروعه المختلفة، كان خليقاً بخلفائهم أن يبنوا عليها ويسيروا على هديها، ولم أعن أنهم قدّموا آيات أدبية رائعة يمكن وضعها في مصاف المؤلفات العالمية ذات المكانة الرفيعة. فلو أننا ألقينا نظرة إلى الأمام، بعد خمسين سنة أو مائة، لنرى أيّ مؤلفاتٍ لهؤلاء ستظل ثابتة في وجه ريح الزمن، يُقبل الناس على قراءتها لذاتها لا باعتبارها مجرد وثائق تاريخية، لما أمكننا أن نُحصي غير حفنة جدّ ضئيلة. فإذا بالمنفلوطي والمويلحي وشوقي وحافظ والجارم ولطفي السيد والمازني وصادق الرافعي ومحمود تيمور والعشرات غيرهم قد طواهم النسيان، أو اقتصر ذكرهم على كتب تاريخ الأدب، وإذا بمصفاتنا وقد اتّسعت خروقها لم تحتفظ إلا بأيام طه حسين، وفجر الإسلام وضحاه وظهره لأحمد أمين، وتراجم هيكل الإسلامية، وبعض قصائد العقاد، وبعض مؤلفاتي ومؤلفات نجيب محفوظ وعبد الحليم عبدالله.

كان جلّ هؤلاء في رأيي علماء باحثين أكثر منهم فنانين موهوبين قد نتج أدبهم عن الدراسة المتعمقة والجدّ، لا عن عبقرية وإلهام". حتى شعر العقاد، هو في أغلب حالاته

عقليّ الإدراك والمضمون، لا أثر فيه لوجدان الشاعر كما فهمه الغربيون ونفهمه اليوم. ودليلي على ذلك قلة ما أنتجه هؤلاء في ميادين القصة والرواية والمسرحية والشعر، وضآلة شأن ما أنتجوه بالفعل فيها، وهي ميادين أكثر تطلّباً للنظرة الفنية والوجدان المرهف من ميادين التراجم والدراسات الإسلامية والاجتماعية والنقد.

أما عن اتهام أمثال عبد الرحمن الشرقاوي وعبد الرحمن الخميسي لكتاباتنا بأنها لاتتفق مع روح العصر ومشكلاته واحتياجاته، أو بضآلة مضمونها السياسي والاجتماعي، فاتهام ظالم.. لقد كان بودّنا، وبمقدورنا، أن نعبّر عن مشكلات مصر في صراحة وقوة ترضيان الشباب. غير أن السلطات المدنية والدينية قيّدت أقلامنا بألف قيد، وشلّت حريتنا، فإذا بأقصى ما يمكننا التنفيس فيه عن آرائنا الحرة إشارات ضمنية ملتوية.. ومع ذلك فقد كتب طه حسين "المعذبون في الأرض"، وكتبت "اللص والجياع".. غير أننا كنا نراه ضرورياً ـ مع هيمنة الرقابة الفظيعة ـ أن نكتب شيئاً من هذا القبيل مرة، ثم نسكت ثلاث مرات، حتى لا نلفت إلينا أنظار السلطة.. أوردت مرة في مسرحيتي عن شهرزاد وشهريار تلميحاً إلى فجور الملك فاروق وانهماكه في الملذات بعيداً عن شعبه، فإذا بكريم ثابت، المستشار الصحفي للملك، يتّصل بي موبخاً ومحذّراً، ويسألني ساخراً عما إذا كنت تقاضيت مالاً من موسكو!

إذا نَطَقْتُ فقاعُ السجن مُتَّكَأٌ وإن سكتُّ فإن النفسَ لَمْ تَطِبِ!

هو حال شبيه بحال الأدباء في كافة الدول في عهود الاستبداد.

وقد عبر أبوك نفسه عن هذه الفكرة صراحة في "ضحى الإسلام" إذ يقول في تحليله لكتاب "كليلة ودمنة" ما معناه "إن الحاجة الشديدة تبيّنت إلى هذا النوع من الأدب في عصور الاستبداد، يوم كان الملوك والحكام يضيّقون على الناس أنفاسهم، فلا يستطيع ناقد أن ينقد أعمالهم، ولا واعظ أن يومئ بالموعظة الحسنة إليهم، ففشا هذا الضرب من القول والقصص، يقصدون فيه إلى نصح الحكام بالعدل.. وإذا كان في التصريح تعريض الحياة للخطر، ففي التلميح نجاة من الضرر"!

عباس محمود العقّاد

لا أذكر أنه جاء يزور والدي في منزلنا مرة واحدة، أو أن والدي زاره في منزله. هذا بالرغم من أن كلاً منهما كان يكنّ احتراماً عميقاً لشخصية الآخر ولإنتاجه الفكري، وبالرغم من تجاور داريهما في ضاحية مصر الجديدة، وتعاطف الاثنين مع الحزب السعدي (أو على الأقل ــ كما في حالة والدي ــ مع قيادات الحزب، كالنقراشي وإبراهيم عبد الهادي والدكتور السنهوري).. غير أن العلاقة بينهما كانت دائماً طيبة ودّية. ولا أحسب أن العقاد كان على اتصال أوثق بكبار أدباء عصره، كطه حسين أو توفيق الحكيم أو حسين هيكل. فكأنما كانت صداقته الحميمة لإبراهيم عبد القادر المازني، وهي التي بدأت وهما في نحو سنّ العشرين، كافية تماماً لسدّ حاجة العقاد إلى الصداقة والصديق.

دأب على إهداء أبي كل كتاب جديد يصدر له، مسطّراً على صفحته الأولى عبارة "إلى العالم البحّاثة أحمد أمين". فلما أصدر والدي سيرته الذاتية (حياتي) عام ١٩٥٠، صار العقاد يضيف إلى إهدائه لكتبه التالية إليه كلمة "الأديب". ولا زلت أذكر إلى اليوم، في شيء من العجب والإشفاق، فرحة والدي بهذه الإضافة، وباعتراف العقاد به أديباً بعد أن كان لا يرى فيه غير عالم باحث. ولا بأس من أن أضيف هنا أن والدي كان شديد الحساسية لنقد كتاباته، مدحاً كان أو ذمًّا؛ يطرب أشدّ الطرب لأية إشارة بها، وقد لا يعرف النوم إن قرأ مقالاً ينال منها.

غير أن العقاد كان كثيراً ما يتصل هاتفياً به، إما لسؤال عما دار في جلسة لم يحضرها من جلسات المجمع اللغوي، أو للاطمئنان على صحته إن سمع بمرضه، أو لمباحثته بشأن اصل إحدى الكلمات أو واقعة في التاريخ الإسلامي.. وكان يصادف أحياناً أن أردّ على

مكالمته التيليفونية، فأحاول الدخول معه في دردشة حول كتاب له أقرأ فيه، أو أتممت قراءته:

ــ كم سنّك يا جحش؟

ــ عشرة.

ــ تقرأ "عبقرية عمر" وأنت في العاشرة؟ لا أظنك قد فهمتَه.

ــ بل فهمتُه. فاسألني فيه إن أحببت.

ــ ليس لديّ وقت لسؤالك فيه.. نادِ لي أباك!..

كنتُ مع اثنين من إخوتي نحرّر في صبانا مجلة أسميناها "رجال الغد"، نكتبها بأكملها بخط اليد، ثم نصدر منها عدة نسخ كربونية نتداولها في محيط الأسرة والأصدقاء.. ما أعجب له هو جرأتي بعد وأنا بعد في العاشرة أو الحادية عشرة على الاتّصال تيليفونياً بكبار الأدباء من أصدقاء والدي ليوافوا مجلتنا الصبيانية بكتاباتهم.. ولا أزال أذكر اتصالي بالعقاد ومحمود تيمور كي يكتبا لنا تحت عنوان "أجمل أيام حياتي".. فأما تيمور فقد كتب مقالاً بالغ الطول أرسله إلينا بالبريد، ثم عاد بعد سنوات فنشره في أحد كتبه.. كذلك استجاب العقاد لمطلبنا، غير أنه أصرّ على حضورنا إليه لاستلامه.. وكان هذا هو لقائي الأول به.. وأجدني الآن أسائل نفسي عن مدى احتمال أن يستجيب كبار الكُتّاب اليوم لمثل هذا المطلب من صبية في نحو العاشرة يصدرون مجلة مكتوبة بخط اليد!

لم يمتلك في حياته سيارة قط، ولا اقتنى والدي واحدة حتى بلغ الستين وإنما كانا يستخدمان في تنقّلاتهما المترو والترام حين كانت وسائل المواصلات العامة صالحة لاستخدام الآدميين.. وكنت كثيراً ما أراه في المترو في روحاته وغدواته، وكذا في مكتبة الأنجلو المصرية التي كانت تتولى نشر كتبه. فإن دخل المكتبة بقامته العملاقة المهيبة وطربوشه وكوفيته الطويلة الشهيرة، سارع موظفوها إلى استقباله بحفاوة بالغة، فيبادر بسؤال أحدهم بصوته الضخم: "فين سيدك الحمار؟" فيهرع صاحب المكتبة إليه منحنياً على يده ليقبّلها، ثم يأتيه بكرسيّ يجلس عليه، وبكوب من القرفة يحتسيه، وبالكتب الحديثة مما ورد إلى المكتبة حتى يتصفّحها وينتقي منها ما يحب.. وقد يهمّ شبابنا اليوم أن يعرف أنه ما من إعلان كان ينشر في الصحف أن كتاباً جديداً للعقاد سيصدر في اليوم التالي، حتى

كان طابور قرائه يصطف أمام مكتبة الأنجلو المصرية قبل أن تفتح أبوابها بنصف ساعة أو ساعة يوم عرْض نسخ كتابه للبيع.

كانت سلسلة "العبقريات" للأسف، هي أكثر كتبه اجتذاباً للقرّاء ولي في صباي: (عبقرية محمد ـ عبقرية عمر ـ عبقرية الإمام ـ عبقرية الصدّيق ـ عبقرية خالد.. إلى آخره): وكذا روايته "سارة"، وكتابه "هتلر في الميزان" الذي أصدره عام ١٩٤٠ يهاجم النازية وصاحبها أعنف هجوم، وهو ما اضطرّه إلى الهرب إلى السودان حين أصبح جيش روميل قاب قوسين من الإسكندرية. كذلك قرأت له كتاب "الله" وأنا في الخامسة عشرة. أما إنتاجه الجيّد حقاً فقد تأخّر اطّلاعي عليه رغم سبق تاريخ صدوره لكل تلك الكتب: "سعد زغلول"، "ابن الرومي"، ثم فوق كل شيء، دواوين شعره. ففي رأيي اليوم أن شعره أعظم بكثير من نثره، وأنه يمثل أفضل إنتاجه، رغم ما واجهه من نقد عنيف أثناء حياته، خاصة من مصطفى صادق الرافعي، وإسماعيل مظهر وغيره من شعراء أبولّو، ومحمد مندور صاحب القولة المشهورة إن شعر العقاد "لا شأن له بالشعر". ومع ذلك فإني أجدني أتعاطف بعض الشيء مع صلاح عبد الصبور إذ يذكر أن العقاد أساء إلى موهبته الشعرية الحقيقية بإقحام الفلسفة في قصائده.

بعد وفاة أحمد شوقي بعامين، أي في عام ١٩٣٤، ذهب الكثيرون إلى تلقيب العقاد بأمير الشعراء، كما أصبح بعد ثورة ١٩٥٢ رئيساً للجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب. وقد كان بكل تأكيد، ورغم التزامه في قصائده بقيدَيْ الوزن والقافية، مجدّداً في شعره، مؤمناً بضرورة هذا التجديد في المعاني وأسلوب السّرد بحيث تنساب المعاني في تسلسل منطقي من أول القصيدة إلى آخرها، فلا يصبح كل بيت فيها قائماً بذاته كما هو الحال في معظم الشعر العربي من عصر الجاهلية إلى شوقي وحافظ. وقد أدّى ذلك به وبالمازني إلى التهجّم على أحمد شوقي والتهكّم عليه، قائلين إن التغيير العشوائي لترتيب الأبيات في قصائده لا يُحدث في فهمنا لها تغييراً ذا شأن.. وقد آلم شوقي كثيراً هذا النقد الذي سمّم أيامه الأخيرة.. غير أن القدر انتقم له، فأصبح شعر العقاد نفسه هدفاً لانتقادات أكثر حدّة وعنفاً من جانب المجدّدين من أنصار الشعر الحديث، خاصة من

الشيوعيين، وبات مثالاً عندهم لرجعية النظم بعد أن كان في يوم ما مثالاً للجرأة والثورية والتحرّر. بيد أن الحساسية المفرطة للنقد لدى شوقي لم تكن قائمة عند العقاد الذي ردّ على هجوم اليساريين بهجوم أعنف وأقسى، وسخر سخرية مريرة بشعرهم المنثور، وبمحاولاتهم إدخال المزيد من التجديد بعدما أدخله هو بعد شوقي وحافظ.

لم يكن اليساريون وحدهم هم من نصبوا أنفسهم لعداء العقاد. فقد اشترك في الهجوم عليه الوفديون الذين كان العقاد أحد أقطاب حزبهم، وذلك بعد أن اختلف عام ١٩٣٦ مع قيادة الحزب ثم انضم عام ١٩٣٧ إلى حزب السعديين الذي أسّسه المارقون من الوفد بزعامة أحمد ماهر والنقراشي.. ومع ذلك فإني لا أذكر ـ ولا أحسب ـ أن هذه الخلافات السياسية مع العقاد قد أثّرت في شعبيته لدى جمهور القراء، أو في حجم توزيع كتبه، أو الإقبال على حضور صالونه الأسبوعي في مسكنه. كذلك لم يؤثّر في احترام الناس له اضطراره أحياناً إلى مدح الملك فاروق في شعره بعد تحوّله إلى الحزب السعدي، وهو حزب لم يكن شعبياً في أي وقت من الأوقات، وكان يعتمد دائماً في الوصول إلى الحكم على مساندة القصر والتآلف مع حزب الأحرار الدستوريين وغيره من الأحزاب الصغيرة.. ومع هذا المديح لفاروق،

("بلْسَمٌ في يمين فاروقَ يُشفي كلَّ جرح به عصيّ الشفاء)،

فإن الملك لم يغفر له أبداً تجرّأه على أبيه حين وقف في البرلمان عقب تعطيل وزارة إسماعيل صدقي للدستور بإيعاز من فؤاد يصيح أن الشعب على استعداد لتحطيم أكبر رأس في البلد إن هو حاول العبث بالدستور.. وقد كان هذا هو السبب في أن فاروقاً لم يُنعم على العقاد بعد "تويته" بأيّ لقب.

ومع ذلك فقد مُنح عام ١٩٤٨ جائزة فؤاد الأول للأدب.. وهي جائزة قدرها ألف جنيه تبرّع بها فاروق، وتُمنح لمن ترى اللجنة الدائمة لجوائز الدولة أهليتهم لها. وقد قررت اللجنة وقتها منح الجائزة لأربعة: طه حسين، والعقاد، وأحمد أمين، ومحمد حسين هيكل. غير أن الملك عندما رُفعت إليه القائمة لإقرارها شطب بيده اسم طه حسين باعتباره وفدياً معادياً، ثم تردّد في إقرار بقية الأسماء بالنظر إلى أن هيكل من الأحرار الدستوريين، بينما

العقاد، وأحمد أمين في رأيه من السعديين، وأشار بأن يُختار رجل واحد من كل من الحزبين. لكن اللجنة أبت أن تستبعد العقاد أو أحمد أمين، وأرسلت إلى الملك من أفهمه أن الثاني ليس سعدياً، وأن الأمر على أيّ حال يتّصل بالأدب لا بالسياسة، فقبل الملك في النهاية، والظاهر أن الملك كان وقتها يهدف إلى أن تستبعد اللجنة اسم العقاد بعد أن وافقت على استبعاد طه حسين. غير أن الظاهر أيضاً أن رئيس الديوان الملكي وقتها (وهو إبراهيم عبد الهادي ثاني أقطاب الحزب السعدي) هو الذي شفع للعقاد وأفلح في إقناع فاروق باستبقائه. فكان أن رفع فاروق قيمة الجائزة إلى ثلاثة آلاف جنيه حتى يُمنح كل فائز ألفاً.

كانت زيارتي الثانية للعقاد في داره بعد أكثر من عامين من قيام ثورة يوليو، وهي الثورة التي رحّب العقاد بها، وكتب في تأييدها، ربما لأنه لم يلق من فاروق إقبالاً عليه بعد أن مدحه وأبدى استعداده لتعديل موقفه من النظام الملكي.. غير أني ذاكر أولاً قصة طريفة سمعتها عنه، وهي عن كيف أن عبد الناصر كلّف من يتّصل بالعقاد تيليفونياً ليخبره أن السيد الرئيس يرغب في لقائه، فحدّد العقاد الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي موعداً للقاء.. وفي العاشرة والنصف من ذلك الصباح عاد الرجل إلى الاتصال تيليفونياً به ليسأله عن السبب في عدم حضوره لمقابلة الرئيس، فكان جواب العقاد:

ـ الحضور إلى أين؟ لقد انتظرتُه في بيتي أكثر من نصف ساعة فلم يحضر!

كنتُ قد التحقتُ مذيعاً بالإذاعة المصرية في فبراير ١٩٥٤.. وفي صباح يوم ١٤ أكتوبر من ذلك العام، حضر العقاد إلى دار الإذاعة لتسجيل حديث، وظلّ مدّة تقرب من الساعة ينتظر المهندس المسئول عن التسجيلات فلم يحضر. عندئذ ثار العقاد ثورة عنيفة، متّهماً ذلك الموظف بأنه لابدّ شيوعي، تغيّب عن عمد لمجرد إغاظته لما يعرفه عنه من عداء للشيوعية. وأعلن العقاد صائحاً وهو يهبط السلم ليترك دار الإذاعة أنه سيقاطع الإذاعة إلى الأبد، ولن يعاود تسجيل الأحاديث لها. وإذ سمع مدير الإذاعة ظهراً تفاصيل القصة، استدعاني إلى مكتبه، وكلّفني بالتوجه إلى منزل العقاد مساء لتقديم الاعتذار نيابة عنه، وتولّي التسجيل له بنفسي، مقدّراً أن صداقة العقاد لأبي ستجعله يقبل ما أنقله إليه من اعتذار. وقد استقبلني العقاد ذلك المساء أجمل استقبال، وإن كان قد أسمعني بعد إجراء التسجيل مزيداً من آرائه في موضوع الشيوعيين. والواقع أني فوجئت يومها إذ ألمس كيف

كان بوسع هذا الرجل المشهور عند جمهور الناس بالجهامة والعبوس والعنف والقسوة، أن يتبسّط ويتلطّف، وأن يُظهر في داره من كرم الضيافة وحبّ الفكاهة والمزاح مالا يعرفه الكثيرون عنه. وقد أتاح لي أثناء تلك الزيارة فرصة أن أطوّف بمكتبته التي تملأ حجرات البيت وطرقاته بحيث يتعذّر على الضيف أن يميّز في يُسر مكان حجرة مكتبه من سائر الحجرات.

يكاد العقاد في واقع الأمر أن يكون المفكر والكاتب الوحيد في تلك الحقبة الذي استطاع أن يصمد في قوة في وجه التيار اليساري في مصر.. كان الأدباء والنقاد اليساريون قد أفلحوا خلال سنوات قلائل لا تتجاوز العشر في خلق جوّ من الإرهاب في الحياة الفكرية المصرية لم تعرفه من قبل أو من بعد، بالرغم من أن الحكومات المتعاقبة كانت تتشدّد في مكافحتهم، وتصادر جرائدهم وكتبهم، وتزجّ بهم في السجون، وتتّخذ كافة الإجراءات المتاحة وقتها للحيلولة دون انتشار نفوذهم وتأثيرهم. وقد كان لثقتهم التي لا تعرف حدًّا في بياتهم الأسس الماركسية للنقد والأدب والفن، وأسلوبهم الصلف في الكتابة، وعدم ترفّعهم عن السباب والطعن، أثره الغريب لا في إرهاب الكتّاب والفنانين وحدهم، بل والقراء أيضاً، بحيث أصبح الأديب في حاجة إلى شجاعة نادرة ــ كشجاعة العقاد ــ حتى يكتب قصيدة أو قصة قصيرة غير اشتراكية، والرسّام حتى يرسم لوحة لغير "الكادحين"، وأصبح النقاد ــ شيوعيين كانوا أو غير شيوعيين ــ يتّخذون مذهب الواقعية الاشتراكية معياراً للحكم على مدى جودة العمل الفني، وتردّدت على ألسنة القراء عبارات مثل: "أديب بورجوازي ــ رواية تقدّمية ــ أدب انحلالي ــ رجعيّ عاجز عن التطور ــ أدب يعبّر عن مصالح الطبقة النامية".. وقد آثر بعض الكتّاب إزاء هذه الموجة الصمت وإنهاء حياته الأدبية، في حين سارع البعض الآخر يؤكد للناس أن أدبه في واقع الحال، لو تأملوا وأنصفوا، أدب شعبي تقدمي، وأن تغزّله في شعره في امرأة يرمز إلى تعطّشه للاشتراكية، ثم يتملّق الأدباء والشعراء الجدد من اليساريين، ويكتب المقدّمات لمؤلّفاتهم ويبارك نشاطهم، بل ويُقدم على تأليف كتب جديدة تتفق في ظنّه مع المفهوم الماركسي، كمسرحية "الصفقة" لتوفيق الحكيم.. وربما كان العقاد أحد القليلين، أو هو وحده الذي شهر سلاحه للنزال، ومبادلة الطعن بالطعن والعنف بالعنف، والسبّ البذيء بالسب البذيء.

كان الرجل إلى حدّ بعيد ـ ورغم مدحه لفاروق بعد انضمامه إلى السعديين ـ مخلصاً في معتقداته. قد يقال إن الإنجليز هم الذين أوحوا إليه بكتابه "هتلر في الميزان". غير أنه سبق أن هاجم الشمولية هجوماً عنيفاً في كتابه "الحكم المطلق في القرن العشرين" الذي ألفه عام ١٩٢٨، قبل وصول هتلر إلى الحكم بخمس سنوات.. وقد يكون تهجّم اليساريين على شعره من بين الحوافز له على مهاجمة الماركسية. غير أنه لا سبيل إلى الشك في أنه كان يمقت ويكره ويستفظع النظم الشمولية جميعاً، يمينيّها ويساريّها على سواء، وأنه كان يمقت الملك فؤاد ورؤساء حكوماته الاستبدادية كإسماعيل صدقي.

ما يحيّرني منه هو موقفه من الإسلام. فهو في مجالسه الخاصة وندواته الأسبوعية التي حرصتُ على حضور بعضها، كان يبدو صريح الإلحاد، صريح الاستخفاف بالعقائد، وقد تبدر منه فيها من التعابير ما يصدم مشاعر بعض جُلاّسه.. ومع ذلك فما أكثر ما كتبه من كتب ومقالات في نُصرة الإسلام والطعن على المستشرقين الطاعنين فيه، بل والتهجّم على أقباط مصر، كما في المقالات التي كتبها لصحيفة "الدستور" عامي ١٩٠٨ و١٩٠٩ وهو لا يزال دون العشرين.. ثمة "العبقريات" المشهورة التي بدأت بعبقرية محمد عام ١٩٤٢ ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية ـ الفلسفة القرآنية ـ الديموقراطية في الإسلام ـ فاطمة الزهراء ـ بلال ـ أبو الأنبياء الخليل إبراهيم ـ الإسلام في القرن العشرين: حاضره ومستقبله ـ مطلع النور وطوالع البعثة المحمدية ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ـ التفكير فريضة إسلامية ـ المرأة في القرآن الكريم ـ الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ـ الإنسان في القرآن الكريم ـ ما يقال عن الإسلام ـ الإسلام دعوة عالمية... مثل هذا الكمّ الضخم دليل على عمق انشغال فكر الرجل بالإسلام، وربما على إخلاصه في الإيمان به، وامتعاضه من أي مساس به يأتي من قِبَل الغرب ومستشرقيه. وهو كَمٌّ لا يمكن الاقتصار في تفسيره على القول بأن الثلاثينيات ـ عقب الأزمة الاقتصادية العالمية التي مسّت آثارها مصر، وعقب اشتداد ساعد جماعة الإخوان المسلمين وانتشار تأثيرها ـ شهدت تحوّلاً ملحوظاً من جانب عدد كبير من الكتّاب في مصر إلى الكتابة عن الإسلام، تطلّعاً إلى مزيد من الشعبية والرواج لكتبهم، ومزيد من العائد المادي.

كان رفيع اللغة، موسوعيّ الثقافة، يغترف من الآداب الأجنبية والعربية دون تمييز

ودون تحيّز، فيمتزج في كيانه مختلف الثقافات دون أن يشعر بما يشعر به أناس يومنا هذا من تمزّق وحيرة بين التراث والمعاصرة، أو ضرورة للاختيار بين الحديث والقديم، أو بين ثمرات الفكر العربي والأجنبي.. فهو بنفس السهولة واليسر يؤلف الكتب عن جوته وبيكون وغاندي ومحمد علي جناح وبرنارد شو وشكسبير وصن يات صن وبنچامين فرانكلين، كما يؤلفها عن ابن سينا والفارابي وابن رشد والغزالي وأبي نواس وأبي العلاء وجميل بن معمر.. أمرها كلها هيّن عند هذا العلامة الموسوعيّ.

ومع ذلك فقد كان ثمة كَلَفٌ على الشمس. فكثيراً ما كان ـ على حدّ تعبير العامة ـ "يستعرض عضلاته"، ويوحي إلى القارئ بالتباهي بسعة اطلاعه، ويتنقّل عامداً من هذا الموضوع إلى ذاك لمجرد الرغبة في أن يكشف عن غزير علمه، وحتى يتطرّق العجب إلى عقل القارئ كيف حصّل كلّ هذه المعرفة مَنْ لم يحصل من الشهادات غير الشهادة الابتدائية؟ وفي هذه الحقيقة بالضبط تكمن الإجابة ويكمن السرّ.. هو عالم لا شك في ذلك، وقرّاءة دون ريب. غير أن ما يبدو للكثيرين أنه تعالم هو ردّ فعل محض لقصور تعليمه المدرسي، وما يبدو لهم أنه غرور من رجل لا يكاد يطاق، قد يكون مجرد قناع يُخفي وراءه ضعف ثقة ناجم عن خلوّ جعبته من الشهادات التي يرى فيها الحمقى من بني قومه دليلاً على تحصيل المعارف.

وقد حصّل العقّاد من المعارف ما لم يحصّله غير من لا يزيد عددهم على أضعاف عدد أصابع اليدين. وخرج على الناس بكتب يزيد عددها على أضعاف أضعاف عدد أصابع اليدين. وهي كتب ـ حتى إن كان أكثرها سيصير بمرور الأيام إلى طيّ النسيان ـ كتب جزلة قيّمة، وكان لها تأثيرها العميق في نفوس قرائها وقت صدورها.. كُتبٌ لا يمكن اتهام مؤلفها بالاستخفاف بعقلية قارئه، أو بالتعجّل غير المغتفر في إنجازها، أو بقلّة الصبر على دراسة المراجع بصددها، وتقليب الذهن في موضوعها.. وإنما يشينها أنه بإقباله على قراءة كل ما وقعت عليه يده دون تمييز، وفي كل فروع المعرفة دون تخصّص أو تعمّق، فشل في أن ينتج فكراً متّسقاً متلاحم الجوانب، يدعم بعضُه بعضاً. فإذا بذلك الصرح العملاق الذي قضى أكثر من نصف قرن في تشييده يبدو ـ شأنه في ذلك شأن سلامة موسى ـ مفتعلاً مهلهل النسج، مفتقراً إلى الإحكام وإلى اللمسة الشخصية المتفرّدة.

محمد أمــين حماد

لا أدري ما إذا كان الكثيرون اليوم يتذكّرون، أو يذكرون، ذلك العملاق الرهيب الذي لعب في عهد جمال عبد الناصر دوراً بارزاً بهيمنته المطلقة على الإذاعة المصرية منذ عام ١٩٥٣، ثم على التيليفزيون إلى جانب الإذاعة منذ عام ١٩٦٠، والذي أسهم بعدائه لي في تغيير مجرى حياتي، وفي تسميم سنة كاملة من سنوات شبابي.

لم يكن الملك فاروق، ولا فؤاد من قبله، يدرك مدى أهمّية دور الإذاعة في كسب الولاء له، وصوغ مشاعر الجماهير العريضة وأفكارها تجاهه وتجاه خصومه السياسيين. غير أن الظاهر أن نجاح تجربة جوبلز مع وسائل الإعلام في ألمانيا النازية قد لقّن عبد الناصر ورجاله، خاصة صلاح سالم، درساً عميق الأثر، فاختاروا رجلاً من عُتاة رجال المباحث ــ هو محمد أمين حماد ــ للقيام بالمهمّة المنشودة. وقد قام الرجل بالمهمة على أكفأ وجه منذ اليوم الأول لتولّيه منصبه مديراً عاماً للإذاعة، فكان المسئول الأول عن تحديثها وتغيير برامجها وأسلوب العمل بها تغييراً شاملاً، وتمكّن من الاستحواذ على ثقة رؤسائه الكاملة، فتركوا له زمام الأمور في ذلك المجال يوجّهها كيفما شاء، إلا حين تتطلّب أزماتٌ قاسية معيّنة ــ كتلك التي حدثت عام ١٩٥٤ ــ إصدار بعض التوجيهات أو التعليمات إليه.. وسرعان ما أصبح في مضمار الإعلام ملكاً متوّجاً، وحاكماً بأمره، تحيط به في مكتبه الواسع الفخم بدار الإذاعة رهبةٌ دونها الرهبة التي تحيط بزيوس على قمة جبل أوليمب.

لا أدري ما إذا كان بوسعه التبسّط أحياناً مع سائر الخلق، أو الابتسام والضحك. ربما.. بل هو أغلب الظن، خاصة أني رأيته مرة أو مرتين يمازح إحدى المذيعات. غير أني لم أعهده أبداً ــ ربما بسبب كراهيته لي ــ إلا عابس الوجه، مقطّب الجبين، يدفع بأحد حاجبيه

إلى الوراء حتى يكاد يلامس أذنه، ويتحدّث من خلال أسنانه التي كنت أراه دائماً يجزّ عليها جزًا.. وقد أعطى عمله كلّ دقيقة من وقته وكلّ قطرة من دمه، ما من شيء بوسعه أن يشغله عنه. فهو قابع في مكتبه منذ بدء الإرسال في الصباح الباكر وحتى انتهائه في ساعة متأخرة من الليل، يتناول وجباته الغذائية فيه، فإن شعر بإرهاق تمدّد لبضع دقائق على أريكة إلى يمين مكتبه. وما كنت لأجده أمراً مستغرباً مثلاً أن يقتحم عليّ الاستوديو أحد السعاة في السابعة أو الثامنة صباحاً فيطلب مني في وقاحة وثقة (مستمدتين من أنه مكلّف بمهمته من أمين حماد) الإسراع بالردّ على مكالمة تيليفونية من السيد المدير، فإن رفعت السماعة جاءني صوته الغاضب الهادر على الفور ــ ودون سلام أو تحية ــ يوبّخني على تضخيمي للقاف في عبارة "هنا القاهرة".

كنت بعد تخرّجي في كلية الحقوق عام ١٩٥٣ قد تقدّمتُ لامتحان الإذاعة مع أربعمائة وعشرين من خرّيجي الجامعات، فجاء ترتيبي الرابع من بين ستة عشر ناجحاً صدر القرار بتعيينهم مذيعين، لم يسبقني في الترتيب غير أحمد فراج، ونبيل بدر، والمرحومة سعاد حسن (تلك التي قتلها ابنُها منذ سنوات وهي تسجد في صلاتها).. وقد استقبلنا حمّاد في مكتبه فرداً فرداً يوم ١٠ فبراير ١٩٥٤ ليسبر غور شخصياتنا، ويستشفّ بنفسه اتجاهاتنا. والظاهر ــ أو الأرجح ــ أنه كان على علم مسبق بميولي الماركسية، فقد كان أمامه ملف يحمل اسمي (هو من المباحث لا ريب)، كما أنه من المحتمل أن يكون قد نُقل إليه نبأ إجابتي على أحد الأسئلة في الامتحان الشفهي عن رأيي في السيناتور جوزيف مكارثي الذي كانت الجرائد وقتها تغصّ بأخباره وأخبار التحقيقات التي تُجريها لجنتُه في الكونجرس مع المتّهمين الأمريكيين بتبنّي ميول شيوعية، فكِلتُ له في ردّي السباب واللعنات.. سألني حماد يومها عما إذا كنتُ تعمّقت في دراسة الفكر الماركسي، فلما أجبته بالإيجاب، ظل يحدجني بنظرته وقد أخرّ حاجبه مدة دقيقة كاملة. ثم قال:

ــ أنت تكتب أحياناً في جريدة "المصري"؟

قلت: نعم.

ــ فلتتوقّف إذن.

ــ ولم؟

ـ لأني آمرك بأن تتوقّف.. تفضّل.

(لم أتوقّف. وكانت آخر قصة لي في "المصري" هي في الصفحة الأخيرة من آخر عدد ظهر من تلك الجريدة في اليوم التالي لصدور الحكم بإغلاقها، وهو ٢٥ إبريل ١٩٥٤).

وكان لقائي الأول هذا مع حماد هو ألطف لقاء لي معه خلال الأشهر العشرة التي عرفته فيها. فما مرّ ستة عشر يوماً عليه، وعلى تسلّمي لعملي كمذيع بالإذاعة، حتى وقعت كارثة.

ففي يوم ٢٥ فبراير ١٩٥٤ أصدر مجلس قيادة الثورة بياناً بإقالة اللواء محمد نجيب من رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء وكافة الوظائف الأخرى التي يشغلها، وتعيين البكباشي جمال عبد الناصر رئيساً لمجلس الوزراء ومجلس قيادة الثورة... لم أسمع يومها بالخبر.. غير أني كنت المكلّف في اليوم التالي (٢٦ فبراير) بإذاعة الفترة الصباحية، ومرّت عليّ في منزلي في الخامسة صباحاً سيارة حكومية لنقلي إلى دار الإذاعة بشارع علوي. فما وصلتُ إلى المنطقة حتى تبيّنتُ حركةً غير عادية، وشاهدت قوات من الجيش وعدداً من الدبابات والسيارات المصفّحة تحاصر المبنى. وتفحّص الجنود المسلّحون عند الباب أوراقي بدقة غير معهودة، ثم سمحوا لي بالدخول حين تأكدوا من أني مذيع الفترة. وعندما سألتُ أحدَ الضباط في البهو الداخلي عما عساه يكون قد حدث، سمعت منه لأول مرة بقرار مجلس قيادة الثورة.

كانت الساعة السادسة إلا الربع عند دخولي الاستوديو. وكان عليّ قبل قراءتي لنشرة الأخبار في السادسة أن أُلمّ ببرامج الفترة الصباحية، وأن أتأكد من أن أسطوانات الأغاني التي ستذاع بعد النشرة موجودة بالاستوديو، وأن أضع الأسطوانة التي ستلي نشرة الأخبار مباشرة على القُرص الدوّار إلى يميني.. كان المذكور في البرنامج أن تلك الأسطوانة هي أغنية "الله أكبر" لشادية. غير أني حين بحثت عنها في رفّ الأسطوانات لم أجدها. فقرّرتُ إذاعة أغنية أخرى في مثل طولها أنتقيها من رف "الاحتياطي" الذي نلجأ إليه عند الضرورة، كتغيّب صاحب حديث أو إصابة أسطوانة بشرخ، إلى آخره. وكان أن وجدتُ في الاحتياطي أسطوانةً مدّتُها أربع عشرة دقيقة كمدة أسطوانة شادية المفقودة، وهي أغنية

"تحية البلاد العربية" لنجاح سلام التي لم أكن سمعتُها ولا سمعتُ عنها من قبل.. قرأتُ النشرة الإخبارية، ثم قدّمتُ أغنية نجاح سلام وأدرتُ الأسطوانة، فإذا هي تفيض بالحديث عن محمد نجيب وبالمديح فيه والتمجيد له، شأن كافة أغانينا في مدح قادتنا العظام. وفي لحظة، كانت يدي تمتدّ لوقف الأسطوانة فتقطع جملة في منتصفها، ثم هرعت لانتقاء أخرى أُديرها دون تقديم ودون أيّ اعتذار.

انتهت الأغنية، وانتقلتُ إلى الفقرة التالية من البرنامج، فإذا بباب الأستوديو يُفتح بحركة عنيفة، وإذا بتماضر توفيق رئيسة قسم المذيعين تدخل لتقول لي:

ـ المدير يريدك على التيليفون. وسأحلّ مكانك في بقية الفترة.

وخرجتُ إلى التيليفون لأردّ على المدير، فإذا هو يبدأ كعادته دون تحيّة:

ـ أسطوانة "تحية البلاد العربية" مذكورة عندك في البرنامج؟

ـ لا يا فندم. المذكور أغنية شادية "الله أكبر"، لكني لم أجدها في الأستوديو.

ـ سأرسل إليك الآن من يبحث عنها.

وبعد أقلّ من دقيقة وصل أحد الموظفين إلى الاستوديو، وامتدّت يده تقلّب في الأسطوانات على الرفّ، فإذا هو يعثر على أسطوانة شادية.. قال لي في برود:

ـ أليست هذه هي الأغنية التي كان المفروض إذاعتها؟

ـ نعم، لكني لم أرها.

ـ متأكد؟

وأحالني المدير إلى إدارة التحقيقات فأمرت بخصم كبير من مرتبي، وبوقفي عن العمل لمدة خمسة عشر يوماً، ثم صدر قرار بنقلي من إدارة المذيعين إلى إدارة التسجيلات.

كانت البلاد بأسرها في حال من الاضطراب المُفضي إلى الفوضى نتيجة محاولات جمال عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة الموالين له التخلّص من محمد نجيب، ثم اضطرارهم إلى التراجع عن قراراتهم إزاء هياج طوائف كبيرة من الشعب في كل من مصر والسودان، بحجة الرغبة في "الحفاظ على وحدة الأمة"، مع التخطيط دائماً لاختيار الوقت المناسب والأسلوب المناسب لتنفيذ رغبتهم. وقد كان بعد حادث أغنية نجاح سلام بيوم واحد أن صدر قرار المجلس بإعادة محمد نجيب إلى رئاسة الجمهورية، وقامت في طول

البلاد وعرضها قلاقل ومظاهرات، وخرجت مسيراتٌ تهتف ضد عبد الناصر وصلاح سالم وبحياة نجيب، مما دفع قوات الجيش المؤيدة لعبد الناصر إلى إطلاق النار فجرحوا الكثيرين من المتظاهرين، ودفع عبد الناصر إلى الأمر بإغلاق الجامعات الثلاث بعد اعتصام المئات من الطلبة فيها، كان من بينهم أخي جلال الذي اعتصم مع زملائه بجامعة القاهرة ليلة أو ليلتين للتعبير عن تعاطفه مع محمد نجيب ورغبته في عودة الجيش إلى ثكناته.

***

قصّ عليّ وقتها زميلي المذيع نبيل بدْر قصةَ تكليفه بمرافقة محمد نجيب في رحلة له بصعيد مصر، فلما اعتزم إلقاء خطبة هناك طَلَب من نبيل بدر أن يذكر ضمن تقديمه للخطبة المذاعة على الهواء أنه رئيس الجمهورية وقائد ثورة يوليو. فاعتذر له نبيل عن عدم استطاعته ذلك حيث أنه تلقّى قبل سفره من أمين حماد تعليمات مشدّدة بألا يصف نجيب أبداً بأنه قائد الثورة، فابتسم نجيب، وأذعن لمقتضى الحال.

ومع ذلك فقد حدث في يوم ٢ مارس أن ورد إلى الإذاعة بيان من إدارة جامعة الإسكندرية ينفي النبأ القائل بأن جماعة من هيئة التدريس فيها أعلنت تأييدها لمحمد نجيب ضدّ جمال عبد الناصر، ويؤكد ولاءها لعبد الناصر ومجلس قيادة الثورة. فكان أن أمر أمين حماد ــ وهو الموالي بشدة لعبد الناصر ــ بأن تتضمن نشرة أخبار الثامنة والنصف مساء النص الكامل لهذا البيان. غير أن مذيع الفترة، وهو صلاح زكي (وكان وقتئذ كسائر اليساريين، وعكس الحال فيما بعد، شديد العداء لعبد الناصر) لم يكتف باختصار البيان وحذْف ذكر مجلس الثورة، بل وأضاف من عنده أن الجامعة تؤيد كلاً من نجيب وعبد الناصر. فما مضت دقائق على إذاعة النشرة حتى اتصل عبد الناصر بمدير الإذاعة هائجاً ثائراً وناعتاً مذيعيه بالمخرّبين، فأمر المدير بوقف صلاح زكي عن العمل، وبإحالته إلى مجلس تأديب.

والواقع أني كلما عدتُ بذاكرتي إلى ذلك العام الكئيب الحافل بالأحداث من تاريخ مصر، ومن سيرتي الذاتية، تقفز إلى ذهني على الفور عدة أحداث منه. فها هي إحدى المذيعات تنصحني سراً بالتزام الحذر حيث أن أمين حماد استدعاها يوماً لسؤالها عما تعرفه عن

علاقات حسين أمين النسائية داخل الإذاعة وخارجها، فلما أجابته بأنها لا علم لها بأيّ شيء في هذا الصدد، صاح بها:

ـ إذا ثبت إنك كدّابة وبتخبّي عليه حاودّيكي في داهية.

أو ها أنذا أتوجّه ذات مساء إلى سينما مترو مع زملائي أحمد فراج ونبيل بدر وسيد الغضبان لمشاهدة فيلم "رابسودي Rhapsody"، ونفترق عند باب السينما بعد منتصف الليل ليتوجّه كلٌ منّا إلى بيته، ثم إذا بي أعلم في اليوم التالي أن الشرطة كانت في انتظار عودة أحمد فراج وسيد الغضبان، وأنها ألقت القبض عليهما لحظة وصولهما إلى داريهما لعضويتهما في جماعة الإخوان المسلمين.. كذلك فقد كان من عادتي أن أستيقظ كل صباح في الخامسة فأخرج في نزهة لمدة ساعتين في الحقول الواسعة عند نهاية الشارع الذي نسكن فيه في الدقّي وأعود والأهل لا يزالون نياماً. غير أني أعود ذات يوم من نزهتي، فإذا بوالدتي وجلال أخي في حال من القلق الشديد عليّ لا يعرفان أين كنت، وإذا هما وقد اتصلا تيليفونياً بالإذاعة ليسألا عمّا إذا كنتُ في فترة الإذاعة الصباحية، فيجيبوهما بالنفي، فاعتقدا أنني لابدّ قد اعتُقلت خلال الليل. وإذ أتوجّه إلى عملي بعد الإفطار إذا بإشاعة وقد ملأت دار الإذاعة بأن القبض قد تمّ علي أنا أيضاً، ولكن بتهمة الشيوعية.

(ملاحظة: كان في آخر شارعنا المذكور، وهو شارع يوسف موصيري، مبنى ملاصق للحقول تشغله مباحث أمن الدولة، وكانت الشاحنات المكتظّة بالمعتقلين تمرّ طيلة اليوم جيئة وذهاباً بمنزلنا، فإن مررتُ على المبنى في الصباح في طريق نزهتي اليومية تناهت إليّ صرخات المعتقلين تنبعث من داخله، وكذا صيحات الشتائم والإهانات من القائمين بالتعذيب).

كانت أعصاب الناس جميعاً وقتها في توتّر دائم. وقد زاد من توتّر أعصابي بؤسي بالعمل في إدارة التسجيلات وإبعادي عن الميكروفون، وهو ما انعكس على علاقاتي بالموسيقيين والمطربين الذين كنت أسجّل لهم أغانيهم، فكنت كثير الشجار معهم. (أذكر من بين مَن تشاجرت معهم في تلك الفترة المطرب الجديد عبد الحليم حافظ والموسيقار أحمد صدقي، فكانا من بين المتقدّمين بالشكوى مني إلى مدير الإذاعة). فلما لمس والدي ما أنا فيه من بؤس وتوتّر، طلب من صديقه الشيخ عبد الوهاب خلاّف الذي كان يذيع وقتها

أحاديثه الممتعة في الإذاعة، والذي لا يملك أمين حماد أن يرفض له رجاءً، أن يتوسّط لدى حماد حتى يعيدني إلى قسم المذيعين. وكان أن اضطر الرجل إلى قبول شفاعة خلاّف شرط أن أجمع بين عملي مذيعاً وعملي في إدارة التسجيلات. وقد سعدتُ مع ذلك بهذا القرار. فما مضى أسبوع واحد على استئنافي للعمل مذيعاً حتى وقع حادث آخر أنذرني بقرب النهاية.

كان ثمة في ذلك الوقت زجّال مشهور دَأَبَ على أن يتلو في الإذاعة أزجالاً له يمتدح فيها جمال عبد الناصر ورجال مجلس قيادة الثورة.. دخل عليّ الاستوديو قبل عشر دقائق من موعد إذاعته لزجل آخر له على الهواء، وقدّم إليّ ورقة صغيرة كتب فيها الصيغة التي يريدني أن أقدّمه وأقدّم زجله بها.. تناولتُ منه الورقة في برود، فإذا هي مليئة بعبارات الثناء على قائد الثورة جمال. قلت له (ولعلّني تذكرتُ ساعتها قصة نبيل بدر مع محمد نجيب):

ـ سأقدّمك بالأسلوب الذي يحلو لي أنا، وليس من حقّك أن تفرض إرادتَك على المذيع.

حدجني بنظرة طويلة ثم قال: كده؟

قلت: أيوه كده.

ثم قدّمتُه وزجله بعبارة مقتضبة لا ذكر فيها لعبد الناصر.

قرأ الرجل زجله ثم ولّى خارجاً من الاستوديو دون إلقاء سلام، ومضى من فوره إلى مدير الإذاعة يخبره بالقصة.

وفي صباح اليوم التالي استدعاني المدير إلى مكتبه.

مدّ حاجبه إلى أذنه ثم قال:

ـ إنت تسيب قسم المذيعين فوراً وترجع التسجيلات. وكمان عايز أقول لك حاجة. تاني مرة ما تسخّرش الشيخ عبد الوهاب خلاّف عشان يتوسّط لك... إنت شاب قلق، ومذيع فاشل، وأسوأ السناشر اللي اتعيّنوا في الإذاعة. وأنا غير راض بالمرّة عنك.. وتقدر تفهم المعاني الخفيّة اللي ورا عبارة إني موش راضي عنّك.. تقدر؟

ـ أقدر.

ـ ثم إيه الخلافات الكتيرة دي بينك وبين الموسيقيين والمطربين؟ إذا جاءت لي شكوى تاني من أيّ واحد منهم ضدّك أنا حا عاقبك عقاب قاسي.. سامع؟ اتفضل مع السلامة.

جرى هذا الحديث صباح ١٦ يوليو وفي المساء، وبعد أن اختمر في ذهني الاعتقاد بأن أيامي في الإذاعة المصرية باتت معدودة، جاءتني فكرة أن أكتب إلى زوج أختي الدكتور عبد العزيز عتيق، وكان وقتها مديراً للمكتب المصري للبعثات في إنجلترا، كي يدرس إمكان التحاقي مذيعاً بالقسم العربي من هيئة الإذاعة البريطانية في لندن. وقد فعلت.. وفي ٢٩ يوليو تلقّيت منه البرقية التالية:

"الإذاعة البريطانية تريدك أن تتوجّه فوراً إلى رئيس مكتبها بالقاهرة مستر شيرينجهام بجاردن ستي. والتفاصيل بالبريد".

وقصدتُ على الفور مستر شيرينجهام فأخبرني أنه تلقّى برقية من الإذاعة البريطانية تطلب منه إجراء اختبار لي في الصوت والترجمة، وأن الأمل كبير في تعييني شرط نجاحي في الاختبار، وموافقة الإذاعة المصرية على إعارتي.

وكان أن اجتزتُ الامتحان بنجاح، فتوجّه شيرينجهام لمقابلة حسني الحديدي كبير المذيعين لاستئذانه في تعييني بلندن. فما كان من حسني (بعد أن طمأن شيرينجهام على أنه سيبذل مساعيه من أجل الحصول على موافقة الجهات العليا) إلاّ أن بعث بمذكرة إلى أمين حماد يقول فيها إن وضع حسين أمين في إدارة التسجيلات لا يتناسب مع مؤهلاته وثقافته، ويقترح إسناد برنامج أدبيّ إليّ للإشراف عليه حتى أعدل عن فكرة الالتحاق بالإذاعة البريطانية.

في ٤ أغسطس استدعاني أمين حماد لمقابلته:

ـ إنت ناوي تشتغل مع البي. بي. سي؟

ـ نعم.

ـ لو عرضتُ عليك إني أنقلك إلى إدارة التمثيليات، تقبل وتسيب فكرة البي. بي. سي؟

ـ لا يا فندم.

ـ وهو كذلك. أنا حا عرض الموضوع على صلاح سالم.

ثم تلت ذلك ثلاثة أشهر من انتظار ردّ وزير الإرشاد القومي صلاح سالم، وهي ثلاثة أشهر كانت البلاد تموج أثناءها بأحداث مثل محاولة اغتيال جمال عبد الناصر بالإسكندرية، وعزل محمد نجيب نهائياً عن مناصبه ووضعه تحت الإقامة الجبرية في المرج، واعتقال

المعارضين لعبد الناصر ومجلس قيادة الثورة والزّجّ بهم في السجون.. وأخيراً، وفي ٦ نوفمبر (وفيه كان آخر لقاء لي مع أمين حماد) استدعاني المدير. فما دخلتُ عليه وحيّيتُه تحيةً عجبتُ إذ أسمعه يردّها، حتى ناولني صورة مذكرة منه بتاريخ ٦ أغسطس إلى صلاح سالم يعرض عليه أمر طلبي الالتحاق بالإذاعة البريطانية، وفي أسفلها، بتاريخ ٥ نوفمبر، تأشيرة وزير الإرشاد التالية:

"لا أوافق إطلاقاً.. صلاح سالم". (وتحت كلمة إطلاقاً ثلاثة خطوط للتأكيد).

قرأت التأشيرة وقد امتقع وجهي وخرجت. غير أن الأمر لم ينته عند هذا الحد. فقد كان شيرينجهام ــ وقد نفد صبره لطول انتظاره موافقة الإذاعة المصرية ــ قد توجّه بنفسه في ٢٦ أكتوبر لمقابلة وكيل الإذاعة عبد الحميد يونس، فأكّد له ذلك الرجل الطيّب، غير الملمّ بموقف المدير أو الوزير، أنه ليس ثمة مشكلة على الإطلاق، وأن الإذاعة توافق على سفري. فإذا بشيرينجهام يستدعيني في ٩ نوفمبر (بعد أربعة أيام من رفض صلاح سالم لسفري، وهو نبأٌ رأيتُ من الحكمة أن أخفيه عنه)، ويسلّمني تذكرة الطائرة. وفي فجر ١٥ نوفمبر توجّهت إلى المطار للسفر إلى لندن وأنا أتوقع في كل لحظة قبل إقلاع الطائرة أن يأتيني من يعتقلني أو يخطرني بمنعي من السفر بأمر الوزير. وكان شعوري عند الإقلاع كشعور أفراد عائلة فون تْراب في فيلم "صوت الموسيقى" حين فرّوا من النمسا النازية ووجدوا أنفسهم عند الجانب السويسري من الجبل.

كذا سافرتُ إذن إلى بريطانيا: دون إخطار للإذاعة المصرية أو لمديرها، ودون تقديم استقالتي منها، ودون توديع لأيّ من زملائي المذيعين، عدا السيدة العظيمة المرحومة سميرة الكيلاني وزوجها محمود أمين العالم اللذين كانا على علم بالقصة منذ بدايتها.

وتمرّ الأيام، وأعود إلى القاهرة في ٢ ديسمبر ١٩٥٦ بعد استقالتي وبعض زملائي من الإذاعة البريطانية بسبب العدوان الثلاثي على مصر. ونتوجّه لمقابلة وزير الإرشاد الجديد فتحي رضوان الذي عُيّن في منصبه هذا بعد إقالة عبد الناصر لصلاح سالم (توفي بالسرطان عام ١٩٦٢ عن اثنين وأربعين عاماً)، فإذا هو يتّصل أمامنا تيليفونياً بأمين حماد يسأله عن إمكان قبوله لنا في الإذاعة ويذكر له أسماءنا. فيجيب حماد بقوله:

ــ أقبلهم جميعاً عدا المدعو حسين أمين الذي لا أريد أن أرى وجهه.

وما كنتُ من ناحيتي بالرّاغب في أن أرى وجهه. وكان أن اتّصل فتحي رضوان بيحيى حقي مدير مصلحة الفنون يرجوه أن يقبلني عنده، فوافق يحيى حقي على العرض.

ثم تمرّ الأعوام، ويموت عبد الناصر عام ١٩٧٠، فإذا بأنور السادات يفتك فتكاً بكبار أنصار سلفه في كافة المواقع، وإذا به يفصل محمد أمين حداد من منصبه فيظلّ حتى موته دون عمل، لايراه أحدٌ من معارفه أو أصحابه أو مرءوسيه القُدامى في طريق أو منتدى إلا تجنّبه وأشاح بوجهه عنه، حتى يتلافى إثارة شكّ مباحث السادات في أن له صلة به.

حسن الكرمي، وصباح محيي الدين

لا شكل في أن السنوات التي عملتُ خلالها في لندن مذيعاً بالقسم العربي من هيئة الإذاعة البريطانية هي أخصب سنوات تكويني الثقافي. سنوات عدتُ بعدها إلى مصر إنساناً غير الذي كان.. نعم قد كنت دائماً منذ نعومة أظفاري عظيم النَهم إلى القراءة، في التراث العربي والتراث الغربي على سواء. غير أني حين توجّهت إلى إنجلترا وأنا في الثانية والعشرين من العمر، أضفتُ إلى القراءة أبعاداً ثقافية أخرى لم تكن نامية عندي بالدرجة الكافية.. فها أنا فيها أتردّد على الألبرت هول، والفيستيڤال هول للتزوّد من الموسيقى الكلاسيكية. وأشترك في عدد من نوادي السينما لمتابعة أهم الأفلام منذ أيام السينما الصامتة إلى اليوم، ولحضور مواسم يُعرض فيها كامل أعمال المخرجين العظام. ثم ها هي المتاحف والمعارض أتلقّى فيها لأول مرة تربية فنية مكثّفة. أما عن المسرح، وهو حبي الأكبر في الحياة، فكنت أتردد عليه مرة كل يومين، حتى بات عُمّاله كلما رأوني حيّوني تحية خاصة. بل وحتى في مجال الأوبرا، وهو الفن الذي لم أتمكن حتى اليوم من استساغته، لا يمكن القول بأني لم أحاول الكَرّة تلو الكرّة أن أشرح لها صدري.. وإذ كنت أجد بعد كل هذا، وبعد ساعات عملي الإذاعي، وقتَ فراغٍ يلحّ عليّ أن أملأه بنشاط مفيد، فقد انتسبتُ إلى جامعة لندن لدراسة الأدب الإنجليزي في القرن الثامن عشر.

بل إنه حتى في ميدان القراءة الذي كنت قد قطعت فيه ـ كما ذكرت ـ شوطاً بعيداً قبل رحيلي عن مصر، رأيت نفسي بعد فترة من الإقامة في إنجلترا مقصّراً فيه. ذلك أنني في مصر كنت نادراً ما أصادف بين أقراني من يبزّني في ذلك الميدان، وكنت معرّضاً لأن أحذو حذو الأرنب في خرافة لافونتين فأخلد إلى النوم والراحة، مطمئناً إلى أن المسافة بيني وبين

السلحفاة أكبر من أن تتمكن من اللحاق بي.. أما في إنجلترا فثمة بين زملائي في العمل من كان ينظر إلى ما حصّلتُه من ثقافة نظرة استهانة واستخفاف.. كذلك فقد كان المناخ الثقافي نفسه، وقراءتي المتمعّنة كل صباح لصحيفتي التايمز والمانشستر جارديان، وكل أسبوع للأوبزرفر والصنداي تايمز والإيكونوميست، بمثابة سوط يُلهبني ويُدميني ويدفعني دفعاً إلى الخطو إلى الأمام. فها أنا ذا مثلاً أقرأ في خلال مقال افتتاحي بصحيفة التايمز جملة ساخرة تقول إن إلمام العَرَب بهذا الموضوع أو ذاك لا يزيد عن إلمامهم بمسرحيات بومونت وفلتشر. فأهتف في نفسي فزعاً: وأنا أيضاً لم أقرأ مسرحية واحدة لبومونت وفلتشر، فأنا إذن ضمن المقصودين بالاستهزاء والسخرية! وأتوجه من فوري إلى مكتبة الإذاعة العامرة أستعير منها المؤلفات الكاملة لهذين الكاتبين المعاصرين لشكسبير.. وإن قرأت في "الإيكونوميست" أن نظام التعليم في الولايات المتحدة هو بمثابة كعب أخيل في الكيان الأمريكي، ولم أعرف المقصود بعبارة "كعب أخيل"، بحثت عن شرح لها في القاموس، حتى أهتدي إلى أن المعنى هو نقطة الضعف، وإلى أن أصل التعبير نجده في حديث الإلياذة عن البطل الإغريقي أخيل، ثم إذا بي أقرأ الإلياذة ثم الأوديسة لأول مرة في حياتي.

أما عن زملائي من العرب في الإذاعة، فقد كان لاثنين منهم بالأخصّ ـ وعن غير قصد ـ فضل إشعاري بأوجه القصور فيما حصّلته حتى سن الثانية والعشرين من ثقافة: حسن الكرمي الفلسطيني، وصباح محيي الدين السوري.

فأما حسن الكرمي، وهو أكبر أعضاء القسم العربي سناً، وصاحب المعجم الإنجليزي العربي الشهير "المُغني الأكبر" والبرنامج الإذاعي "قَوْلٌ على قول"، والقائم وقتذاك على إعداد سلسلة "تعليم الإنجليزية بالراديو"، فكان يشغل منصب مراقب اللغة. فهو في مكتبه بطابق علوي يستمع عن طريق سماعة الرأس إلينا معشر المذيعين ونحن نتلو نشرات الأخبار في الاستوديو تحت سطح الأرض، ويسجّل في ورقة أمامه ما ننزلق إليه من أخطاء في النحو أو النطق أو الترجمة. حتى إذا ما انتهت نوبتنا في الاستوديو كان علينا أن نأتيه في مكتبه على الفور ليسرد علينا بيان هذه الأخطاء. وهو أحياناً يفاجئنا في الغرفة المخصصة لمترجمي النشرات الإخبارية ليراجع ويصحّح ما نكون قد فرغنا من ترجمته من فقرات.. والواقع أنه كان لحسن الكرمي هذا أعظم فضل ـ بعد فضل أبي وفضل قراءاتي في التراث

ـ في الارتقاء بلغتي العربية. فبالرغم من أني كنت في مصر أعتبر نفسي مجيداً لتلك اللغة، إذا بي أجد الكرمي يسجّل من أخطائي خلال النشرة الإخبارية الواحدة التي لا تستغرق تلاوتُها أكثر من ربع ساعة، ما يملأ صفحة أو يزيد! غير أنه كان ثمة ما يخفّف عني شعوري بالإحباط: فالأخطاء المذكورة لم تكن مما يقع فيه الطلبة أو الصحافيون أو السياسيون، وإنما كان معظمها مما يسمّيه الحريري صاحب المقامات بأوهام الخَوَاصّ، أي تلك التي يقع فيها حتى من ظن في نفسه إتقان اللغة. فمن الخطأ مثلاً أن يقال "الأراضي المحتلة"، لأن الأرض ثلاثية، والثلاثي لا يُجمع على أفاعل، والصواب أن يقال في جمعها "أرَضون" بفتح الراء. ومن الخطأ القول "أزمع على السفر"، والصواب: أزمع السفر. ومن الخطأ القول: اجتمع فلان مع فلان، والصواب: اجتمع فلان وفلان. ومن الخطأ القول "عشرون نفراً"، فالنّفر إنما يقع على الثلاثة من الرجال إلى العشرة، ولا يستعمل النفر فيما جاوز العشرة بحال. كذلك فإنه لا يقال "تتابعت المصائب على فلان"، وإنما يقال تتايعت بالياء المعجمة، لأن التتابع يكون في الخير والتتايع في الشر. ولا يقال لداء البطن المغَص بفتح العين، لأن المغَص هو خيار الإبل، أما الداء فهو المغْص بإسكان الغين!

كان الكرمي جهم الوجه، بارد العاطفة، أو هكذا خُيِّل إليّ. ولم يكن رؤساؤنا الإنجليز يبجّلون أحداً منا تبجيلهم إياه، وهم الذين يعرفون سيرته قبل التحاقه مضطراً بالإذاعة، ويعرفون أنه قبل حرب فلسطين عام ١٩٤٨ كان يشغل منصباً تربوياً رفيعاً في بلاده.. كذلك خُيِّل إليّ أنه بخيل في شؤون المال، ربما لأني لم أكن أراه في مطعم الإذاعة ساعة الغداء إلا وأمامه كوب من اللبن الزبادي لا يتجاوزه إلى غيره. أما المؤكد فهو أنه كان "دودة كتب"، لا حديث له إلا فيما يقرأ أو يكتب، في تصريف فعل أو أصل كلمة، ولا اهتمام له خارج حدود الكتب وعمله الإذاعي، ولا غرام يشغل قلبه غير الغرام باللغة العربية. فهو ملمّ بتراثها إلماماً يندر أن تجده في غيره، ولا يكاد يبزّه فيه غير الأستاذ محمود محمد شاكر. أما المسرح والموسيقى وفنون التصوير والنحت والباليه والأوبرا، فلا أحسبه كان يدري شيئاً عنها، أو هو على الأقل ما كان ليتعرّض لها أثناء حديثه بكلمة.

رحّب بي عند استلامي العمل ترحيباً حاراً إذ علم أني ابن لأحمد أمين. غير أنه ما تبيّن بمرور الأيام أني لستُ حُجّة في اللغة، ولا حتى من مُتقنيها، فترت حرارته وصار شأني

عنده شأن الآخرين من غوغاء الإذاعة. والواقع أنه لم يكن يحترم من بيننا ولا يرتاح تماماً إلى أحد منا غير شاب سوري في نحو الثلاثين، هو في زعمي أحد أهم الروائيين وكُتّاب القصة القصيرة في سوريا في العقد التالي للحرب العالمية الثانية. ولا أزال إلى اليوم أجدني مفتوناً بروايته "السيمفونية الناقصة"، ومجموعته القصصية "زعتر صَفَد"، وأعيد قراءتهما بين الفينة والفينة.

كان هذا الشاب، واسمه صباح محيي الدين، قصير القامة، عريض المنكبين، أسمر الوجه، وسيم الملامح، ذا شارب كثّ كشارب جوركي أو نيتشه، مليئاً بالحيوية الزائدة والطاقة غير المعهودة على العمل، متزوجاً من امرأة فرنسية. وقد كان بصرف النظر عن موهبته الأدبية عظيم الثقافة رغم صغر سنه، رفيع مستوى اللغة العربية، مجيداً إلى جانبها لكل من الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والألمانية والروسية. وقد جذبت ثقافته هذه انتباه حسن الكرمي فقرّ به وتعهّده بالرعاية. وكنت دائماً أراهما معاً في مطعم الإذاعة، أمام كل منهما كوب الزبادي المحتوم، فلا أرى الكرمي ضاحكاً أو مبتسماً أو مازحاً إلا إن كان في صحبة صباح محيي الدين.

كان إنساناً عجيباً حقاً. هو دوماً على عجل. يدخل مبنى الإذاعة مهرولاً وكأنما هو في طريقه إلى إطفاء حريق شبّ فيه. ويقتحم علينا حجرة المذيعين اقتحام الزوبعة وهو يخلع معطفه أثناء هرولته، ملقياً علينا تحية جماعية مقتضبة، دون مصافحة، ودون أن ينظر إلينا. ثم يجلس إلى مكتبه فيشرع على الفور في أداء عمله. حتى إذا ما فرغ منه أخرج ملحمة "اللوزيادة" لشاعر البرتغال الأعظم كَمُويْش ومعها قاموساً في اللغة البرتغالية. فإن سألته عن سبب اهتمامه باللغة البرتغالية أجابك بأنه ينوي قضاء إجازته الصيفية في لشبونة ويعدّ نفسه للرحلة بتعلّم اللغة.. أما عن قراءاته فهي ليست كقراءات أمثالنا من عامة الناس في "الحرب والسلام" أو "الأخوة كارامازوف" أو "تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية". فقد فرغ من قراءة كل هذا منذ زمن طويل. وإنما هو يقرأ كتباً في فقه اللغة الفرنسية، أو تاريخ الدنمارك، أو طبيعة الصخور في صقلية، أو أثر العرب في صناعة السجّاد في الأندلس في القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

كان عند أعضاء القسم العربي من الإذاعة بمثابة دائرة المعارف البريطانية، إن رَابَنَا

أمرٌ أو جهلنا شيئاً قصدناه بالسؤال، فيجيبنا من فوره دون أن يرفع رأسه أو حتى عينيه عن الكتاب أمامه أو العمل الذي انشغل به. وهو ما يدفعني إلى الاعتقاد أنه لو صادف ورآني في الطريق أو المسرح أو الحافلة العامة لما تعرّف عليّ.. فما أذكر أننا تحادثنا طويلاً ولو مرة واحدة وجهاً لوجه.. فالحديث مع أمثالي وأمثال زملائنا مضيعة للوقت. والحياة أثمن وأقصر من أن يضيّعها على ما لا طائل وراءه.

ــ صباح! في أي عام ألّف مسكويه كتابه "تجارب الأمم"؟

ــ عام ٩٨٠.

صباح! كم يبلغ ارتفاع مدينة ساو باولو بالبرازيل عن سطح البحر؟

ــ ٧١٠ متراً.

ــ صباح! ما الدول التي وقّعت على صلح ويستفاليا عام ١٦٤٨؟

ــ فرنسا والسويد وإسبانيا وهولندا والإمبراطورية الرومانية المقدسة.

ــ صباح! ما متوسط طول عمر النحلة؟

ــ ستة أسابيع.

ولا أزال أذكر أنه في ربيع عام ١٩٥٦ بدأت الصحافة البريطانية تفيض في حديثها عن برتولت بريخت ومسرحه بمناسبة قرب وصول فرقته الألمانية وعلى رأسها زوجته الممثلة هيلينا ڤايجل ــ لتمثيل مسرحيتيه "دائرة الطباشير القوقازية" و"الأم الشجاعة" في لندن. وإذ كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها اسم بريخت، فقد رأيت أن أسأل صباح:

ــ صباح! سمعت بكاتب مسرحي ألماني يُدعى برتولت بريخت؟

وكانت إجابته على سؤالي دون أن يرفع رأسه:

ــ رسالتي للماجستير في جامعة السوربون عام ١٩٤٨ كانت حول نظرية بريخت عن علاقة الجمهور بما يشهده على المسرح من شخصيات وأحداث.

***

وتمرّ الأيام، وأترك عملي بالإذاعة البريطانية عائداً إلى مصر، وألتحق بالسلك

الدبلوماسي المصري فأُعيّن عام ١٩٥٩ ملحقاً بالسفارة في كندا. وقد رأيت أن يكون سفري إليها عن طريق لندن، فتوقفت فيها لبضعة أيام. وقصدتُ مبنى الإذاعة قرب جسر واترلو، أسأل عن زملائي القدامي. وحين سألتُ عن صباح محيي الدين، أجابني حسن الكرمي بصوت يتهدّج:

ـ أما علمت؟ لقى مصرعه في العام الماضي في حادث سيارة بالكويت.

محمود مرسي

كثيراً ما أتذكّر ساخراً دعوى صامويل جونسون في قصيدة له أن الأحداث السياسية لا تأثير لها في حياة الأفراد، وأتذكّر على الفور ــ وكأنّما أردُّ بهذا على تلك الدعوى الباطلة ــ كيف أن قرار رجل لا أعرفه، هو أنطوني إيدن، وحكومة لا شأن لي بها، هي حكومة حزب المحافظين في إنجلترا، بتوجيه إنذار إلى مصر في الثلاثين من أكتوبر من عام ١٩٥٦ بسحب قوّاتها لعدّة أميال غربيّ قناة السويس، أفسد عليّ وعلى عدد من زملائي بالقسم العربي من الإذاعة البريطانية في لندن، ومن بينهم محمود مرسي، حياة خصبة سعيدة، وكان بمثابة نقطة تحوّل حاسمة في سيرتنا، لولاها ما صرنا إلى ما صرنا إليه اليوم.....

في يوم الثلاثاء ٧ أغسطس ١٩٥٦، كنت في مكتبي بالإذاعة البريطانية أترجم التعليق على هامش الأخبار، حين دخل عليّ رجل طويل القامة عريضها، وسيم الملامح، أشقر الشعر، أزرق العينين، في الثالثة والثلاثين من العمر، واقترب منيّ يمدّ يده لمصافحتي وليعرّفني بنفسه:

ــ زميلكم الجديد بالإذاعة، محمود مرسي.

لم نكن ننتظر وصوله بهذه السرعة، بعد أسبوعين فحسب من قرار الإذاعة الفرنسية بباريس بفصل جميع المصريين العاملين بها من قبيل الانتقام من قرار عبد الناصر يوم ٢٣ يوليو ٥٦ بتأميم قناة السويس. غير أنه كان قد بلغني قبل وصوله ببضعة ايام شيء من سيرته والظروف التي اضطرته إلى المجيء إلى لندن.. فهو من مواليد ١٩٢٣، تخرّج في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، ثم سرعان ما دفعه حبّه العميق للسينما والمسرح إلى بيع

نصيبه في عمارة بالإسكندرية ورثها عن أمّه أو عن أبيه، وتوجّه إلى باريس لدراسة الإخراج السينمائي فيها على نفقته الخاصة. وحين أشرف ما بيده من المال على النّفاد، التحق مذيعاً بالقسم العربي من الإذاعة الفرنسية يستعين بمرتبه فيها على إكمال دراسته.. ثم جاء تأميم عبد الناصر لشركة قناة السويس، ولم تكتف الإذاعة الفرنسية بفصله هو وزملائه من المصريين، بل وأمهلتهم فرنسا مدّة أسبوع يغادرون خلاله البلاد.. ثم لا علم لي بكيف تسنّى لمحمود مرسي خلال تلك الفترة القصيرة أن يتقدم بطلب للالتحاق الإذاعة البريطانية، وأن يوقّع العقد معها بعد الموافقة السريعة على تعيينه، وأن يصفّي أشغاله بباريس ويبيع حاجياته، ثم يحصل على تأشيرة دخول إلى بريطانيا وتأشيرة العمل بها.. كلّ ما أعرفه هو أن صديقه القديم وزميلنا بالإذاعة البريطانية، الدكتور محمد زكي العشماوي، أسهم بجهد كبير في سبيل قبول القسم العربي بلندن التحاق محمود به، وأنه مع عمله السابق بالإذاعة الفرنسية لم تكن ثمة حاجة إلى امتحانه للتعرّف على قدراته الإذاعية.

ما مضى ربع ساعة على دخوله مكتبي يوم ٧ أغسطس حتى أدركتُ أني إزاء رجل غير عادي، ثم تأكّد هذا الانطباع عندي خلال الأشهر التالية.. فهو إنسان خشن المظهر، ذو لهجة جافّة في الحديث، جادّ عبوس معظم الوقت. غير أنه ما يضحك لشيء ما حتى يُدهشك من الانفراج المفاجئ في أساريره، وقهقهته العالية الطويلة، أنه لا يزال يتمتّع بطبيعة كطبيعة الأطفال، وسذاجة محبّبة إلى النفس. ثم هو قبل كل شيء آخر إنسان نظيف، على أرفع مستوى من الخُلُق، ومن المثالية واستنكار كلّ ما هو زائف مصطنع.. إن أحبّ أظهر على الفور حبّه، وإن كره قفزت الكراهية واضحة إلى قسمات وجهه.. وقد كان من أغرب ما لاحظتُه فيه أنه رغم خشونته المعتادة، ورغم وسامته واجتذابه بفحولته لأنظار الفتيات في الإذاعة، كان جمّ الحياء، لا يحادث امرأة إلا احمرّ وجهه، لا يدري كيف يعاملها. وهو خَجَل غير مفهوم، كثيراً ما كان مثار تندُّر زملائه.. يتمتع بثقافة رفيعة يندر أن تصادفها في غيره، ولا سبيل مع ذلك لأن يدفعه الزّهو بنفسه إلى إظهارها.. يجيد الفرنسية والإنجليزية والعربية إجادة تامة، ويقرأ في كافة الآداب، ويلمّ الإلمام الواسع لا بميدان تخصّصه فحسب ـ وهو المسرح والسينما ـ بل بسائر الفنون كالموسيقى والرسم والنحت، بالإضافة إلى تمتّعه بوعي سياسي مرهف، وغرام جارف بحب مصر.. وهو مع فنّه منضبط ملتزم، عكس

معظم أهل الفن. ومع ذلك فقد وقع خلال الأيام الأولى من عمله معنا بالإذاعة حادث فريد، اعتبره رئيس القسم بسببه رجلاً لا يمكن الاعتماد على انضباطه:

كان عليه يومها تلاوة نشرة الأخبار. وبعد أن ترجم محمود النشرة بمكتب التحرير في الطابق الرابع، هبط بالمصعد قبل موعد نشرة السادسة مساء بعشر دقائق إلى الطابق تحت الأرض الذي تنتشر فيه استوديوهات الأقسام المختلفة من الإذاعة.. غير أن محمود، وهو حديث العهد بما يصادفه من دهاليز أشبه ببيت جحا، ضلّ طريقه إلى استوديو القسم العربي. وكانت النتيجة أن دقّت الساعة تمام السادسة دون أن يظهر، فأُسقط في يد مذيع الرّبط في الاستوديو، واضطر إلى قراءة التعليق على هامش الأخبار قبل إذاعة الأخبار ذاتها، على أمل أن يصل قارئ النشرة خلال خمس دقائق أو عشر. غير أن قراءة التعليق انتهت ومحمود لم يظهر. فاضطر المذيع إلى التعجيل بإذاعة أغنية يملأ بها فراغ الوقت.. وأخيراً دخل محمود الاستوديو في وقار وهدوء لم تُفلح ورطته في النّيل منهما، إذ ما الداعي إلى الجزع لو أن النشرة لم تُذَع يوماً في موعدها، حتى لو أنها كانت ـ كما ثبت فيما بعد ـ أول وآخر مرة تتأخر فيها إذاعة نشرة إخبارية في تاريخ الإذاعة البريطانية.. وقد كانت النشرة التي قرأها محمود ذلك المساء آخر نشرة قرأها في حياته، إذ شَطَب مديرُ القسم اسمه يومها من قائمة مذيعي الأخبار.

كنتُ أخرج معه أحياناً بعد ساعات العمل، خاصة إلى السينما أو المسرح، أو لتناول العشاء بأحد المطاعم.. ومع تزايد تقديري واحترامي ومودّتي له بمرور الوقت، واستفادتي اليومية من غزير علمه وثقافته، لم أشعر من جهته بإعزاز مقابل، ولا أحسب أنه رآني يوماً أهلاً لمودّة أو لكراهية.. بيد أنه كان يحتمل الحديث معي، وإن كان يمقت صديقتي الإنجليزية ويُظهر لها هذا المقت، رغم محاولاتها المتعدّدة أن تكون لطيفة معه.

أهمّ ما رفع قدره عندي طبيعة صلته بزميلنا الدكتور زكي العشماوي الذي أصبح فيما بعد عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية. فهو صديقه الحميم منذ أيام الصبا.. كانت للعشماوي هذا قامة كقامة العملاق الطويل السمين، وبساطة كبساطة الأطفال. تتكاثر عليه الهموم وتتفاقم المشكلات فلا تراه إلا ضاحكاً من استهداف القدر له، فإن أفصح عن أشجانه فأقصى ما يعبّر به عنها هو الاستشهاد ـ وهو يبتسم ـ بأبيات حزينة من الشعر

الإنجليزي، خاصة قصيدة هاوسمان التي يقول فيها: "إنني غريب وخائف، في عالم ليس من صُنْعي".. قدم إلى إنجلترا بهدف تحسين وضعه المالي. غير أنه لم يتحسن. فهو قد جاء إليها بصحبة امرأته التي كانت قبله زوجةً لعمّه وأنجبت من عمه أربعة أطفال، فلما مات عمه تزوّجها العشماوي لرعايتها ورعاية أطفالها، وأنجب منها ثلاثة أطفال، ثم أتى بالأطفال السبعة إلى لندن يحاول جاهداً الإنفاق عليهم وعلى دراستهم.. وإذ كان الرجل أشبه ـ كما قلت ـ بطفل كبير، قليل الحيلة، أميَل إلى الاستسلام لقَدَره دون مقاومة، فقد تولّى صديقه محمود مرسي بنفسه رعايته ورعاية زوجه وأطفاله، مبدياً شهامة منقطعة النظير، وإرادة حديدية نادرة؛ يُقرضه من ماله، ويشرف على انتقال العائلة وأمتعتها من مسكن إلى مسكن، وعلى دراسة الأطفال في مدارسهم، ويحاول في نفس الوقت أن يسرّي عن صديقه ويدخل البهجة والعزاء إلى قلبه.

غير أن القدر لم يُمهل ثلاثتنا ـ لم يمهل العشماوي حتى يحسّن من وضعه المالي، ولم يمهلني ريثما أكمل استفادتي من الحياة الثقافية في إنجلترا، ولم يمهل محمود حتى يكمل في لندن دراسة الإخراج المسرحي والسينمائي التي بدأها في باريس.. فبعد أقل من ثلاثة أشهر من وصول محمود من فرنسا، وقع العدوان الثلاثي على مصر، فوقع المذيعون المصريون في الإذاعة البريطانية في ورطة وحيرة شديدتين إذ يرون بريطانيا طرفاً في هذا الاعتداء على بلدهم.. كنّا سبعة، مختلفي الطبائع والأعمار والأهداف. ولا أزال إلى اليوم غير قادر على أن أملك نفسي من الابتسام حين أتذكر كيف أن الصحف المصرية في ديسمبر ١٩٥٦ كتبت تحت عناوين مثل: "استقالة المذيعين المصريين من إذاعة لندن"، أو "بعد أسبوعين من التهديد والإغراء الفاشلين، سبعة شبان هدّدتهم بريطانيا بالجوع والتشريد، يقبلون التحدّي وينتصرون على كل تهديد"، تقول ما خلاصته أن المذيعين السبعة بعد شنّ بريطانيا لعدوانها الغاشم على أرض وطنهم، عقدوا فيما بينهم اجتماعاً طويلاً قرروا في نهايته أنه لا يصحّ أبداً أن يتعاونوا مع هيئة بريطانية، فمضوا جميعاً في اليوم التالي إلى المدير الإنجليزي للقسم العربي وقدّموا استقالاتهم.. ثم أضافت الصحف قولها إن ثلاثة من هؤلاء "الأبطال" السبعة، وهم محمود مرسي محمود، وحسين أحمد أمين، ومحمد زكي العشماوي، قد عادوا بالفعل إلى مصر، بينما تأخر الأربعة الباقون ريثما يتمّون تسوية

شؤونهم، وتسديد ديونهم.

أدركتُ إذ أقرأ أخبارنا في الصحف حقيقة أنه ما من شخص يكون مُلمًّا بكافة ظروف ووقائع حدث وقع له، أو لإنسان قريب منه، ثم يقرأ عن هذا الحدث في الصحف، إلا امتعض وسخط، أو ضحك وسخر، من معالجة الصحافة له وجهلها بحقيقة الأمر. وهو مع كل هذا الامتعاض وهذه السخرية يتابع قراءة سائر أخبار الصحيفة التي لا علم له بتفاصيلها وحقيقتها، فيصدّقها ويقبلها! بل إنه حتى لو أَحْسَنَّا الظنّ بأمانة الصحيفة وموضوعيتها في نقل الأخبار، فهي عادة ما تعجز عن الإتيان بغير الحقائق الميّتة ضئيلة القيمة عن الموضوع، دون ما جَري منها وراء الستار... فأما ما وراء الستار في قصة المذيعين السبعة فهو أن ثلاثة منهم استمروا في عملهم بالإذاعة البريطانية، بينما فضّل الرابع الالتحاق بإذاعة تونس على العودة إلى مصر، بل وأن موقف كلٍّ من هؤلاء السبعة ــ حتى الثلاثة الذين استقالوا ورجعوا إلى القاهرة ــ كان مختلفاً عن مواقف الآخرين، بحيث شكّلوا بمواقفهم هذه ما هو أشبه بقوس قزح بألوانه المختلفة السبعة، وبحيث يستحيل إطلاق صفة "البطل" التي أطلقتها الصحف علينا جُزافاً، إلا ربما على محمود مرسي.

اتّصل بعضنا ببعض عقب هجوم القوات البريطانية والفرنسية على مصر، واتفقنا على الاجتماع عصر الاثنين ١٩ نوفمبر بصالة الشاي في فندق "ستراند بالاس" لنقرر الموقف الذي سنتخّذه، خاصة بعد أن بعثت إلينا الإذاعة بخطابات تذكّرنا فيها بأن عقود عملنا تنصّ على ضرورة استمرار خدمتنا مدة ستة أشهر تلي تقديم الاستقالة، وإلاّ حُرمنا من مكافآتنا أو معاشاتنا، وكان علينا العودة إلى وطننا على نفقتنا نحن لا نفقة الإذاعة.

كان أكبرنا سنًّا محسن فهمي... كان في الماضي مدرساً للغة الإنجليزية في مصر، ثم حصل من إحدى جامعات الولايات المتحدة على درجة ماجستير في الأدب الإنجليزي، وعُيّن بعدها وكيلاً للمكتب المصري للبعثات في لندن.. استدعته حكومة الثورة إلى مصر بعد الإطاحة بالملك فاروق، وحقّقت معه بشأن بعض مواقفه وتصرفاته، ثم فصلته من عمله، فعاد إلى إنجلترا والتحق مذيعاً بالإذاعة البريطانية وقد امتلأ قلبه مرارة وحقداً على جمال عبد الناصر، والثورة، ومصر بأسرها.. وكان طبيعياً أن يستقبل محسن خبر العدوان الثلاثي

على مصر بالفرح والغبطة إذ ارتآه يبشّر باحتمال الإطاحة بحكومة الثورة، واحتمال إعادته بالتالي إلى مكانته السابقة.. وإذ كان هو البادئ بافتتاح اجتماعنا في صالة الشاي، فقد استهلّ حديثه بقوله إنه لا يرى في الحقيقة أيّ داع لتقديم الاستقالة، خاصة أنه لا مفرّ من أن يُعلَن قريباً عن وقف إطلاق النار، فيتحسّن الوضع، وقد يُسفر الأمر عن تخليص مصر من حكم عبد الناصر وأعوانه، فيكون مصداقاً لقول الله عزّ وجلّ (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم).

قال محمود مرسي وهو يحاول محاولة ضعيفة إخفاء اشمئزازه:

ـ واضح إن حضرتك من أنصار العهد البائد.

أجاب محسن فهمي: لا يا أستاذ. أنا لا أزعم أن فاروقاً كان ملكاً ممتازاً.. كان سيّئاً ولصًّا وسكّيراً ومقامراً وكل ما تصفونه به.. لكني أريد أن أسألك: حين كان يسكر، كم كان ينفق على الشراب؟ حين كان يقامر، كم كان يخسر في الميسر؟ عشرين ألف جنيه؟ ثلاثين ألف جنيه؟ تفرّج اليوم على اقتصاد مصر في عهد الشرفاء الذين لا يسرقون ولا يسكرون ولا يلعبون الميسر.. لم يعد باستطاعتنا بيع القطن، وما من دولة مستعدة لأن تأتمننا أو ترسل رءوس أموال إلينا بعد قرارات التأميم. لكن شعبنا يقول لا! فاروق خسر بالأمس في الدوڤيل خمسمائة جنيه.. يا للعار! يالّلأموال الضائعة! وحين يتقلّد الأمور رجلٌ لا يلعب الميسر لكنه يهدم اقتصاد مصر كله، يقول شعبنا: معلهش.. أليس كذلك؟

ردّ محمود في هدوء: إسمح لي أن أقول لك إنك امرؤ لا يهمّك غير نفسك وغير مشكلتك مع النظام.

صاح محسن في حرارة: معلهش.. أنا كده.. أنا محسن محمود عبد الرحمن فهمي كده.. قد بَلَغَتْ الآن كراهيتي لجمال عبد الناصر درجة أنه لو أطيح به اليوم، أكونه على استعداد لأن أموت غداً وقد ارتاحت نفسي بشماتتها فيه.. فكيف لا أفرح إذن بما حدث؟ إسمح لي أن أسألك يا أستاذ محمود: هل أخرجوك في تطهير؟ هل فصلوك من وظيفتك كما فصلوني واضطروني إلى أن أعمل هنا في الإذاعة مع صبية في سن تلاميذي الذين كنت أدرّس لهم اللغة الإنجليزية، وبمرتب يماثل مرتّبهم؟

قال محمود: والمصريون الذي يُقتلون الآن في المعركة؟ ألا يهمّك أمرهم؟ والزوجة

المصرية حين يموت زوجها في الحرب دون أن يترك لها ولأولادهما قرشاً، ألن يصيبها من الضرر أضعاف ما أصابك أنت بخروجك في التطهير؟

محسن: أأنا الذي ألحقت بها الضرر، أم هو جمال عبد الناصر الذي جرّ علينا كلّ هذا الخراب؟

محمود: بل أنت يا أستاذ محسن.. أنت وكلّ من يفكر مثلك.

تدخّل أحدنا على الفور، وهو كمال الزيادي، لتهدئة الجو وفض الاشتباك. قال ضاحكاً:

ـ الحقيقة يا أستاذ محمود أن الموضوع ليس بمثل هذه البساطة التي تصوّره بها.. الموضوع ليس مجرّد أن إنجلترا تعتدي على بلدي فيصبح من واجبي أن أستقيل من المؤسسة البريطانية التي أعمل بها.. ثمة اعتبارات أخرى كثيرة عند كل فرد منّا. خذني مثلاً.. أبي مدرس بالأزهر، وأمي فلاحة مسكينة، والعائلة لا تكاد تجد ما يكفيها من القوت.. تخرّجتُ في قسم الفلسفة بكلية الآداب، ففكرت على الفور في أن أبحث عن وظيفة خارج مصر يكون مرتبها كافياً لتغطية احتياجاتي ومساعدة عائلتي في الوقت نفسه. لم أجد غير وظيفة مدرس فلسفة في مدرسة ثانوية بالخرطوم مرتبها خمسة وثلاثون جنيهاً في الشهر. سافرت إلى السودان والتحقت بها. وإذ دخلت الفصل في أول أيام العمل، إذا بالطلبة وفيهم من هو في سن أبي، ومنهم من طوله ضعف طولي، ومنهم من يكاد شاربه يلامس كتف جاره.. أصارحكم القول بأني شعرت بالخوف.. قبل أن أضع دفتري على الدرج، قام تلميذ طويل القامة في مؤخرة الفصل: تسمح؟ تسمح يا بيه؟ أنا عندي سؤال في الفلسفة. قلت له: وهل بدأنا الحديث حتى تتوجّه بالسؤال؟ قال: معلهش يا بيه. قلت: فاسأل إذن. قال: أصحيح يابيه أن سقراط كان عِنّيناً لا رغبة له في النساء؟ انفجر التلاميذ بالضحك. قلت: اطلع برّه! قال: ليه بسّ يا بيه؟ أقلت شيئاً لا يصح قوله؟ اطلع بره، موش طالع، اطلع موش طالع، ناديت له الناظر ففصله مدة أسبوع. في اليوم التالي كان في انتظاري هو وستة من أصحابه أمام بيتي وانهالوا عليّ ضرباً.. توجّهت إلى المدرسة وقدّمت استقالتي، ثم عدت إلى مصر أبحث عن عمل ولا عمل. تقدّمت لامتحان الإذاعة البريطانية ونجحت، وعُيّنت بمرتب هو مائة وخمسة وثلاثون جنيهاً استرلينياً، أُرسل نصفَه إلى أهلي يتعيّشون منه. شيء لم أكن أحلم به في حياتي.. والآن يطالبني الأستاذ محمود مرسي بكل بساطة أن

أستقيل وأعود إلى مصر! هو واجب وطنيّ نعم. ولكني أناشدكم الله: أعود إلى بلدي فأصنع ماذا؟ أعود إلى الفاقة والغمّ وما كنت فيه من ضائقة؟ لو أني عدت إلى مصر ووجدت عملاً لكان مرتبي خمسة عشر جنيهاً أو عشرين على الأكثر، حيث أنه ليست هناك مدة خدمة سابقة لي في الحكومة المصرية. وأنا رجل متزوج وأساعد أبي وأمي وأخوتي في نفس الوقت.. لكني على أيّ الأحوال سأفعل ما أنتم فاعلون. إن قررتم الاستقالة سأستقيل معكم. لا أريد أن تكتب الصحف المصرية عنّي إن أنا بقيتُ في الإذاعة أني خائن، فأُحرق مراكبي مع مصر، ولا أتمكن في المستقبل من العودة إليها.

قال محمود مرسي: ليس المهمّ ما ستكتبه الصحف. المهم هو أن كلّ واحد منّا مطالب بأن يؤدي الواجب كما تعارف عليه الناس. وواجبك الآن أن تعود إلى مصر.

صاح فيه محسن فهمي: كيف يكون هذا واجبه والحكومة المصرية لم تأبه به ولن تأبه به في أيّ وقت من الأوقات؟ بالعكس، واجبه أن يخفّف من العبء على عاتق البلد بأن يبحث عن عمل له في الخارج. أتظنّ الحكومة المصرية ستسعد وتفرح بعودته؟ صحيح أنها ستقول له شكراً أيها الفتى الوطني والمواطن الصالح. غير أنها في قرارة نفسها ستقول له: تركت وظيفتك أيها الأبله وعدت إلى مصر تزاحم خريجي الجامعات ممن لا يجدون لأنفسهم عملاً؟ مصر الآن في حاجة إلى أن يهزّ أبناؤها مؤخّراتهم وأن يهاجروا، لا إلى من لديه عمل مجز في الخارج فيتركه ويعود.

محمود مرسي: أيّ نوع من العمل يا أستاذ محسن؟ أن تذيع على المصريين بيانات تنصحهم فيها أن يستسلموا أو أن يبتعدوا عن القواعد العسكرية في بلدهم حتى يسنّى للإنجليز أن يضربوها؟ أهذا هو العمل الذي تريد مصر أبناءها أن يهاجروا ليلتحقوا به؟

محسن فهمي: أنت تتكلم عن إذاعة الشرق الأدنى في قبرص لا إذاعة لندن.

محمود مرسي: وإذاعة لندن أيضاً.

محسن: إذاعة لندن محايدة ومستقلة تماماً عن الحكومة البريطانية: ماليًا وسياسيًا.

محمود: كده كده؟ وحين يأتينا دودز باركر وكيل وزارة الخارجية يفتّش ويوبّخ رئيس القسم، وحين يتوجّه رئيس القسم مرّتين في الأسبوع إلى وزارة الخارجية لتلقّي تعليماتها،

على أيّ أساس يتلقّاها إن كانت الإذاعة مستقلّة ومحايدة؟

كمال الزيادي: بالتأكيد أن الإذاعة ستبرّر هجوم بريطانيا على مصر.

محمود مرسي: وفي هذه الحالة، إن حدث وقُتل أخ لي في هذه الحرب، أأذيع على والدتي أن قتْله كان في سبيل غرض نبيل هو حفظ السلام في الشرق الأوسط؟

محسن فهمي: وحضرتك تظن أن الإذاعة البريطانية ستتوقّف عن الإرسال باستقالتك؟

محمود مرسي: تتوقّف أو لا تتوقّف أمر لا يهمّني. ما يهمّني هو ألا يتوقّف احترامي لنفسي.

قال محسن فهمي بحدّة: وهو كذلك. هذا ما انتهيتَ إليه فيما بينك وبين نفسك.. اترك إذن غيرك يفكر هو أيضاً لنفسه ولا تحاول التأثير في قراره.

محمود: اسمع يا أستاذ محسن. حرام عليك أن تضيّع على الآخرين فرصة العودة إلى مصر لمجرد أنك غير راغب، أو تعتبره أمراً مستحيلاً، أن تعود إلى مصر في يوم من الأيام.

محسن: ماذا تقصد باستحالة عودتي إلى مصر؟

محمود: أنت فاهم وأنا فاهم.

محسن: لأ موش فاهم.. أنا لي أمّ في مصر أحبّها كما تحبّ والدتك، وفي حاجة إليّ أكبر من حاجة أمك إليك. ومع ذلك فلن أعود إلى مصر حتى يقوم بها نظام يسمح للابن أن يرى أمّه.

تدّخلتُ بدوري عند هذه النقطة لفكّ الاشتباك بين الرجلين، قائلاً:

ــ الحقيقة يا جماعة هي أننا نحن السبعة لم نمرّ في حياتنا بموقف معقّد كذلك الذي نمرّ به اليوم.. ما يزيده تعقيداً هو أن لنا مطلق الحرية في الاختيار، وأنه ظاهر البساطة يمكن لأيّ امرئ خارج الموقف أن يجيب فيقول: "هناك اعتداء على مصر.. بريطانيا هي المعتدية.. إذن فمن واجبنا الأخلاقي كمصريين أن نستقيل من الإذاعة البريطانية".

محسن فهمي: وماذا عن واجبكم الأخلاقي الخاص بتنفيذ شروط العقد؟

ــ تقصد الاستمرار في العمل ستة أشهر بعد الاستقالة؟

ــ أليس هذا هو أيضاً واجباً أخلاقياً؟

قلت: واجب أخلاقي يجُبُّه واجب أخلاقي أكبر ـ غير أن هذه ليست هي المشكلة.. المشكلة هي أن هذه ربما تكون المرة الأولى في حياتنا التي نواجه فيها مباشرة أهمّ سؤال يمكن أن نسأله لأنفسنا. وهو: ماذا نريد؟ ماذا أريد؟ أريد أن أعيش عيشة هينئة؟ أن آكل وجبات شهية؟ أن أرتدي أفخر الثياب؟ أن أتردّد كثيراً على المسرح؟ أن أشتري الكتب التي أحتاج إليها؟ أن أضاجع صديقة لي مرتين في الأسبوع؟ أم أن ثمة شيئاً يسمّى الواجب نحو الوطن؟ وهذا الوطن، ما هو؟ البلد الذي تعيش فيه سعيداً قرير العين وتحقّق فيه ذاتك، أم ذلك الذي ولدتَ فيه، وفيه عائلتك وشعبه يتكلّم لغتك، حتى لو لم تكن مرتاحاً فيه؟ وما هو مدى واجبي نحو هذا الوطن؟ هل هذا الواجب قائم حتى لو لم تكن الحكومة فيه تؤدي واجبها نحوي؟ كل هذا إلى جانب سؤال آخر: هل ستفيد استقالتي بلدي أكثر مما ستضرّ بي أنا بحيث أقبل أن أضحي بنفسي عن طيب خاطر؟

محسن فهمي: تريد رأيي المخلص؟ رأيي أن الأشخاص الذين لا يحترفون السياسة لا ينبغي لهم أن يتخذوا قرارات تحت تأثير السياسة تؤثر في حياتهم. انظر إلى الموضوع في المدى البعيد: كانت مصر وإنجلترا تتقاتلان عند قناة السويس في أوائل عام ١٩٥٢.. طلبة مصريون رأوا من واجبهم أن يتطوّعوا لمحاربة الإنجليز، ثم قُتل بعضُهم.. حدث بعد ذلك أن إنجلترا ومصر وقعتا عام ١٩٥٤ اتفاقية صداقة وأصبحتا حليفتين حميمتين، بينما انهالت الصحف والإذاعة المصرية بالثناء على إنجلترا. فأين إذن صار موقع من قُتل من الطلبة؟ يمكنك أن تجيب بقولك إن العلاقات تحسّنت على نحو مفيد لمصر بفضل من قُتل عند القناة؟ غير أني أريدك أن تنظر إلى الموضوع من وجهة نظر عائلة طالب قتيل. كيف سيكون شعور هذه الأسرة بعد سنة أو سنتين من موت ابنهم على يد الإنجليز حين تتصالح مصر مع العدو؟ نفس الشيء يمكن أن يحدث لك اليوم.. تترك وظيفتك هنا دون أن تكون في مصر وظيفة في انتظارك، ثم ترى الدولتين بعد شهرين أو ثلاثة وقد تصالحتا. لن يكون بمقدورك وقتها أن تقول للناس إنك ضحيّت في سبيل مصر وتنتظر أن يتعاطفوا معك.. ثم اسمح لي أن أسألك: ألم تذهب صباح اليوم إلى السفارة المصرية هنا في لندن تسألها عن رأيها في الموضوع؟

قلت في ثورة: هذه هي المصيبة! المصيبة هي أنه ما من أحد هناك على استعداد لأن

ينصحنا بشيء أو أن يصدر التعليمات إلينا.. تركوا الأمر لنا.. فلا الإذاعة البريطانية طردتنا من خدمتها باعتبارنا من رعايا الأعداء (بالعكس إنها تدلّلنا حتى نختار البقاء، وأعطتنا إجازة لمدة شهر مدفوعة المرتب حتى نصل إلى قرار)، ولا السفارة المصرية تأمرنا بالاستقالة والعودة إلى مصر!

محسن فهمي: أتدري لم؟ لأن السفارة تخشى أن تطالبوها بثمن تذاكر العودة، ولأن الحكومة المصرية ليست على استعداد لأن تتحمل مسئولية توفير وظائف لكم لو أنها نصحتكم بترك وظائفكم هنا.. أنا لا أقول لك هذا الكلام لأقنعك بالبقاء في إنجلترا. غير أني أريدك أن تسأل نفسك: في أيّ البلدين ستكون أسعد حالاً؟ في أيّ البلدين ترى أن استفادتك من الحياة أكبر؟ ثم تقرّر لنفسك بعد ذلك، دون أن تدع محمود مرسي يقرّر نيابة عنك.

قلت: طبعاً أنا أسعد حالاً هنا، وأستفيد من الحياة هنا استفادة أكبر.

محسن: يبقى خلاص.

صاح محمود مرسي: خلاص إزّاي؟ أنا أفهم حسين أمين جيداً، وأعرف أن أهمّ ما يشغله هو المسرح والأدب. غير أني أريد أن أسألك يا حسين: أتريد أن تحترف الأدب؟ فإن أنت بقيت في إنجلترا، فعن أي شيء ستكتب؟ ستكتب عن ذكرياتك القديمة عن مصر بينما تتغيّر مصر يوماً بعد يوم، وتتغير عقلية شعبها ومشاغله وحياته الاجتماعية عاماً بعد عام؟ أم أنك ستحذو حذو إيڤان بونين الذي ترك روسيا بعد الثورة وأقام في باريس يكتب عن كيف تعرّف على خادمة بالمطعم الروسي في باريس وأخذها إلى شقته ليضاجعها؟ أم أنك ستكتب عن مشاكل الشعب الإنجليزي؟ تأكد أنك لو بقيت هنا خمسين عاماً ما استطعت أن تفهم هذا الشعب فَهْمَ شخصٍ عاديّ منهم له.. ثم إن مادة الأديب نفسها هي بكل تأكيد أوفر في مصر منها في إنجلترا.. مصر مليئة بالمتناقضات التي يمكنك الحديث عنها إلى الصباح.. أمّا هنا، فعمّ ستتحدث؟ عن إنجليزي يجلس في مواجهتك في القطار مدة ثلاث ساعات دون أن ينطق بكلمة وهو يمصّ غليونه، فإن حادثك حادثك عن الجو والكريكيت؟ قارن هذا بمصر. ما من مرة تركب فيها قطاراً أو حافلة عامة في مصر إلا نزلتَ بفكرة قصة قصيرة، إن لم تكن رواية.. أنا أعلم أنك سعيد هنا؛ سعيد بالمسرح والسينما والمكتبات والمتاحف والمعارض والمجلات والصحف التي لن تجد مثيلاً لها في مصر. غير أني

أسألك: لو أنك قرّرت البقاء هنا، فكم تتوقّع أن تدوم سعادتك بهذا كله؟ أراهنك أن كلّ لذّة كنت تجدها في المسرح والموسيقى والفن والسينما ستتبخّر بعد سماعك عن الآلاف التي قتلها الإنجليز في بورسعيد.. مجرّد اتّخاذك قرار البقاء هنا بعد كل ما حدث سيُفقدك نفس الشيء الذي يجعل المرء يستمتع بالمسرح والموسيقى والسينما إلى آخره.. لقد قرأتُ مرة قصيدة لبيرتولت بريخت يقول فيها ما معناه: "ولن أرتكب هذه الجريمة لأني لا أزال راغباً في أن أسمع الموسيقى في خرير الماء، وغناء الطير، وحفيف أوراق الشجر".. وهذا بالضبط هو ما سيحدث لك لو أنك قررت البقاء.. امض إلى دارك الآن وفكّر في هذا الكلام قبل أن تنام، فإن وصلت إلى قرار فتمسّك به مهما كان.. إني أريد مصلحتك، لأن هذا التردّد سيؤذي صحتك ويؤذي أعصابك، ولأن أيّ طريق تختاره هو خير من الحالة التي أراك عليها الآن...

***

في يوم ٢ ديسمبر ١٩٥٦، عدتُ بالطائرة من إنجلترا مع محمود مرسي ومحمد زكي العشماوي. وافترقنا بمطار القاهرة ليمضي كلٌ منا في حال سبيله.. فأما العشماوي ـ ولا أذكر أني قابلتُه بعد ذلك اليوم ولا وصلني من أخباره غير خبر وفاته عام ٢٠٠٥ ـ فقد عاد إلى عمله السابق بكلية الآداب.. وأما عني فقد قصدتُ فتحي رضوان ـ وزير الإرشاد القومي في ذلك الحين ـ فاتّصل بيحيى حقي مدير مصلحة الفنون يرجوه إسناد مركز لي فيها، فعينني في إدارة المسرح مع سعد أردش.. وأما محمود مرسي فقد عُيّن مذيعاً ومخرجاً للتمثيليات بالبرنامج الثاني (الثقافي) من الإذاعة المصرية.. وقد التقينا بعد ذلك مرتين أو ثلاث مرات خلال الأشهر القليلة التالية، فأنبأني ضاحكاً عن محاولاته البحث عن دور له في فيلم مصري، وكيف أن أفضل عرض تلقّاه جاء من حسين صدقي منتج ومخرج وبطل فيلم "خالد بن الوليد"، وهو أن يتلو محمود في الفيلم بضع آيات قرآنية بصوته الجهوري، ودون أن تظهر صورته، مقابل خمسة جنيهات! وقد رفض محمود مرسي ذلك العرض، وظل مدّة وهو يحسب أن باب التمثيل مغلق دونه، حتى فُتح الباب فجأة على مصراعيه، فأضحى من المعالم البارزة في السينما المصرية، ثم في المسلسلات

التيليفزيونية الجادّة، يتمتّع باحترام الكافة، وينأى بنفسه عما يتهافت زملاؤه عليه من ضروب الدعاية لأنفسهم، كإجراء الأحاديث الصحفية والإذاعية والتيليفزيونية، ومدّ وسائل الإعلام بصوره وأخباره الخاصة.. الحديث الصحفي الوحيد الذي قرأته له كان مع مجلة "الإذاعة" تحت عنوان: "أسعد زوجين في مصر"، وفي صدره صورة كبيرة له مع سميحة أيّوب وهي تقدّم له فنجاناً من القهوة.. ثم كان أن طلّقها بعد ثلاثة أسابيع من نشر الحديث.

مراد غالب

حين توجّهتُ إلى موسكو في ٢ أغسطس ١٩٦٣ للعمل سكرتيراً ثالثاً بالسفارة المصرية تحت رئاسة السفير مراد غالب، لم أكن قد التقيت به من قبل. غير أني كنت أعرف أنه الطالب بكلية الطب في جامعة الإسكندرية الذي اختبأ عنده لبعض الوقت عزيز المصري وحسين ذو الفقار صبري بعد أن هَوَت بهما عند قليوب طائرةٌ استقلاّها للفرار بها إلى القوات الألمانية الزاحفة تجاه العلمين بقيادة إروين روميل. وكنت أعلم أنه عمل مديراً لمكتب الرئيس جمال عبد الناصر للشؤون السياسية قبل تعيينه سفيراً في الكونغو إبّان حربها الأهلية. كما أخبرني البعض أنه يؤمن بالماركسية اللينينية ولكن في سعة صدر، وأنه هو الذي حبَّب إلى عبد الناصر القراءة، وأن عبد الناصر كان يعهد إليه بتلخيص الكتب الأجنبية التي يهمّه الاطلاع على مضمونها دون أن يكون لديه متّسع من الوقت لقراءتها.

قابلتُه في مكتبه بالسفارة لأول مرة في اليوم التالي لوصولي.. كان وقتها في الحادية والأربعين من العمر، طويلاً وسيماً أنيقًا بشوشاً، دائم الابتسام كثير الضحك، موفور الصحة.. أخبرني أنه سمع من وكيل الوزارة محمد حافظ إسماعيل أن تعييني بالسفارة في موسكو كان بناء على طلبي، وسألني عن سبب هذا الاختيار. أجبته بأنني كنت منذ سن الرابعة عشرة مغرماً بالأدب الروسي، قد قرأت معظم المؤلفات فيه، وأن هذا الغرام دفعني إلى التعمق في دراسة تاريخ روسيا، ثم الماركسية والنظام الشيوعي، فرأيتُ أن السفارة في موسكو ربما كانت أنسب مكان لعملي فيه... تأملني صامتاً بعض الوقت، ثم شرع في استجوابي للتأكّد من صدق ما أقول، وسألني عما إذا كنت قد قرأت روايات ليسكوف وجونشاروف وبيسمسكي وسالتيكوف ششدرين. فلما أجبتُه بالإيجاب سألني عن أسماء تلك

الروايات. فلما أجبته سألني عن أحداث بعضها وشخصياتها. فلما أجبته تحوّل إلى سؤالي عن الماركسية والنظام الشيوعي، وعما إذا كنت قد قرأت كتاب ليونارد شابيرو عن الحزب الشيوعي السوفييتي.. ثم عاد يتأملني صامتاً نحو دقيقتين، قال بعدهما:

ـ ستتولّى قسم الشؤون الداخلية للاتحاد السوفييتي، وأريد منك علاوة على ذلك تقريراً كلّ شهر عن الجديد في الحياة الثقافية هنا.

ـ أخبرني السيد الوزير المفوض منذ ساعة أنه يريدني أن أتولى الشؤون القنصلية.

ـ أراهنك أنه لم يقرأ حرفاً لسالتيكوف ششدرين، أو حتى سمع عنه! لا يا سيدي.. مثلُك لم يُؤتَ به إلى موسكو لإصدار التأشيرات وتجديد الجوازات.

وكان هذا اللقاء الأول فاتحة علاقة عمل دامت أكثر من أربع سنوات، سرعان ما تطوّرت إلى صداقة نابعة من إعجاب متبادل، واحترام عميق.

كنت دائماً أشبّهه بأمراء عصر النهضة في إيطاليا من أمثال لورنزو دو ميديتشي.. فاهتماماته لا يحدّها حدّ.. هو طبيب وسياسي وسفير.. رياضي من الطراز الأول، يهوى السباحة والغوص في أعماق البحار، وكثيراً ما يصطحبه أصدقاؤه من القادة السوفييت (كانوا ينادونه بالرفيق مُراديان) إلى خارج موسكو لصيد البطّ والأسماك.. يهوى الموسيقى الكلاسيكية والقراءة في مختلف فروع المعرفة، خاصة السياسة والأدب والدين والتاريخ. وهو صديق لعدد ضخم من الأدباء والموسيقيين والرسّامين البارزين السوفييت، من الموالين للنظام أو المنشقّين من أمثال الفنان جلازونوف الذي رسم صورة رائعة لزوجته الحسناء. وبوسعي القول إنه بالرغم من أن الفارق في السن بيني وبينه لم يكن بأكثر من عشر سنوات، فقد أخذ على عاتقه منذ بداية عملي معه أن يتبنّاني، وأن يوجّهني ويشرف على أدائي، فكان يعرّفني بأصدقاء له مثل الموسيقيّ الأرمنّي الشهير أرام خاتشاتوريان، ويدعوني للعشاء عنده للقاء الشاعر يفجيني يفتوشنكو، فإن دُعي لقضاء اليوم كله في المسكن الريفي للروائي يوري نَجيبين وزوجته الشاعرة التترية بيلا أخمادولينا، اصطحبني وزوجتي دون استئذان من الداعي.. وإن تعذّر عليّ الحصول على تذاكر لحفلات موسيقية يعزف فيها ريختر أو أويستراخ طلب التذاكر لنفسه من وزارة الخارجية وأعطاني إيّاها.. وهو يبعث بي في زيارات لبعض مزارع الدولة والمزارع الجماعية لكتابة بحث عن نظم

العمل بها، وينصحني بزيارة الجمهوريات الإسلامية السوفييتية لدراسة وضع المسلمين فيها. فإن فكّرتْ وزارة الخارجية المصرية في إنشاء معهد للدراسات الدبلوماسية لتدريب الملحقين الجدد، منحني إجازة من العمل في السفارة للطواف بالمعاهد السوفييتية لتدريب أعضاء السلك الدبلوماسي والسلك القنصلي والسلك التجاري، حتى أكتب إلى الوزارة بالقاهرة تقريراً عن إمكان الاستفادة من نظم الدراسة فيها.

ولا زلت أذكر يوماً استدعاني فيه إلى مكتبه ليقول:

ـ أعلم أنك مهتم بالدراسات الإسلامية، وأريدك أن تقرأ مؤلفات المصلح الديني السوفييتي عبد الرعوف فطرة الذي أعْدَمَه ستالين حوالي عام ١٩٣٧، والذي كانت دعوتُه إلى تجديد الفكر الديني في الإسلام وإصلاح نظام التعليم شديدة الشبه بدعوة الشيخ محمد عبده عندنا... كيف لغتك الروسية الآن؟

ـ لا بأس.

فناولني مجموعة مغلّفة من الكتب على مكتبه قائلاً: فاقرأ هذه.

وكانت المجموعة من خمسة كتب لعبد الرعوف فطرة، هي: "المناظرة" و"العائلة" و"السائحة" و"النجاة" و"البيانات"، كان لها فيما بعد أعمق الأثر في فكري الإسلامي.

كان دائماً هادئ الأعصاب، رَزيناً متماسكاً، حتى ليكاد البعض يتّهمه بالخلوّ من العواطف. وما كان ليصطدم بأحد أو يعادي أحداً، وكثيراً ما كان يذكر في هذا المضمار المثل الروسي القائل: "سواءً ارتطم الحجر بالكأس الزجاجي، أو الكأس بالحجر، فالكأس هو الذي سينكسر". ولا أذكر أني رأيته غاضباً طوال السنوات الأربع التي عملتُ خلالها معه إلا مرة واحدة، هي حين استدعى كافة أعضاء السفارة من دبلوماسيين وإداريين للاجتماع به في مكتبه، ثم ذكر لهم بصوت يرتعش من الانفعال أن السلطات السوفييتية أخبرته أن الكثيرين من أعضاء السفارة المصرية يقضون أمسيات الجمعة في النادي الترفيهي التابع للسفارة الأمريكية لمشاهدة أفلام أمريكية، ولعب "البينجو" وشُرب الكوكاكولا، وقزقزة المكسرات، وأعطته تلك السلطات قائمة بأرقام اللوحات المعدنية للسيارات الأكثر تردّداً على ذلك النادي.

قال مراد غالب:

ـ أن ترسلكم بلادكم للخدمة في دولة من أكبر وأهم دول العالم، وأعرقها تاريخاً وحضارة، وأخصبها فنوناً وثقافة، كي تدرسوا كافة جوانب الحياة فيها، وتتذوّقوا مما تقدّمه من ثمرات فنونها وعلومها، ثم تديرون ظهوركم لكل هذا في استخفاف، وترفضون بكل وقاحة ما يقدّمه المضيف لكم من خيرات داره، كي تواصلوا مشاهدة ما اعتدتم مشاهدته في مصر من أفلام أمريكية هابطة، هي أمور عندي غير مقبولة لأنها بمثابة صفعة وإهانة للدولة المضيفة.. إن بلغني بعد اليوم أن أحدكم زار النادي الأمريكي الذي لا يقصده غير السعاة والفراشين وحراس الأمن بالسفارة الأمريكية بينما يتردّد دبلوماسيوها على مسرحَيْ البولشوي والكريملين، وعلى دور السينما والمتاحف والمعارض الروسية، تاركين ناديهم لكم ولسائر الغوغاء، فسأطلب من الوزارة نقله على الفور إلى القاهرة.

كانت هذه هي المرّة الوحيدة التي تدخّل فيها مراد غالب في الحياة الخاصة لمرءوسيه.. بل إنه حتى في مجال العمل بالسفارة ما كان ليتدخّل قط إن هو لمس من أحد الدبلوماسيين ضعفاً في الإنتاج واستهتاراً بالعمل.. أجاب أمامي على شكوى الوزير المفوض من أن ملحق السفارة لا يكتب التقارير السياسية قطّ بقوله:

ـ يقول المثل الروسي: "بوسعك أن تُرغم حصانك على الوصول إلى الماء. غير أنه لن يكون بإمكانك أبداً أن تُرغمه على الشرب منه"! أتظنه لو أنني وبّخته وأجبرتُه على كتابة التقارير، سيأتي بشيء ذي قيمة؟ لا قيمة إلا لمن كان عمله طواعية وعن رغبة حقيقية في الإنتاج، كما في حالة محمد شفيق مثلاً، وحسين أمين.

كان محمد شفيق هذا سكرتيراً ثانياً بالسفارة، غزير العلم، فاضل الخلق، جادّ الإقبال على تعلّم اللغة الروسية، مقرّباً من السفير، وإن كان غرامه بالقراءة في الفلسفة جعل من الصعب على الكثيرين فَهْم أفكاره ولغته.. أذكر مرة أنه كتب مذكرة ضافية يشرح فيها ما كانت تُعرف وقتها بوصيّة تولياتي (زعيم الحزب الشيوعي الإيطالي). وإذ كان من السهل علينا جميعاً فهم الوصيّة ذاتها في حين جاء الشرح الذي كتبه شفيق بالغ الصعوبة، فقد اقترح الوزير المفوض على السفير مراد غالب أن يكتب في خطابه إلى وزارة الخارجية: "أتشرّف بأن أبعث رفق هذا بالمذكرة التي أعدّها السيد السكرتير الثاني محمد شفيق، مع شرح تولياتي لها"!! كذلك كان أعضاء السفارة متى رأوا مراد غالب في الحفلات الخاصة

وقد جلس محمد شفيق إلى يمينه وجلستُ إلى يساره، يتهامسون ضاحكين: "ها هو قد جلس كالعادة بين أبي بكر وعمر"!

كان من دأب مراد غالب صباح كلّ يوم اثنين أن يستدعيني ومحمد شفيق فيناول كلاً منّا كتاباً من كتبٍ تكون قد وصلته من مكتبة "كلود جيل" في لندن، ويطلب منا أن نقرأهما خلال الأسبوع وأن نلخصّهما له شفاهةً صباح الاثنين التالي، (تماماً كما كان يفعل جمال عبد الناصر معه). وأذكر مرة زارنا فيها بالسفارة الكاتب الأديب مرسي سعد الدين. وإذ وجد على مكتبي كتاباً بالإنجليزية عن "السكون والحركة في الفن المصري القديم"، صاح في دهشة:

ــ أيّ كتب هذه التي تقرأها يا حسين؟

فلما أخبرته أني لا أقرأها لنفسي وإنما بناء على تكليف من السفير، شأنه كلّ يوم اثنين، تعاظمت دهشته، وجعل يخبط كفاً بكف ويقول:

ــ كم يا تُرى من سفرائنا في الخارج يصنع هذا؟!

كان غالباً ما يستجيب لرجاءات السلطات في موسكو حرصاً منه على علاقات مصر الحيوية والودية بالاتحاد السوفييتي.. ومما أذكره في هذا الصدد أن السلطات أخطرته مرة أن ملحق السفارة الذي دأب ــ لدهشتنا الشديدة ــ على قضاء عطلات نهاية الأسبوع في سويسرا، يطوف بجهات مشبوهة في موسكو لشراء الأيقونات الثمينة والتحف الروسية القديمة، ثم يسافر بها إلى جنيف لبيعها بأسعار باهظة، وأنه بتفتيش شقته في غيابه تبيّن أنه يحتفظ فيها بمبلغ ثلاثة ملايين روبل نقداً، ولوحتين أصليتين من لوحات بيكاسو!! وكان أن استدعاه مراد غالب، وناوله في هدوء مظروفاً مختوماً بالشمع الأحمر كتب عليه: "سرّي للغاية ولا يُفتح إلا بمعرفة السيد وزير الخارجية". وطلب منه أن يستقلّ الطائرة المصرية المسافرة إلى القاهرة في اليوم التالي لتسليم تلك الرسالة بالغة الأهمية إلى الوزير، ثم يعود إلى موسكو في طائرة يوم الجمعة.. وقد سعد الملحق بتكليفه بهذه المهمّة السرية، ولم يأخذ معه في رحلته إلى مصر أكثر مما سيحتاج إليه من ملابس خلال ثلاثة أيام أو أربعة. فلما استقبله وزير الخارجية وقرأ أمامه رسالة مراد غالب إليه، إذا هو قد نقل فيها ما أبلغتْه إيّاه السلطاتُ السوفييتية، راجياً عدم السماح للملحق بمغادرة مصر، وفصله من

الوزارة.

سألته مرّة عن علاقته بعزيز باشا المصري الذي عينه عبد الناصر عام ١٩٥٣ سفيراً لمصر لدى الاتحاد السوفييتي، فلما اشترط أن يصطحب معه الطبيب مراد غالب الذي اختبأ عنده بالإسكندرية إبّان الحرب العالمية الثانية، عيّنه عبد الناصر سكرتيراً ثالثاً بالسفارة، فترك من وقتها مهنة الطب.. كنتُ أحسب أن العلاقة بينهما لا بدّ أنها كانت وديّة وثيقة، فإذا العكس هو الصحيح. فقد كان عزيز المصري وقتها شيخاً مخرّفاً طاعن السن، دائم التوتّر غريب الأطوار، كثيراً ما يسبّب الحرج لمن يلتقي بهم من القادة السوفييت بإصراره على الحديث عن إعجابه بروايات دوستويفسكي الذي كانت الأيديولوچيا السوفييتية تمقته، والذي كشف ــ على حدّ تعبير عزيز المصري ــ عن "جذور الجنون في الشخصية الروسية"!! وكان الباشا نادراً ما يتوجّه إلى مبنى السفارة المجاور في شارع هرتزن، يدير شؤون البعثة من غرفة نومه، تاركاً للطبّاخة المصرية السمينة التي اصطحبها معه من القاهرة مهمّة الفصل في أمور الموظفين، كالموافقة أو عدم الموافقة على طلباتهم القيام بإجازات سنوية! وقد رَوَى لي مراد غالب أن عزيز المصري كثيراً ما كان يستدعي إلى مسكنه خلال ساعات العمل الرسمية دبلوماسياً بالبعثة يُدعى عبد العزيز خيرت ليلعب معه الشطرنج، فإن غلبه خيرت هبّ عزيز المصري غاضباً من مقعده أو من سريره ليعدو والمسدس في يده وراء خيرت يهدّده بإطلاق النار عليه!

لم يكن مراد غالب بالذي يجد سهولة في الكتابة أو الخطابة، وإنما كانت قوته تكمن في الجدل أو الحديث مع فرد أو مجموعة صغيرة من الأفراد.. استمعتُ إليه يُلقي خطبة حماسية في مجموعة من الطلبة العرب قبيل اندلاع حرب يونيو ١٩٦٧، فبدا متلعثماً لا يُكمل جُمَلَه.. وكنت إذا تقدّمتُ إليه ببحثٍ من أربعين أو خمسين صفحة، هزّ رأسه متعجّباً وقال: "الوقت الذي تستغرقه منك كتابة هذا تستغرقه مني كتابة صفحة واحدة"! وكان هذا هو سبب اقتصاره في عمله الدبلوماسي على كتابة البرقيات الرمزية الموجزة، وربما أيضاً سبب إحجامه مدّة طويلة عن تدوين مذكراته، أو تسطير المقالات. أما عن اللغة فقد كان متقناً للروسية والإنجليزية، متوسطاً في اللغة العربية والفرنسية.

كانت حرب يونيو كارثة عنده. فبالرغم من أن السوفييت كانوا البادئين بتفجير الموقف

بإخطارنا بالحشود الإسرائيلية عند الحدود السورية، ومن أنهم هم الذين أوصوا عبد الناصر باتخاذ الإجراءات المناسبة، إذا بقادتهم يعبّرون لمراد غالب عن غضبهم من اتخاذ عبد الناصر قراره بإغلاق خليج العقبة دون استشارتهم سلفاً، ويلومون مصر على تصعيد الموقف تصعيداً قد يؤدي إلى حرب لا مفرّ من أن تُورِّط حلفاءها السوفييت، وتقحمهم في نزاع مع الغرب هم في غنىً عنه، كما أن من شأنها في حال الهزيمة أن تُثبتَ ضعفَ السلاح الروسي في يد المصريين بالمقارنة بالسلاح الأمريكي في يد الإسرائيليين. وقد حدث خلال أيام الحرب أن رأيتُ بعيني رأسي في إحدى حفلات الاستقبال كلاً من بريچنيف وكوسيجين يدير ظهره عابساً لمراد غالب حين رآه يتقدّم نحوه لمصافحته.

ما وصلنا إلى السفارة صبيحة اليوم الأول من الحرب (٥ يونيو)، وأدرنا المذياع لنستمع إلى نشرة أخبار الإذاعة البريطانية، حتى علمنا بنبأ الهجوم الإسرائيلي.. صحتُ وصاح زملائي مهلّلين: "قد قامت الحرب"! وهرعتُ إلى السفير أخبره علّه لم يكن قد سمع. دخلتُ مكتبه فإذا هو وقد دفن رأسه بين راحتيه يستمع هو الآخر إلى أخبار لندن. فلما رآني وضع سبّابته على شفتيه إشارة منه لي ألاّ أتكلم ريثما يسمع بقيّة الخبر. ثم كان أن ألممنا معاً من بقيّة النشرة بكل أبعاد الكارثة.. قد هاجمتنا الطائرات الإسرائيلية وعَصَفَتْ في نحو ساعة بالشطر الأعظم من سلاحنا الجوي وهو رابض دون حراك على الأرض بالمطارات، فتقرر بذلك مصير المعركة.

عرفنا الحقيقة ونحن في موسكو بعد ساعة واحدة من نشوب الحرب، ولم يعرفها معظم المصريين بالداخل إلاّ من خطاب عبد الناصر مساء الجمعة ٩ يونيو الذي أخبر الأمة فيه بنبأ الهزيمة، وبقراره التنحّي عن الحكم.. كنا وقتها بالسفارة ننتظر سوياً إذاعة الخطاب الذي كان راديو القاهرة قد أعلن مسبقاً عنه.. واستمعنا إلى قرار عبد الناصر بالتخلّي عن منصبه لزكريا محيي الدين، فإذا بمراد غالب يجهش بالبكاء، وينهض سريعاً إلى حجرة مكتبه للاختلاء فيها بنفسه، وبقينا نحن في أماكننا صامتين ذاهلين وكأنّ على رءوسنا الطير، حتى أفقنا بعد ساعة على أصوات نواح وعويل في فناء السفارة، وقد توافد علينا الدارسون المصريون في موسكو وضَوَاحيها يطالبون السفير أن يفسّر لهم ما حدث.

***

عدتُ إلى القاهرة منقولاً من موسكو في ٤ أغسطس ١٩٦٧. وبالرغم من أني كنت قد بذلتُ في موقعي بالاتحاد السوفييتي أعظم جهد في حياتي الدبلوماسية بأسرها (ربما باستثناء فترة عملي بعد ذلك بسنوات سفيراً بالجزائر)، فقد صادفتُ من المسئولين في الوزارة عند عودتي ما لا يمكن وصفه بغير التنكّر وجحود الفضل، ربما بسبب صدور قرارين رئاسيين قبل مغادرتي لموسكو: الأوّل خاص بوضع ممتلكات نحو سبعين من أفراد عائلة زوجتي تحت الحراسة باعتبارهم من الإقطاعيين، والثاني بتنحية أخي الأكبر محمد عن رئاسة مجلس إدارة شركة إيديال بتهمة عدائه الصريح للاشتراكية.. وكان أن عُيّنتُ في إحدى الإدارات الخاملة بالوزارة.. ثم كان أن وصل مراد غالب في زيارة قصيرة إلى القاهرة للتشاور مع عبد الناصر، فلما علم بأمر هذا التعيين طلب مني ألا أتسلّم العمل ريثما يقابل المسئولين لإقناعهم بإلحاقي إما بمكتب وزير الخارجية، أو بإدارة هامة كإدارة الأبحاث. وكان أن وعده مدير إدارة شؤون السلك الدبلوماسي خيراً، طالباً منه ألا يقلق بشأني، فلما سافر مراد غالب عائداً إلى موسكو كرّر مدير شؤون السلك أمره لي بالالتحاق بالإدارة الخاملة.

وكما كنت مخطئاً في اعتقادي أنه كان على علاقة طيبة بعزيز المصري، كذلك كنتُ مخطئاً في ظني أنه كان صديقاً لأنور السادات، وذلك على ضوء ما شهدتُه من تبادلهما المجاملات والحديث الودّي أثناء زيارة السادات لموسكو وهو رئيس لمجلس الأمة. وقد ترسّخ عندي هذا الظن الخاطئ حين عيّنه السادات بعد توليه رئاسة الجمهورية وزيراً للخارجية. غير أن الواضح الآن أن غرض السادات من ذلك كان أبعاده عن موقعه في موسكو وسط أصدقائه الروس، ريثما يفرغ من ترتيب أوراقه ويُجري تغييراً جذرياً في علاقات مصر مع كلّ من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، ثم يُبعد مراد غالب بعد ذلك عن منصبه الوزاري. وقد وصف لي مراد غالب الأشهر القصيرة التي قضاها وزيراً للخارجية بأنها كانت أتعس فترة في حياته، وأحفلها بالمؤامرات التي حيكت ضدّه من قِبَل موظفين بمكتبه فَرَضَتْهم رئاسةُ الجمهورية عليه فرضاً. وقصّ عليّ كيف أن أحدهم أعدّ له خطاباً يلقيه في حفل عشاء يُقام تكريماً لأحد القادة السوفييت الزائرين لمصر، ولم يكن لدى مراد غالب وقت لمراجعة الخطاب قبل بدء الحفل، فإذا هو يجده أثناء تلاوته مليئاً

بالإشارات العدائية المقنّعة إلى الموقف السوفييتي من مصر إبّان حرب ١٩٦٧، ومن إعادة تسليح الجيش المصري في السنوات التالية لها. كما قصّ عليّ كيف أنه كان يجد أدراج مكتبه بالوزارة وقد فُتحت في غيابه عُنوة للاطلاّع على ما فيها من أوراق، وكيف أن السادات فاجأه مرة بالوصول إلى اجتماع لمجلس الوزراء ليعلن على المجلس نبأ قطعه علاقات مصر الدبلوماسية مع الأردن، دون أن يكلّف نفسه باستشارة وزير خارجيته قبل اتخاذ القرار، أو حتى بإعلامه تيليفونياً به قبل الاجتماع من قبيل الحرص على أن يحفظ مراد غالب ماءَ وجهه أمام زملائه بالمجلس.

خلاصة الأمر أن السادات سرعان ما أخرجه من الوزارة، وبعث به سفيراً في يوغوسلافيا، فأصبح هناك من أصدقاء تيتو الحميمين. وعندما قدم السادات بعد ذلك لزيارة بلغراد، دخل مراد غالب المستشفى قبل وصول الرئيس بساعات قليلة "لإجراء عملية استئصال الزائدة الدودية"، فلم يستقبل السادات في مطار بلغراد، ولا التقى به أثناء الزيارة، مما دفع البعض إلى الحديث عن "وعكة صحيّة دبلوماسية!"، في حين أقسم لي مراد غالب فيما بعد أن حاجته كانت ماسة إلى إجراء العملية. وفي أعقاب إبرام السادات لاتفاقية كامب ديفيد التي أغضبت مراد غالب، استشار غالب تيتو في أمر تقديم استقالته من منصبه ومن العمل الدبلوماسي كله، فاقرّه تيتو على ذلك. وعاد مراد غالب بعد الاستقالة إلى مصر، ولم يحذُ حذو السفير الفريق سعد الشاذلي الذي استقال هو أيضاً لنفس السبب، ولكنه بقى في الخارج يكتب ويخطب ضد السادات ونظامه. فكان أن عُين مراد غالب رئيساً لمكتب منظمة التضامن الأفريقي الآسيوي بالقاهرة، وظل حرًّا في تنقلاته وأسفاره لا يمسّه النظام بأذى، تُجري الصحفُ والمجلاتُ معه الأحاديث، ويشترك في الندوات والمؤتمرات في الداخل والخارج، ويتحدّث إلى الناس في الإذاعة والتيليفزيون، ويُسمح له ولزوجته بقضاء شهور الصيف عند ابنتيهما المتزوجتين المقيمتين في كندا.

ظلّت صداقتُنا قائمةً على مدى تسعة وثلاثين عاماً تلت عودتي من موسكو، نتزاور ونلتقي في مناسبات شتى، ونشترك في ندوات سياسية كان أحدثها ندوة برنامج "دائرة الحوار" في التيليفزيون المصري الخاصة بالتعاون الأوروبي العربي منذ بضعة أشهر، وكان وقتها قد عاد لتوّه من زيارة للصين قام بها للتحقّق مما طرأ على الحياة والنّظام السياسي

الصينيَّيْن من تغيّرات. ولا زلت إلى اليوم أومن بأني لم أصادف خلال عملي الدبلوماسي الذي دام خمسة وثلاثين عاماً سفيراً جليلاً مثله، ولا خلال حياتي غير القليلين ممن يدانونه في تنوّع الاهتمامات، والحرص على إثراء حياتهم بأكبر قدر ممكن من الخبرات. وكثيراً ما كنت أقول له حين أقابلُه قولةَ الناس لعمر بن الخطاب "أتْعبتَ مَن بَعْدَك!". ذلك أنني ما خدمت في بعثة أخرى بعد موسكو مع سفير آخر إلا اتّجه ذهني، رغماً عني، إلى المقارنة بينه وبين السفير مراد غالب. وهي مقارنة لم يكن بالإمكان أن تكون في صالح غيره.

أنور السادات

في منتصف مارس ١٩٦٧، وكنت وقتها أعمل سكرتيراً ثانياً بالسفارة المصرية في موسكو، بدأتُ وزوجتي إجازة طويلة، زرنا أثناءها الأقصر وأسوان، والقاهرة والإسكندرية، ولندن وأكسفورد وستراتفورد، فكوبنهاجن وستوكهولم.. فما عدنا إلى موسكو في أول مايو، وقد بلغ منّا تعب السفر مبلغه، وأدخلتُ الحقائب الشقة، حتى دق جرس التيليفون، وكان المتحدث السفير مراد غالب.

ـ أنا أعلم أنك قد وصلت لتوّك إلى موسكو.. غير أن عليك أن تجهّز حقيبتك الآن وتستعد للسفر هذا المساء مع أنور السادات والوفد المرافق له من أعضاء مجلس الأمة المصري إلى لينينجراد، فكوريا الشمالية فمنغوليا، فإيركوتسك بسيبيريا.. سيسافر جميعنا الليلة بالقطار إلى لينينجراد، ثم ننقسم مساء الغد إلى فريقين: فريق يضم السادات وعبد السلام الزيات ونوال عامر ومحمد الخفيف وغيرهم، وتكون أنت معهم في رحلة الشرق الأقصى؛ وفريق يضم المهندس إبراهيم شكري وغيره من أعضاء المجلس وأكون أنا معهم في رحلة إلى بعض الجمهوريات الإسلامية السوفييتية.. وسيكون عليك تسهيل مهمة الوفد، والترجمة من الروسية إلى العربية ومن العربية إلى الروسية عند الحاجة، والمشاركة في إعداد البيانات المشتركة بعد كل زيارة، وترجمة خطب السادات التي يُعدّها عبد السلام الزيات من العربية إلى الإنجليزية.. وعليك اليوم أن تأتي إلى فندق سوفييتسكايا بعد ساعة ونصف لأعرّفك بالسادات، ولتعدّ الترجمة الإنجليزية للخطاب الذي سيلقيه مساء غد في حفل عشاء يقيمه عمدة لينينجراد لنا.

كان السادات كثيراً ما يشير في أحاديثه الصحفية التي تتناول مرحلة شبابه وتكوينه

الذهني، إلى فضل كتب أبي على هذا التكوين، خاصة كتاب "فيض الخاطر" الذي كان السادات يسمّيه خطأً "خواطر"! وقد أكثر من هذه الإشارات لدرجة أحرجتني، وحَدَتْ ببعض أصدقائي إلى سؤالي مازحين: "قد كان أبوك إذن المسئول عن تكوين ذهن هذا الرجل!!". وقد قصّ عليّ أخي الأكبر عبد الحميد كيف أن السادات في شبابه الأول طلب من صديق له يسكن قبالتنا في مصر الجديدة أن يرجو أباه أن يتوسّط له لدى والدي حتى يقبله طالباً بكلية الآداب، وأن أبي اشترط مقابلته قبل أن يتخذ قراراً بصدده، فجاء السادات إلى بيتنا، وانحنى يقبّل يد أبي، مبدياً إعجابه العظيم بكتبه، ويرجوه قبول طلبه.. فما قَبِل والدي الطلب حتى غيّر السادات رأيه والتحق بالكلية الحربية!

لهذا كله انتابتني الدهشة حين دلفتُ إلى غرفة السادات بفندق سوفييتسكايا وعرّفه السفير مراد غالب بي، ذاكراً أنني ابن أحمد أمين، إذ أرى وجهه خالياً من أيّ تعبير وكأنما لم يسمع بوالدي من قبل، ولا هو أشار في أحاديثه معي طوال الرحلة بعد ذلك أية إشارة إلى أبي أو كتبه، رغم أني كنت طوال الأسبوعين التاليين أتناول على مائدته يومياً طعام الإفطار والغداء والعشاء، وأصحبه في كافة جولاته ولقاءاته..وهو أمر لم أجد له حتى اليوم تفسيراً.

وصل القطار بنا إلى ليننجراد في الثامنة من صباح ٢ مايو. وقد كان المقرر في برنامجنا أن نتوجّه بعد الغداء بالفندق الذي نقيم فيه، إلى متحف الإرميتاج، وهو ثاني أو ثالث أعظم متاحف الفن في العالم، حيث ينتظرنا ليطوف بنا في أنحائه مدير المتحف نفسه، وهو عضو في أكاديمية العلوم، وشخصية لها مكانتها الرفيعة المرموقة في الاتحاد السوفييتي.. فما انتهينا من تناول الغداء في قاعة الطعام حتى تمطّى السادات وتثاءب بصوت مسموع، ثم قال لنا:

ـ شوفوا يا ولادي. أنا راجل ما ليش في المتاحف والفن والكلام ده، ولازم أنام الضّهر.. روحوا أنتم وأنا طالع أستريح.

ثم قام ومضى. فما أغلق الباب خلفه حتى تصايح أعضاء وفد مجلس الأمة:

ـ متحف إيه وقرف إيه؟ إحنا نروح نشتري لنا كريستال ونلفّ على المحلات. بيقولوا عندهم هنا في ليننجراد كريستالات تجنّن.

وكانت النتيجة أن كنت وإبراهيم شكري الوحيدين اللذين حرصنا على زيارة الإرميتاج.. كان في انتظارنا خارج الفندق لتوصيل أعضاء الوفد ثلاث عشرة سيارة حكومية، ركبتُ وشكري واحدة، وركب الباقون السيارات الأخرى للطواف وأداء فريضة المشتريات.. وقد وجدنا مدير الإرميتاج واقفاً عند المدخل الرئيسي للمتحف في انتظار النواب الموقّرين. فما رك أنه لم يأت غير اثنين حتى لوّح بذراعه في قرف، تاركاً إيّاي وشكري في رعاية إحدى مرشدات المتحف.

استغرقت رحلة الطائرة السوفييتية الخاصة التي أقلّتنا إلى بيونج يانج عاصمة كوريا الشمالية اثنتي عشرة ساعة. وكانت إقامتنا في قصر الضيافة، خُصِّصت لكلّ منا حجرة في مساحة شقة، تطلّ على حديقة غنّاء، ولها حمّام يمكن للمرء فيه ممارسة لعبة الباتيناج، قد ملأوا الرفّ فيه بزجاجات الكولونيا ومعجون الأسنان وفرشاتها، وزوّدوا الغرفة بطبق عظيم يحوي مختلف صنوف الفاكهة، وآخر به الشوكولاتة وغيرها من الحلوى، وعلبة سيجار وعلبة سجائر فاخرتين، وعلى السرير روب دو شامبر وبيچاما من الحرير، وبجواره شبشب، مع زجاجات مشروب الچينسينج وباقة رائعة من الأزهار على مائدة مستديرة وسط الغرفة، بجانبها بطاقة تتمنّى لنا باللغتين الكورية والعربية إقامة سعيدة في بلد الزعيم القائد كيم إيل سونج.

لم يخطرونا سلفاً بأن القائد الخالد يعتزم استقبالنا. غير أنه كان طوال زيارتنا ماثلاً أمام أعيننا في كل مكان: تماثيله وصوره تطلّ علينا في كلّ شارع ومبنى، والأغاني في الإذاعة تلهج بذكره، والصحف كافة تحمل صورته في الصفحة الأولى، ونشرات الأخبار تبدأ بتحركاته وزياراته لهذه الجهة أو تلك، والأفلام السينمائية إما عن طفولة القائد، أو والدة القائد، أو كفاح القائد.. فإن زرنا مصنعاً للنسيج أو الزجاج أو حتى بطاريات السيارات، إذا بكل آلة من آلات المصنع وعليها لوحتان نحاسيتان: الأولى: "أمر الزعيم بصنع هذه الآلة يوم كذا"، والثانية "تم تنفيذ أمر الزعيم يوم كذا"! وإذ نعود في يوم ٦ مايو من زيارة في الصباح الباكر للمعرض الصناعي الزراعي، إذا بجمع من الكوريين تستقبلنا في قصر الضيافة لتزفّ إلينا والابتسامات وإمارات السعادة تملأ الوجوه وكأنما يبشّروننا بالجنّة، نبأ استعداد كيم إيل سونج لاستقبالنا قبل الظهر، ودعوته إيّانا لتناول طعام الغداء معه.

وكان أن التقينا بالزعيم الكوري لمدة أربع ساعات، تطرّق في الدقائق الأولى منها إلى العلاقات الكورية المصرية الممتازة، وكفاح الشعبين العظيمين من أجل كذا وكذا، والتقدير العميق الذي تكنّه القيادة والشعب في كوريا للرئيس جمال عبد الناصر، سرعان ما انتقل بعدها إلى حديث طويل طويل عن سوء نوايا الاتحاد السوفييتي، وضرورة التنبّه لأغراضه الخبيثة في منطقة الشرق الأوسط، وما عانته الصين الشعبية وكوريا الشمالية من خياناته المتكررة لقضاياهما، وتخلّيه عن الكوريّين إبّان كفاحهم وحربهم من أجل توحيد شطري كوريا في مطلع الخمسينيات، مُنهياً حديثه بتحذيرِ رجا السادات أن ينقله إلى عبد الناصر عند عودته إلى مصر من أن يزيد من اعتماده على الروس الخونة، ومن أن يصدّق وعودهم ويأمن إلى نواياهم.

ويهمّني هنا أن أسجّل ملاحظتين لي بصدد أنور السادات:

الأولى: حسن استماعه إلى من يحدّثه من الزعماء أو كبار المسئولين، وقدرته على الإيحاء إليه بأنه يوافقه بشدة، وبكل إخلاص وصدق، على كل كلمة يقولها، وكل رأي يعرضه.. فهو لا يكفّ عن هزّ رأسه مؤمّناً ومردّداً بصوته العميق: ڤيري ترو! ڤيري ترو! (صحيح! صحيح!). ولو أن كيم إيل سونج، بدلاً من مهاجمته للروس، كان أثنى عليهم ثناء حاراً، وأوصى بتصديق نواياهم وتعزيز التعاون معهم، لكان السادات أمّن بكل حرارة على أقواله، وهزّ رأسه مراراً إشارة إلى موافقته التامة!

والثانية: رفع زملائه من أعضاء مجلس الأمة للكلفة معه، وحديثهم الصريح والودّي إليه، وعدم خشيتهم إيّاه، دون أن ينتقص ذلك من احترامهم له.. يضاحكونه ويمازحونه فيهشّ هو ويبشّ في وجوههم، ولكن في وقار جمّ. وقد سمعته في الطائرة إلى بيونج يانج يوبّخهم على انتهازهم فرصة صعوده إلى غرفته بالفندق في ليننجراد للنوم وإغفالهم زيارة متحف الإرميتاج مفضّلين التسوّق، فأجابوه صائحين: "لا ريّس موش كل مرّة! (كانوا ينادونه بالريّس لرئاسته لمجلس الأمة). إحنا طلعنا الحجّ معاك معرفناش نشتري حاجة من السعودية.. خلّلينا المرة دي على الأقل نرجع مصر بحاجة.

كذلك فإنه ما غادرت الطائرة مطار بيونج يانج في طريقها إلى أولان باتور عاصمة منغوليا، حتى شرع النواب الموقّرون في فتح حقائب اليد معهم يُخرجون منها ضاحكين

الشباشب والأرواب والبيچامات الحريرية وغير ذلك مما كان الكوريون زوّدوا حجراتهم به في قصر الضيافة للاستعمال فقط لا للمصادرة! وإذ رأى السادات ما يفعلون ابتسم لهم، وشرع في ممازحتهم، ملقّباً إيّاهم بأولاد الحرامية!

قفلنا عائدين إلى موسكو بعد الرحلة إلى كوريا الشمالية فمنغوليا فسيبيريا، فوصلنا إليها في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة ١٢ مايو ١٩٦٧.. توقّفت الطائرة، وفُتح بابها للنزول منها، فلمحتُ من فوري عند أسفل سلّمها في انتظارنا ثلاثة من كبار المسئولين السوڤييت يصحبهم أحد المترجمين، ما صافحوا السادات حتى انتحوا به جانباً لمدة طويلة، وراحوا يتحدّثون إليه في جدية شديدة خمّنتُ معها وأنا أرقبُهم من بُعد أن أمراً خطيراً قد حدث.. فلما فرغوا أشار إليّ السادات أن أقترب، وهمس في أذني أن أتوجّه إلى السفارة على الفور، وأن أبعث ببرقية رمزية على لسانه إلى الرئيس جمال عبد الناصر، مفادها أن المسئولين السوڤييت أخبروه عند وصوله بأن إسرائيل تحشد قوات عسكرية كبيرة لها عند الحدود السورية، وأن على مصر أن تتّخذ من الإجراءات ما يقتضيه هذا الوضع.

أرسلتُ تلك البرقية التي أعتبرها ـ على نحو ما ـ البداية الحقيقية لحرب يونيو ١٩٦٧.. وفي صبيحة يوم الأحد ١٤ مايو غادر السادات ووفده موسكو إلى القاهرة، فكان توديعي له في المطار آخر مرة أقابله فيها... ثم توالت الأيام، وتولّى رئاسة الجمهورية في سبتمبر ١٩٧٠، وظل يكرّر وهو في الرئاسة في أحاديثه التليفزيونية مع "ابنته" همت مصطفى ذكر تأثير كتب أحمد أمين "الله يرحمه" في تكوينه، خاصة كتابه "خواطر"! وفي أغسطس ١٩٨١، وكنت وقتها وزيراً مفوضاً بالسفارة في بون، أخطرتنا الرئاسة في القاهرة أن السيدة چيهان السادات تنوي زيارة العاصمة الألمانية يوم ٨ أكتوبر لجمع التبرعات من رجال الأعمال الألمان لجمعية "الوفاء والأمل" التي تديرها.. غير أن القدر لم يتح الفرصة لإتمام هذه الزيارة.

في يوم ٥ أكتوبر، كنت أتناول العشاء في مطعم يوناني في بون مع صديق قديم لي هو السفير حسّان عبد الحميد العبّادي الذي قدم إلى بون (مدينته المفضّلة) في طريقه لاستلام عمله قنصلاً عاماً في نيويورك.. وفي حديثنا أثناء العشاء تطرّقنا إلى الأحوال المتردّية في

مصر، وأنباء الاعتقالات واسعة النطاق التي تجري فيها.. وإذ عبرّت لحسّان عن اعتقادي أن السادات لا يمكن أن يستمر طويلاً في الحكم، أجابني في سخرية ومرارة:

ـ بل سيبقى وسيبقى وسيبقى حتى يدفننا جميعاً وأكون أنا وأنت قد صرنا في الهالكين.

ـ تراهن؟

ـ أراهن.

وفي اليوم التالي، في نفس الساعة التي كان حسان العبادي فيها يُنهي إجراءات سفره إلى نيويورك في مطار بون، جاءتني في مكتبي بالسفارة مكالمة تيليفونية من مستشارنا الإعلامي حمدي عزّام يخبرني بنبأ اغتيال السادات.

***

طـــه حسين

لا أذكر زيارات طه حسين لأبي بمنزلنا في مصر الجديدة في الثلاثينيات. غير أني كنت أدرك مُذْ كنت طفلاً أن كلاًّ منهما يعشق صحبة الآخر عشقاً، ولا يكاد يجد الراحة الحقيقية إلا في حضرته. وقد فسّر والدي في كتابه "حياتي" هذه المودّة والأُلفة بينهما باختلاف مزاجيهما وطبيعتيهما.. كتب يقول:

"هو أقرب إلى المثالية وأنا أقرب إلى الواقعية.. وهو فنّان يحكمه الفن، وأنا عالم يحكمه المنطق.. وهو يحبّ المجد ويحبّ الدويّ، وأنا أحب الاختفاء وأحبّ الهدوء.. وهو مُغالٍ في الحكم على الأشخاص وعلى الأشياء، وأنا بطيء.. وهو عنيفٌ إذا صادق أو عادَى، وأنا هادئ إذا صادقتُ أو عاديت.. وهو واسع النفس أمام الأحداث، وأنا قلقٌ مضطربٌ غضوبٌ ضيقُ النفس بها.. وهو ماهر في الحديث إلى الناس فيجذب الكثير، وليست عندي هذه المقدرة فلا أجتذب إلا القليل. وهو في الحياة مقامر يكسب الكثير في لعبة ويخسره في لعبة، وأنا تاجر إن كسبتُ كسبتُ قليلاً في بطء، وإن خسرتُ خسرتُ قليلاً في بطء. يحبّ السياسة لأنها ميدان المقامرة، وأنا لا أحبها إذ لا أحب المقامرة.. ولعل هذا الخلاف بيننا في المزاج هو الذي ألّف بيننا، فأشعره أنه يكمل بي نقصه، وأشعرني أني أكمل به نقصي...".

ولعلّ هذه المودة العميقة التي كان طه حسين يحملها لأبي، وحاجته إلى مجاورته معظم الوقت، هما اللتان دفعتاه إلى ترتيب نقل والدي من القضاء الشرعي عام ١٩٢٦ (وكان أحمد أمين وقتها قاضياً بمحكمة الأزبكية)، إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول حيث كان طه حسين يعمل مدرّساً. وقد وجد والدي في التدريس بكلية الآداب، بعد طول تجارب،

مجاله الطبيعي، بحيث يمكن القول في يُسر إن نقله إليها كانت نقطة التحول الكبرى في حياته. وقد ظلّ والدي إلى نهاية عمره، ورغم ما طرأ على العلاقة بينهما من فساد وتوتّر فيما بعد، يذكر لطه حسين هذا الجميل، ويعتبره فضلاً من أهم أفضاله الكثيرة عليه.

كتب طه حسين عن هذه الواقعة في رثائه لأحمد أمين عام ١٩٥٤: "... وهو في أثناء هذا كله (أي عمله في القضاء الشرعي الذي لم يستسغه والدي قط) قلقٌ لا يعرف اطمئناناً ولا استقراراً، ويلتمس نفسه في كتب الفقه وفي علوم الدين كلّها فلا يجدها، ولا يجدها في ذلك التعليم المحدود ذي الآفاق الضيقة الذي كان يُلقى في مدرسة القضاء.. وهو يحاول أن يخرج من حياته تلك التي أضلّ فيها نفسه، فيتّصل ببيئات المطربشين، وينشئ معهم لجنة التأليف والترجمة والنشر، ويأخذ في تعلّم اللغة الإنجليزية، ويُخيّل إليه أن الأَمَدَ بينه وبين نفسه قد أصبح قريباً.. ولكنه مع ذلك يلتمسها فلا يظفر بها.

"وألقاه في يوم من أيام حياته تلك، وإذا هو ضيّق بعمله في القضاء أشدّ الضيق، وإذا هو طامح إلى شيء مجهول لا يحقّقه ولكن طموحه إليه شديد.. كلّ ما يعنيه هو أن يخرج من حياته تلك التي لا يستطيع عليها صبراً.. ونفترق في ذلك اليوم وقد أزمعتُ في نفسي أمراً. فإذا كان الغد تحدّثتُ بما في نفسي إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد. فإذا كان المساء دعوتُ أحمد إلى لقائي، وعرضتُ عليه التعليم في الجامعة، فيشكّ غير طويل، ثم يستجيب.. ولا يكاد يستقرّ في كلية الآداب شهراً وبعض شهر، حتى يجد نفسه تلك التي طال البحثُ عنها، وشقي بالتماسها أعواماً طوالاً.

وبعد أشهر قليلة من التحاق والدي مدرساً للأدب العربي بكلية الآداب، اجتمع طه حسين وعبد الحميد العبّادي وأبي بمنزلنا في مصر الجديدة ليرسموا معالم مشروع ضخم ينهض به ثلاثتُهم، خلاصته أن يدرسوا الحياة الإسلامية من نواحيها الثلاثِ في العصور المتعاقبة من أول ظهور الإسلام، فيختصّ طه بالحياة الأدبية، والعبادي بالتاريخ السياسي، ووالدي بالحياة العقلية والنظم الحضارية. فأخذ أحمد أمين يحضّر الجزء الأول الذي سُمّي فيما بعد "فجر الإسلام"، صارفاً فيه ما يقرب السنتين، حتى أتمّه في آخر عام ١٩٢٨. أما زميلاه فقد تكاسلا، أو عاقتهما عوائق عن إخراج نصيبيهما، فلم يخطّا في المشروع حرفاً. وكان والدي وحده هو الذي درس ضحى الإسلام وأخرج كتابه في ثلاثة مجلدات، أتبعه

بدراسته لظهر الإسلام وأخرجها في أربعة مجلدات.

وتمضي الصداقة والألفة بين طه حسين وأحمد أمين بعد ذلك لأكثر من اثنتي عشرة سنة لا تشوبها شائبة، حتى جاء يوم أول إبريل من عام ١٩٤٠ (الذي ظل والدي يعتبره يوماً مشئوماً في حياته لأكثر من سبب)، وهو اليوم الذي اختير فيه عميداً لكلية الآداب. فقد حثّ طه حسين أعضاء مجلس الكلية على ترشيح أحمد أمين وراح يتّصل بهم لإقناعهم بالتصويت له دون منافسيه في الانتخاب، وهم مصطفى عامر، ومحمد عوض محمد، وعبد الوهاب عزام. وكان أن فاز أبي بأغلبية الأصوات، ووافق وزير المعارف محمود فهمي النقراشي على تعيينه عميداً بعد ساعتين من إبلاغه بنتيجة التصويت.

فما مضت أسابيع قليلة حتى بدأ الخلل يدبّ في العلاقة بين طه حسين وأحمد أمين:

توقّع طه حسين، وهو صاحب الأيادي الكثيرة على أبي، وصاحب الفضل في مساعدته في الانتخاب، أن يعمل صديقُه في الكلية حسب إشارته وطوع أمره، وكان الأحرى به أن يدرك أن هذا الصديق قاض قديم، يتحرّى العدل ويطالب ويعمل به، ولا يُقدم إلا على ما يراه حقًّا مَهْما كانت النتائج، ومَهْما كان إحساسه بجميل طه حسين عليه. فها هو طه حسين مثلاً (وهو رئيس قسم اللغة العربية) يريد أن يرقّي صديقه سليمان حزيّن أستاذاً مساعداً للجغرافيا رغم إرادة قسم الجغرافيا الذي رشّح عبد المنعم الشرقاوي لهذه الترقية، ووالدي يرى، وبحق، أن قسم الجغرافيا هو صاحب الاختصاص. وها هو والدي يعترض على اقتراح طه حسين قبول دخول عبد الرحمن بدوي امتحان الماجستير دون أن يكون قد قيّد اسمه له، في حين تنصّ اللائحة على ضرورة أن يتم القيد قبل سنة على الأقل من دخول الامتحان. غير أن أهمّ دواعي الخلاف كان بصدد الدكتور عبد الرازق السنهوري، أحبّ أصدقاء والدي إليه. فقد استعرت الخصومةُ بين طه حسين والسنهوري حين حاول الأول إملاء إرادته في وزارة المعارف. فلما عُيّن طه حسين مستشاراً فنياً بوزارة المعارف واستقرّ الرأي على نقل السنهوري منها وتعيينه مستشاراً ملكياً، إذا بطه حسين يتدخل في اللحظة الأخيرة – أو هكذا ظن أبي – وإذا بالسنهوري يُحال فجأة إلى المعاش من غير إبداءٍ للأسباب. وكان أن

ثارت ثائرة والدي لهذا الظلم الذي أحاق بصديقه على يد صديقه، ثم أخذت العلاقةُ شكلَ الخصومة العلنية حين ألمح طه حسين أنه يخيّره بين الصداقة معه والصداقة مع السنهوري، فاختار أبي الثانية.

وهنا بدأت عينُ السخط "تُبدي المساويا"، وشرع أبي ينظر إلى صديقه القديم في ضوء جديد:

- فهو رجل يريد فرض إرادته على كلّ من يعمل معه، إن خالفه في أمرٍ ناصبه العداء؛
- وهو يشجّع ويرحّب بكل من ينقل إليه كلاماً عن الآخرين، ولو كان مختلقاً؛
- وهو في حاجة دائمة إلى التدليل، يريد الشيء ويتظاهر بأنه لا يريده، وأقرب الناس إليه من يدلّله فيرجوه في قبوله؛
- وهو يقيس الأشياء ويحكم عليها بشخصه دون أدنى موضوعية، فلا يتحرج من أن يكيل للمقرّبين إليه ما يشاء وإن لم يستحقّوا، ويحرم من لا يحبّهم ولو استحقّوا، وعنده المحسوبية لا إلى حدّ.

(رغم ما استنكره والدي من المحسوبية عند طه حسين، فهو الذي رجا الدكتور طه في نوفمبر ١٩٤٣، أن يوفد أخي محمد في بعثة دراسية إلى إنجلترا، وأن يعيّن زوج أختي عبد العزيز عتيق بالمعهد الثقافي المصري في لندن، فوعده طه خيراً، وأوفى بوعده بصدد الاثنين)!!

ومع ذلك فقد ظلّ الجرحُ الناجم عن فقدان الصداقة قائماً في قلب والدي لا يندمل.. كتب في ترجمته الذاتية يقول:

"وكانت مأساة العمادة أني فقدتُ بها صداقة صديقٍ من أعزّ الأصدقاء، وما أقلّ عددهم! كان يحبني وأحبه، ويقدّرني وأقدّره، ويُطلعني على أخصّ أسراره وأُطلعه، وأعرف حركاته وسكناته ويعرفها عنّي، ويشاركُني في سروري وأحزاني وأشاركه. وكنتُ هواه وكان هواي. واستفدتُ من مصادقته كثيراً من معارفه وفنّه ووجهات نظره، سواء وافقته أو خالفته. فأصبح يكوّن جزءاً من نفسي يملأ جانباً من تفكيري ومشاعري.. وجاءت العمادة مفسدة لهذه الصداقة، لأنه ـ بحكم

طبيعته ــ أراد أن يسيطر، وأنــا ــ بحكـم طبيعتــي ــ أردت أن أعمــل مــا أرى لأنــي مسئول عمّا أعمل. ثم ولى منصباً أكبر مــن منــصبي يــستطيع منــه أن يــسيطر علــى عملي، فأراد السيطرة وأبيتُها، وأراد أن يحقّق نفسه بــأن ينــال مــن نفــسي فأبيــتُ إلا أن أحتفظ بنفسي.. فكان من ذلــك كلّــه صــراعٌ أصــيبت منــه الــصداقة، فحــزن لمــا أصابها وحزنت، وبكى عليها وبكيت".

وكانت مرارة أبي إزاء تسبّب العمادة في تبدّد صداقته مع طه حسين سبباً قوياً دفعه في النهاية إلى تقديم استقالته منها بعد قرابة سنتين من تولّيه أيّاها. فإذا بالدكتور طه هو الذي ينبري بمحاولة إقناعه بالعدول عنها، ولكن دون إلحاح كبير. غير أنه ما مضى عام على قبول الاستقالة، حتى أصاب والدي شعورٌ من الضيق الشديد بالجامعة وأهلها وجوّها، فقدّم طلباً بإحالته إلى المعاش. وهنا زاره طه حسين في مقر لجنة التأليف والترجمة والنشر. "فما زال يقنعني بالعدول عن الاستقالة نحو ساعتين حتى عدلت نزولاً على رجائه وتذكيره لي بالصداقة القديمة. وفي هذه الجلسة تعاتبنا طويلاً، وأبلغتُه ما في نفسي وما فعله معي أثناء عمادتي، وما فعله مع الدكتور السنهوري. وقد دافع عن نفسه في كل هذا دفاعاً طويلاً، ثم انصرف بعد أن أخبرني أن الوزير سيكتب إليّ خطاباً ردًّا على طلبي، يبلغني فيه أسفه إذ لم يقبل استقالتي حرصاً على مصلحة الطلبة".

تزاور الرجلان بعد ذلك ولكن في نطاق محدود. ومما أذكره عن تلك الفترة أمران: أن أبي اصطحبني مرة أو مرتين لزيارته، فلفت نظري قلة الكتب في حجرة مكتبه بالمقارنة بما لدى والدي منها، ورائحة الياسمين وغيره من الأزهار التي تملأ الحجرة من الحديقة التي تطلّ عليها، على النقيض من رائحة الكتب القوية الثقيلة التي كانت مكتبة أبي تستقبل بها روّادَها.. الأمر الثاني هو أنه حين اقترب موعدُ سفر أخي محمد في بعثته إلى إنجلترا، استفظعت والدتي فكرة افتراقها عن ابنها البكر الحبيب، فقامت دون علم أبي أو أخي بالاتصال بالدكتور طه تيليفونياً تتوسّل إليه إلغاء قرار البعثة. وكان أن طمأنها طه حسين بقوله: "سيدتي، كوني واثقة من أن ابنك لن يسافر حتى تأتيني مكالمة تيليفونية منك بالإذن له بالسفر". فلما علم والدي ومحمد بالأمر غضبا غضباً شديداً، وظلا يضغطان عليها حتى اضطرت في النهاية باكية إلى الاتصال تيليفونياً بالدكتور طه لإعطاء الإذن! والغالب أن هذا

هو ما كان يتوقّعه طه حسين!

ومع ذلك فقد ظلت العلاقة بين الرجلين طوال السنوات الخمس التالية يشوبها قدر من الفتور والتحفّظ لم يفلح تعاتُبهما في تبديده، حتى أصيب والدي في عينيه عام ١٩٤٨، واضطرَ إلى أن يرقد طويلاً بالمستشفى بعد إجراء عملية له. وقد كان لطه حسين مرة أخرى فضل البدء بالمصالحة. فقد أتاه يزوره في المستشفى. وكان اللقاء بينهما الذي حضرتُه مؤثّراً إلى أبعد حدّ. وإن أَنْس لن أنسى منظر طه حسين الضرير وهو يدخل حجرة المستشفى يقوده سكرتيره فريد شحاتة من ذراعه. وإذ يسمع أبي ـ وهو معصوب العينين ـ صوته، يمدّ يده في لهفة في اتجاه الصوت، فأُمسك أنا بيد والدي، ويُمسك فريد شحاتة بيد طه حسين، حتى تلتقي اليدان ويتصافحان.

وعادت الألفة والصداقة بينهما بعد ذلك إلى مجراهما القديم، وأكثرا من التزاور واللقاء خلال السنوات الست المتبقية من حياة أبي. ولا يزال لدينا فيلم سينمائي صوّرتُه للرجلين في شرفة منزلنا بسيدي بشر في الإسكندرية، حين جاء طه حسين يزور أبي بعد سماعه بخبر إصابته بشلل نصفي.. فلما مات والدي في مايو من عام ١٩٥٤، كتب طه حسين في رثائه يقول:

"... كانت حياتُه كلّها مُغالبة، ولم تستقم له الأمور على ما أحبّ في يوم من الأيام مُذ كان صبياً.. كان يريد أن يغيّر الدنيا من حوله، وليس تغيير الدنيا مُيسّراً للناس، ولكنه كان يريد أن يحاول من ذلك ما يستطيع، فيستقيم له التغيير في بيئته الخاصة، وفي بيئته الجامعية بعض الشيء، ويستعصي عليه في بيئات كثيرة كلّ الاستعصاء، فيسعد قليلاً، ويشقى كثيراً.. فكنتَ تراه دائماً قليل الرضا، كثير السخط، موزّع النفس بين سرور قليل متقطّع، وحزن كثير يوشك أن يكون متّصلاً، حتى أنكر الناس منه كثيراً من أمره، وحتى نظر إليه زملاؤه وأصدقاؤه نظرةً فيها كثير من التحفّظ والاحتياط. فكانوا يتحدّثون إليه مُشفقين من ثورته، أو متوقّعين لثورته. وكانوا يتكلّفون من الرفق به أكثر مما كانوا يتكلّفون حين كانوا يتحدثون إلى غيره من الأصدقاء.. وربما تندّر به زملاؤه وأصدقاؤه وداعبوه في شيء كثير من الحب والرفق، فسمّوه "العَدْل"، ونادوه بهذا الاسم، وتحدّثوا عنه بذلك فأكثروا الحديث، حتى كاد "العدل" يصبح له اسماً ثانياً.. ولم يكن لهذا كلّه مصدر غير

تحرّجه المتّصل وتحفّظه المقيم، وتعرّضه لالتماس الصعب من الأمر، وتجنّبه ماكان من الأمر يسيراً قريباً...".

***

زرْتُه بعد ذلك في بيته مرتين: الأولى يوم ١١ إبريل عام ١٩٥٨ مع زوج أختي الدكتور عبد العزيز عتيق. كان جالساً وحده في مكتبته المواجهة مباشرة للباب الخارجي، وعلى الحائط خلفه صورة كبيرة لزوجته في شبابها. وقد بدا لنا بشعره الأشيب المهيب، وملابسه الأنيقة، محتفظاً بصحته رغم اصفرار وجهه بعض الشيء..

انحنى سكرتيره فريد شحاتة على أذنه يخبره باسمينا، فرحّب بنا وطلب منا الجلوس قبالته، بينما انزوى فريد في ركن من الغرفة لا يشترك بكلمة في الحديث، وعلى وجهه علائم الضجر يحاول أن يخفيها، ناظراً إلى ساعته بين الحين والحين. وقد ظل هكذا حتى نهاية الزيارة التي استغرقت نحو نصف ساعة، لا يهبّ من مقعده إلا لإشعال سيجارة ربّ المنزل، أو لتقديم الدواء والحلْبة له.

كان الدكتور عتيق قد ترك مع الدكتور طه حسين منذ سنة مسوّدة ديوان شعره حتى يكتب مقدّمة له، فلم يفعل. وإذ ظنّ طه حسين أن الغرض الحقيقي من الزيارة هو الاستفسار عن المقدمة، فقد أسرع فور جلوسنا يقول إنه يقرأ الديوان للمرة الثالثة، وأنه يخشى إن هو كتب المقدمة أن يفرغ من الديوان إلى الأبد، وهو أمر لا يحبّه لإعجابه الشديد به!! (وقد كتب طه حسين فيما بعد هذه المقدمة من صفحتين تشهدان بأنه لم يقرأ من الديوان بيتاً واحداً.. كتب يقول: "وأنت تطوف في هذه الحديقة فترى فيها ما شاء الله أن ترى من شجر باسق في السماء، وزهر نضر يملأ النفس بهجة ورضى، وأشهد أني قد قرأت الديوان مرات فلم أشعر بأني قرأت شيئاً كنت قد قرأته من قبل.. وما أشك في أني سأقرؤه إن شاء الله وأقرؤه، وأستمتع بقراءاته كلها، كما استمتعتُ بقراءته من قبل"!!).

أخبره عتيق أنه في سبيل كتابة رواية عن قرية مصرية إبّان الحرب العالمية الأولى. وإذ بدا يسرد فكرة روايته بدا على وجه طه حسين، بل وجسمه كله، التململ والضيق. غير أنه تململٌ يحاول قمعه عكس التململ الذي كان أبي يبديه في أواخر أيامه حين يضطر إلى

الاستماع إلى حديثٍ لا يثير اهتمامه.. قال عندما فرغ عتيق من حديثه:

ـ عظيم.. روايات الأدب الروسي مليئة بمثل هذه الأفكار.

قال عتيق: أكتبها لأبرهن على أن سعد زغلول لم يكن هو الذي تسبّب في إشعال ثورة ١٩١٩ كما تذكر كتب التاريخ، وإنما تَلَقَّى الثمرة ناضجةً، أنضجها الشعب ثم نُسبت إلى سعد.

قال طه حسين: هذا حقّ. وعادة ما تُنسب الأحداث الهامة إلى أشخاص في حين تكون الظروف هي التي حتّمت وقوعها.. كانت ثورة ١٩١٩ أهمّ حدث في تاريخ مصر الحديث، ويكفيها أنها أطلقت الفكرَ والأقلامَ من عقالها، وحرّرت مشاعر الأمّة وأمانيها.

سألتُه عن السبب في أن ثورة ١٩٥٢ لم تطلق الفكر والأقلام على نحو ما فعلته ثورة ١٩١٩. أجاب بقوله:

ـ السبب هو فشل الثانية ونجاح الأولى.. إننا منذ عام ١٩٢٨، منذ عهد محمد محمود وإسماعيل صدقي، نعيش في ظل أحكام عُرفية لم تنقطع.. ناضلنا طويلاً نحن الرعيل الأول من الكتّاب المصريين المحدثين في سبيل حرية التعبير عن الرأي.. ومع ذلك فإن بعض الأدباء الشبان اليوم يتّهمون العقاد وهيكل وطه حسين ساخرين بأننا انغمسنا في حقبة الثلاثينيات في موجة من التديّن والدروشة إذ يرون العقاد عاكفاً على كتابة العبقريات، وهيكل على كتابة حياة محمد وكبار الصحابة، وأنا على كتابة "على هامش السيرة".. غير أننا إنما كنا نكتب كتب سير النبي والصحابة لنعبرّ فيها عن آرائنا المرفوضة من السلطات في الديموقراطية والنظم الاجتماعية السائدة، لا حُبًا في الصحابة. كذلك تلاحظ أنني عبرّت عن آرائي في بعض كتبي على لسان حيوانات، وعندما نطقتُ بها صراحة في كتاب "المعذبون في الأرض" صادرتْه الحكومة ولم أستطع نشره إلا في بيروت. تماماً كما في حالة الأدباء الروس بعد الثورة البلشفية حين اتجهوا بأقلامهم لكتابة الروايات التاريخية تهرّباً من سطوة الرقباء.. لقد تعرّضنا لكثير من صنوف الاضطهاد والكبت.. وقد حدث أن كتبتُ يوماً مقالاً في صحيفة "البلاغ" دون توقيع، فقُدِمتُ مع عدد من المحرّرين إلى النيابة للتحقيق.. كنت أنوي أن أعترف بأني صاحب المقال، غير أن صديقي المرحوم عبد العزيز باشا فهمي نصحني بأن أردّ على كلّ سؤال يُوجَّه إليّ أثناء التحقيق بعبارة "لا أُجيب".

وعندما سألني وكيل النيابة: "أنت كاتب المقال الفلاني؟" قلت: "لا أُجيب". قال: "أهذه هي شجاعة الكاتب الأدبية؟" قلت: "لا أُجيب". وظللت أكرّر العبارة حتى صرفني في غيظ. وكان أن قُدِّم الآخرون إلى المحاكمة بينما حضرتُها أنا متفرّجًا! المضحك في الأمر أنه حين شرعت النيابة تتلو في المحكمة مقتطفات من المقالات المعادية للحكومة مما نشرتْه البلاغ، صاح رجل بجواري يقول في غضب: "أمّا ولاد الكلب دول بيكتبوا كويس قوي!!". غير أنهم ما بدأوا يتلون فقرات من مقالي أنا (ولتغفروا لي قلّة تواضعي) حتى ضَجَّت قاعةُ المحكمة بالتصفيق، مما اضطرّ القاضي إلى رفع الجلسة".

وذكّره عتيق بمقالاته المعادية للحكومة والمسمّاة بالصَّبْرِيّات، وبدأ يتلو فقرات منها من الذاكرة. فاستمع إليه الدكتور طه في سرور عظيم، وقهقه طويلاً بعد فراغ عتيق من التلاوة. ثم قال:

ـ نعم.. لكننا إن كنا قد عبرّنا أحياناً عن بعض آرائنا، فكم هي عديدة تلك التي لم نستطع الإفصاح عنها!

ثم انتقل إلى سؤالي عن وظيفتي، مبدياً رضاءه عن التحاقي بالسلك الدبلوماسي. وعندما ذكر له عتيق أنني أعدُّ نفسي إعداداً جادًّا للاشتغال بالأدب، وأنني أُتقن اللغة الإنجليزية إتقاناً تاماً، قال طه: "ولِمَ لمْ تخبرني بذلك من قبل حتى أكلّفه بترجمة إحدى مسرحيات شكسبير لدار المعارف؟ على كلّ حال فسيصلك بعد أسبوعين خطابٌ من الجامعة العربية، وآخر من المجلس الأعلى للفنون والآداب يكلّفانك بترجمة بعض الآثار الأدبية". ثم تحدّث عن دبلوماسيين فرنسيين أصبحوا من كبار الأدباء، مثل جُوبينو وكلوديل وچيرودو، ثم عن عاطفة كلوديل الدينية، ومراسلاته مع أندريه چيد، وعن إعجابه العميق بچيد وتفضيله له على سائر كتّاب فرنسا في القرن العشرين..

أما لقائي الأخير معه فكان في ١٥ مارس عام ١٩٦٩، أي قبل وفاته بأربع سنوات. كان وقتها شيخاً مهدّماً في الثمانين، يبدو في مقعده كالجثّة المحنّطة، وقد دثّر نصفه الأسفل ببطانية من الصوف، وألقى رأسه إلى الخلف كمن يستسلم للذَّبح. كلّ شيء قد تغيّر.. فسكرتيره القديم فريد شحاته كان قد هجره بعد خلاف مرير مع زوجة طه حسين، وحلّ محلّه صديقي محمد شفيق الذي رتّب هذه المقابلة لي ولصديقنا ممدوح ابن الشيخ مصطفى

عبد الرازق شيخ الأزهر الأسبق. ولم يصبر محمد شفيق نفسه على هذه الوظيفة إلا لبضعة أيام تلت زيارتنا إذ ارتأى فيها مهانةً له، وأن المطلوب منه لا يتعدّى ملاحظة مواعيد تقديم هذا الدواء أو ذاك إلى طه حسين، وإشعال السيجارة له، واستقبال الضيوف وتقديم السجائر إليهم، واصطحابهم إلى الباب عند انتهاء الزيارة.. كان طه حسين قد توقّف نهائياً وقتها عن التأليف والإملاء، غير أنه ظلّ في حاجة إلى من يقرأ عليه الكتب والصحف حتى ينام على صوت القارئ، فإن توقّف عن القراءة هبّ طه حسين من نومه ليطلب منه استئنافها ثم يعود إلى النوم.

وجاءنا فور مصافحتنا إيّاه واحتلالنا لمقاعدنا صوتُ الزوجة تصيح وتلعن وتسبّ خارج الحجرة، ثم إذا بها تفتح الباب في عنف لتُكْمل صياحها، ثم إذا هي تتوقّف وتسكن إذ ترى ضيوفاً مع زوجها الذي بدرت من جسمه رعدة عند دخولها. غير أنه تمالك نفسه سريعاً وخاطبها مبتسماً بقوله: خمّني من هذان الشابان؟

تأمّلت وجهينا لحظة. فلما عجزت عن الإجابة قال:

ـ هذا ابن الأستاذ المرحوم أحمد أمين.

فصافحتني دون حماس كبير.

ـ وهذا ابن المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق.

فإذا بالمرأة تصرخ وتهلّل، وتحتضن ممدوحاً وتقبّل وجنتيه، وقد تدفّقت منها بالفرنسية تعابير الترحيب الحار. وقد قفز إلى ذهني وقتها ما كان أبي قد حدثني به يوماً عن عمق احترام زوجة طه حسين للشيخ مصطفى عبد الرازق وعظيم إعجابها به.

ثم خرجتْ الزوجةُ بعد أن هَمَستْ في أذن زوجها بحديث غاضب، فهزّ رأسه وعلى شفتيه نصف ابتسامة دون أن يجيبها. فلما عاد الهدوء سألني عن نشاطي في الآونة الراهنة فأجبتُه بأني أكتب مسرحية عن الصراع بين عليّ ومعاوية.

قال: من أية زاوية؟

قلت: من زاوية مثالية عليّ التي أعجزتْه عن فهم احتياجات العصر ورجاله، وإدراك معاوية لهذه الاحتياجات التي كانت قد تغيّرت عما كانت عليه وقت النبي.

ـ صلّى الله عليه وسلم.. أمتعاطف أنت إذن مع معاوية؟

ـ هو المثل الأعلى عندي.

قال ساخراً: يا بختك!

ـ سألتُه في حيرة: ماذا تعني؟

ـ لأني أكره معاوية هذا كراهة التّحريم.. إنسانٌ منافق مارق من الدين، يعصى الرسول عليه الصلاة والسلام في جرأة وقحة، ويُلحق زياداً مجهول النسب بأبيه أبي سفيان، لمجرد رغبته في أن يوثق صلة هذا الوالي بنفسه وبأسرته، مخالفاً بعمله هذا نصّ الحديث النبوي: "الولد للفراش، وللعاهر الحجر". كيف يمكنني أو يمكنك التعاطف معه، بَلْه اعتبارك إيّاه مثلك الأعلى؟!

ـ بيد أن زياداً هذا أثبت بعد هذا أنه من أهمّ الولاة وأعظم الإداريين في تاريخ الإسلام، وأسدى إلى دولته أروع الخدمات.

ـ لا تهمّني خدماته في شيء. هو ابن زانية ما كان لحبيبك معاوية أن يُوليه أمراً من أمور المسلمين.

ونهض محمد شفيق يقدّم له علبة سجائره، فنحّاها جانباً، ومال برأسه إلى الخلف فاغراً فاه، وراح في سبات عميق...

وكانت هذه الجملة العدائية آخرَ ما سمعتُه منه.. ولم نلتق بعد ذلك إلا يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣، حين سرتُ في جنازته أبكيه.

رجاء النقاش

أعجبُ ما في أمر علاقتي برجاء النقاش أن كُلاً منّا تسبّب في تغيير مجرى حياة الآخر من قبل أن نلتقي ونتعارف، وأن تعارفنا ولقاءاتنا القليلة بعد ما حدث كانت غير ذات بال، تقتصر على حفل عشاء أحضره عنده، أو حفل عشاء يحضره عندي، أو حفل عشاء نحضره عند صديق مشترك. ولا كان بيننا تراسل غير برقيتين قصيرتين بعث بهما من قَطَر عام ١٩٨٢، وخطاب مني من بضعة أسطر أشكره فيه على برقيته الأولى. وقد وعدني في برقيته الثانية أن يكتب إليّ خطاباً مفصّلاً. غير أنه لم يفعل. ولم أسمع منه بعدها...

ومع ذلك فقد اتّهمنا قضاةُ محاكم التفتيش بالتواطؤ من أجل نشر مبادئ هدّامة!

***

كنت وقتها أعمل وزيراً مفوضاً بالسفارة المصرية في ألمانيا. وكان محرّر الصحيفة الألمانية Deutsche Tagespost قد طلب مني أن أكتب لها مقالاً بعنوان "اعتبارات غائبة في تقييم الحركات الدينية في العالم الإسلامي"، نشره في صفحة كاملة من عدد ٢٣ ديسمبر ١٩٨١. وإذ نشرت صحيفة "الأهرام" القاهرية بعد ذلك ــ وبعد الفراغ من محاكمة قَتَلة السادات ــ ما يُفهم منه أنها تُفسح صفحات منها وتدعو أهل الرأي إلى مناقشة موضوع ظاهرة الحركات الإسلامية، فقد فكّرتُ في أنه قد يكون من المناسب أن أبعث إليها بترجمة عربية لمقالي.. وبعثت بالمقال إلى أحمد بهاء الدين، وكان صاحب عمود يوميّ بالجريدة، حتى يسعى لدى إدارة التحرير لنشره. والظاهر أنه لم يوفّق، فإذا هو يسلّم المقال إلى أخي جلال، مشيراً عليه أن يحاول نشره في إحدى مجالات دول الخليج العربيّ. فكان أن بعث

بمقالي إلى صديقه رجاء النقاش رئيس تحرير مجلة "الدوحة" في قَطَر، فتلقّى منه برقية بتاريخ ١٨ مارس ١٩٨٢، نصّها:

"أشكركم على مقال الأستاذ حسين الممتاز. سننشره في عدد أول مايو. أرجو أن نحظى بالمزيد من كتاباته. أخوك رجاء النقاش".

بعث إليّ جلال بالبرقية، فبادرت بإرسال خطاب شكر إلى رجاء، مرفق به مقالان جديدان، هما: "فرص نجاحنا في إقامة مجتمعنا على أسس إسلامية"، و"المهدي المنتظر في حياتنا المعاصرة". وانتظرتُ صدور عدد مايو من "الدوحة"، فإذا هو خالٍ من المقال. وعلمتُ بعد ذلك أن السلطات في قطر تدخّلت في آخر لحظة، وبعد إتمام إعداد المجلة للطبع، فأمرت بحذف مقالي لاعتبارات سياسية.

وأصابني غمٌّ تحوّل إلى غمّ قاتل إذ أتلقّى من رجاء برقية بتاريخ ١٤ يونيو خاصة بالمقالين الآخرين، نصُّها: "معذرة إذ أضطر إلى تأجيل نشر مقاليك الرّائعين بالنظر إلى حساسية موضوعيهما. وإني لشديد الامتنان لمساهمتك. سأوافيك بالتفاصيل بريدياً. مع أخلص تحياتي. رجاء النقّاش".

ومرة أخرى يتدّخل جلال في الأمر: إذ ما علم بمصير المقالات حتى بعث بالثلاثة دون علمي إلى رئيس تحرير مجلة "العربي" في الكويت، وإذا بتلك المجلة تنشر المقال إثر المقال. وهو ما أثار دهشة رجاء النقاش إذ تجرؤ مجلة كويتية على نشر ما لم يجرؤ على نشره في مجلته في قطر.

وأعود من ألمانيا إلى مصر، فلا أجد بأساً من أن أحاول كَرَّة أخرى أن أنشر مقالات لي في مجلة "الدوحة"، وأرسل إلى رجاء مقالاً بعنوان: "رسالة في الإصلاح الديني"، فإذا به ينشره على الفور! وأبادر بإرسال آخر بعنوان: "تأملات في حقيقة أمر أبي لهب، يهوذا بني هاشم"، فإذا به ينشره على الفور، وأبادر مرة ثالثة فأرسل آخر بعنوان: "استنكار البدعة وكراهة الجديد، موقف إسلامي أم جاهلي؟"، فإذا به ينشره على الفور، وإذا بالواقعة تقع، وإذا الدنيا بأهلها تموج!

***

نشرت مجلة "الدوحة" مقالي عن استنكار البدعة في عدد أول مارس ١٩٨٣. وفي يوم الأربعاء ٧ مارس، توجّه رجال الشرطة إلى منزل رئيس تحرير المجلة، رجاء النقاش، تحمل أمراً بالقبض عليه، صادراً من رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر، الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود.

لم يكن رجاء يتوقّع أن يصل الأمر ـ بأيّ حال من الأحوال ـ إلى حدّ الأمر بالقبض عليه وتقديمه إلى القضاء. كان أقصى ما ينتظره نتيجة نشره مقالي هجوماً عليه في مجلة "الدعوة" وصحيفة "الخليج" اللتين يهيمن المشايخ عليهما، أو شكوى إلى الأمير، الشيخ خليفة بن حَمَد آل ثاني، وهو صديقه الحميم، يعقبه لفت نظر ودّي، أو حتى الأمر بالامتناع عن نشر أيّ مقال لي في الأعداد اللاحقة من "الدوحة". بل إنه حين دخلت الشرطة مسكنه مسلّحة بأمر القبض عليه، لم يدرك تماماً أبعاد الموضوع وخطورته. وقد كان لحظة دخول الشرطة يستعدّ للسفر بعد ساعة مع الأمير بالطائرة إلى الهند لحضور مؤتمر دول عدم الانحياز في نيودلهي، إذ كان الأمير قد عيّنه ـ رغم جنسيته المصرية ـ عضواً في الوفد الرسمي لقطر إلى مؤتمر القمة. لذلك فقد طلب من الشرطة الانتظار ريثما يتّصل تيليفونياً بالأمير في قصره حتى يتلقّى التعليمات منه. وفوجئ الأمير بالخبر، وطلب التحدّث إلى الضابط، وأخبره أن استدعاء النقاش للمثول أمام رئيس المحاكم الشرعية يمكن تأجيله إلى حين عودته من الهند.

وسافر رجاء مع الأمير. ورغم محاولة الأمير طمأنته أثناء الرحلة على أنه سيتدخّل حتى يُنهي الموضوع بسلام، فقد ساور القلق قلبه على مصيره. فبالرغم من أن الأمير كان يتّسم بقدر من الاستنارة لم يتّسم به أمير قبله، وحصّل من التعليم ما لم يحصّله أحد من أسلافه، فقد كان للرجعيين من المشايخ سلطان في توجيه أمور البلاد يفوق سلطانه. وقد ساءت هؤلاء المشايخ قوة الصلة بين الأمير والنقاش، وتأثير كل منهما في الآخر، وخشوا أن يكون الأمر قد بلغ حدّ التآمر والتنسيق بينهما من أجل ضرب نفوذهم وتقليمه، وبثّ الآراء التحررية التي من شأنها أن توهن من قبضتهم على دفّة الحكم.. وإلى جانب ذلك ثمة عدد كبير من الإخوان المسلمين المصريين ممن هاجر إلى قطر نتيجة ملاحقة الحكومة المصرية لهم، ويربط هؤلاء عادة بين التقدمية في الفكر وبين الشيوعية، ويرون في رجاء

النقاش يسارياً ماركسياً، ويدلّلون على ذلك بتكرر اعتقال السلطات المصرية لأخته فريدة النقاش ضمن الشيوعيين، ولزوجها حسين عبد الرازق رئيس تحرير جريدة "الأهالي"... وهناك أيضاً من المصريين (وهم الأئمة دوماً في ميدان طعن بعضهم بعضاً وإيقاع بعضهم بالبعض، خاصة في الخارج حيث يتصارعون ويتزاحمون على لقمة العيش) مَن لا تحرّكه تلك الاعتبارات الفكرية أو العقيدية التي تحرّك الإخوان المسلمين، وإنما تحرّكه شهوة الحصول على منصب رجاء النقاش، أو هو يحسده على حظوته لدى أمير البلاد، أو لدى وزير الإعلام القطري وغالبية المسئولين في قطر، أو لعلّه واجد اللذّة في مجرّد الوقيعة والدسّ، وإن لم يؤدّيا إلى نفع له. ومنهم صحافيون يكنّون للنقاش الحقد والعداوة منذ كانوا يعملون تحت رئاسته في جريدة "الراية" القطرية، أو منذ التحقوا بالعمل معه في مجلة "الدوحة"، وصار الباعث لديهم في محاولتهم الإيقاع به تصفية "حسابات قديمة" معه.

هذا عن المصريين. أما عن غير المصريين فهناك العاملون في مجال الصحافة والإعلام في بلدان الخليج العربي، ممن يرون في اطّراد نجاح مجلة "الدوحة" إدانة لهم، وفي عبقرية النقاش في التحرير إبرازاً لخمولهم وافتقارهم إلى التميّز، وإحراجاً لهم أمام مستخدميهم.. هذه الكراهية من قِبل الفاشل للناجح أمر شائع مشهور، وأبرز دليل عليها أن تكون أكثر المجلات اهتماماً بهدم مجلة "الدوحة" مجلة قطرية تنفق عليها دولة قطر كما تنفق على شقيقتها، وهي مجلة "الأمة" التي تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ويُشرف عليها عبد الرحمن بن عبد الله آل محمود، قريب رئيس المحاكم الشرعية الذي أمر بالقبض على رجاء وترأس هيئة المحكمة التي حوكم أمامها. فهناك صراع بين مجلة صديق الأمير الرائجة، وبين مجلة قريب الشيخ التي ولدت ميّتة ولا يكاد يشتريها أحد. وكانت الغلبة في النهاية، وبقوة القهر للكاسدة، التي لم تر في رفع مستوى تحريرها حلاً لمشكلة عدم رواجها، وإنما ارتأته في محاولة القضاء على سبب نجاح منافستها.

كان النقاش يدرك كافة هذه الاعتبارات.. ما لم يدركه هو أن هيمنة الرجعيين من المشايخ على دفّة الحكم كانت قد تضخّمت على نحو مفاجئ عقب اشتعال الثورة في إيران. ذلك أنهم رأوا أن السبيل الأوحد إلى درء خطر امتداد الثورة إلى قطر هو المزايدة الدينية، والمزيد من التظاهر بالتعلّق بأهداب الإسلام، والتشدّد في تطبيق أحكامه، ومحاولة إقناع

الأمير نفسه بأنه ما لم يشجّع التيار الديني ويقبل تعزيز نفوذهم من أجل التصدي لذلك الخطر، فقد يدفعهم ذلك إلى محاولة الإطاحة به بمساندة حلفاء لهم من الخارج يهمّهم إبعاد شبح الثورة الإيرانية عن المنطقة.

وتذكّر رجاء النقاش وهو في نيودلهي أنه كان قد أقرّ لعدد إبريل ١٩٨٣ من مجلة "الدوحة" مقالاً آخر لي بعنوان "الكلب في الإسلام" يمكن أن يسبّب له المزيد من المتاعب. (وكان المقال قد تمّ طبعه بالفعل ضمن مواد العدد). فاتّصل تيليفونياً من الهند بمدير التحرير عبد القادر حميدة (وهو أيضاً مصري)، وطلب منه أن يقوم فوراً بسحب الملزمة التي فيها المقال، والأمر بإحراقها... وخلال الأيام الخمسة التي قضاها رجاء مع الأمير في نيودلهي، شَغَلَ المشايخ أنفسهم بالاستعداد للوثوب.. كلّفوا مَن فحص لهم الأعداد السابقة من مجلة "الدوحة" بحثاً عن مقالات لي يعزّز منحاها دعواهم، فوجدوا مقالين شكّلوا لجنة لدراستهما وتقديم تقرير عن محتواهما. وفي يوم الجمعة ١١ مارس ٨٣ تولّى الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية بنفسه إلقاء خطبة الجمعة في المسجد الرئيسي بالعاصمة، وكان مقالي "استنكار البدعة" هو موضوع الخطبة، فوصف المقال بأنه "حلقة خبيثة ضمن خطة لهدم الإسلام"، وذكر أن ما تضمّنه المقال "كفر صريح، وتشكيك في الكتاب والسنّة، وإفساد لعقائد المسلمين"، ووصم كاتبه بالكفر. ولكي يثير الرأي العام عشيّة المحاكمة ضد النقاش، ويحبط أية محاولة من جانب الأمير لتخليصه، ذكر أن رئيس تحرير "الدوحة" المدعو رجاء النقاش، "هو المسئول الأول عن نشر الكفر، وإثارة الفتنة".

وفي نفس اللحظة التي كان الشيخ عبد الله بن زيد فيها يلقي خطبته هذه في مسجد الدوحة، كان إمام مسجد الحرم المكي بالمملكة السعودية يُلقي بذلك المسجد الأخير خطبة يهاجم فيها نفس المقال.

وعاد رجاء النقاش مع الأمير إلى الدوحة مساء اليوم التالي (السبت). واتصل الأمير فور وصوله من قصره بعبد الرحمن الخليفي وكيل وزارة الإعلام، وطلب منه أن يصحب النقاش في صبيحة اليوم التالي (الأحد ١٣ مارس) إلى مقرّ رئيس المحاكم الشرعية، ليخبر الشيخ أن الأمير يوصيه بالتوصّل إلى تفاهم مع رجاء، وبأن يعالج الأمر في حكمة وهوادة، فلا يوصله إلى حدّ ليس من مصلحة أحد أن يصل إليه.. وقد استمع الشيخ عبد الله بن زيد

هازئاً إلى الرسالة وهو يهز رأسه في نفاد صبر، ثم استدعى على الفور أربعة من القضاة الشرعيين كانوا ينتظرونه في حجرة مجاورة، وتم بذلك تشكيل هيئة المحكمة التي تولّت محاكمة النقاش برئاسة الشيخ زيد نفسه.

وسأورد فيما يلي مقتطفات من نصّ حكم المحكمة الذي شغل نحو سبع صفحات، والذي زوّدني بصورة منه سفير مصر في قطر:

***

"الحكم رقم ١١٩٤/ ٢ بتاريخ ١٤٠٣/٦/١ هـ. الموافق ٨٣/٣/١٥م.

سجل جنايات، المجلد الخامس، ص ٣٥٤:

إدارة المحاكم الشرعية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه الغُرّ الميامين.

فبناء على ما رفعه جَمْعٌ من المسلمين بقطر، محتسبين لله تعالى، طالبين الحكم الشرعي في مقالين نُشرا بمجلة "الدوحة" التي تُصدرها وزارة الإعلام بقطر، ويرأس تحريرها المدعو رجاء النقاش، المصري الجنسية، لما تضمّناه من طعن وتشكيك في القرآن الكريم، والسنّة النبوية المطهّرة. وقد اطلع القضاة علىالمقالين المذكورين، وهما للكاتب حسين أحمد أمين المقيم في مصر، الأول بعنوان: "تأملات في حقيقة أمر أبي لهب"، والثاني بعنوان: "استنكار البدعة وكراهة الجديد".

وبتأمّل المقال الأول تبيّن أنه يشكّك في سبب نزول سورة المسدّ الثابت في السنّة الصحيحة، واتّهم المفسرين بالاختراع في أسباب النزول، مع العلم أن هذه السورة ثبت نزولها في البخاري ومسلم وكتب الصحاح الأخرى، كما ثبت أنها مكّية ونزلت في حياة أبي لهب في بدء الدعوة الإسلامية. ومع هذا قال الكاتب: "والغالب في رأينا أن السورة إنما نزلت عقب ورود الخبر بوفاة أبي لهب بعد وقعة بدر عام اثنين من الهجرة بزمن قليل"، مكذّباً بذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة بخصوصها.

كما أنه حاول أن يجعل من الدعوة الإسلامية مجرد نتيجة صراع بين الأثرياء والأقل

ثراء. كما أنه جعل هجرة الصحابة إلى الحبشة من أجل هدف اقتصادي، وجعل الدعوة الإسلامية مجرد حركة طبيعية مادية بحتة نتيجة للصراع الطبقي، كأسلوب الشيوعيين في تفسيرهم لأحداث التاريخ، مما يدّل على أن الكاتب يسعى إلى غرس الفكر الماركسي الشيوعي في أذهان القراء، عن طريق هذه الكتابات المتّصلة بالدين.

وقد حاول الكاتب أن يؤيد آراءه بالافتراء والكذب، فزعم أن أبا لهب قد قام بنُصرة الرسول بعد موت عمّه أبي طالب مدة عام أو بعض عام. كما أنه يشكّك في عقيدة القضاء والقدر لتعرّضه إلى سورة المسد وكتابتها باللوح المحفوظ.

وبتأمل المقال الثاني، تبيّن أنه يقوم على مبدأ التشكيك في السنّة المطهّرة حيث طعن في أحاديث صحيحة يفسّرها بتفسيرات بعيدة كل البعد عن معناها بقصد التضليل على القراء. فقد أورد حديثين صحيحين لا مجال للطعن فيهما بأيّ حال من الأحوال، لا من جهة المتن ولا السند، وهما حديث "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضَبٍّ تبعتموهم"، وحديث "ألا وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإن شرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار"، وزعم أنهما يعارضان القرآن، وخلط بين البدعة في الدين والابتداع في أمر الدنيا لتضليل القرّاء، ورمى الإسلام بمحاربة كل جديد ولو كان في أمر الدنيا، مع أن ذلك غير صحيح. واستهزأ بالآداب الإسلامية كتشميت العاطس، واتّهم الأئمة بالكذب وتزوير الأحاديث حيث قال: "وقد كان هؤلاء المجتهدون يفكرون لأنفسهم، ويراعون في وضعهم الأحكام موافقتها للظروف المتغيّرة في مجتمعهم. غير أنهم سلكوا مسلكاً خاطئاً إذ صاغوا آراءهم المبتدعة في قالب أحاديث نسبوها إلى النبيّ، واختلقوا الأسانيد لها حتى تلقى آراؤهم قبولاً من الأمة، أو على حدّ تعبير بعضهم واعترافه: كنا إذا رأينا رايًا صيّرناه حديثًا!". وهذا محض افتراء على الأئمة. والمعروف أن الأئمة هم الذين حاربوا وضع الأحاديث واجتهدوا في تمحيصها.

وبناء على ما تقدّم فقد تبيّن أن هاتين المقالتين قد دلّتا على القصد السيئ من الكاتب للكيد لهذه الأمة في دينها وعقيدتها. ومما لا يخفى على عاقل أن كل كلمة تُذكر في هذه المجلة، أو في غيرها من المجلات، فإنما المسئول عنها هو رئيس التحرير الذي يملك الحق المطلق في إجازة أيّ موضوع أو مقال للنشر أو عدم نشره.

لذلك فقد أحضرنا رئيس التحرير المدعو رجاء النقاش، المصري الجنسية، وتمّ عرض المقالين المشار إليهما عليه. فاعترف بخطئه في إجازة نشرهما، وقال إن إحدى المقالتين قد طُبعت وهو في السفر، وعلّل الاستمرار في نشر هذه المقالات بأنه لم يجد اعتراضاً عليها من أحد. وقد تبيّن أن رئيس التحرير قد سمح بنشر مقالة سابقة في ديسمبر ١٩٨٢ تتضمن أفكار هذا الكاتب وسوء نيته في المنهج الذي سيسلكه في كتابة المقالات القادمة، تحت عنوان: "رسالة في الإصلاح الديني". كما اعترف رئيس التحرير المذكور بأنه قد أذن في طبع مقالة لتنشر في الشهر القادم تتحدّث عن الإسلام والكلب، ولكنه بعد أن علم باستنكار العلماء لمسلكه هذا وشعر بخطئه، سحب الملزمة وحرقها.

وبذلك كله يُعتبر رئيس التحرير متواطئاً مع الكاتب في نشر هذه المقالات، ومؤيداً لأفكاره فيها. وبما أن ما نُشر يُعتبر كفراً صريحاً، وإفساداً لعقائد المسلمين، وبالتالي فلا يجوز نشره في مجلة تصدر عن دولة إسلامية، دينها الإسلام، وشعبها مسلم متمسك بعروة الدين، وأميرها ووليّ عهده يحرصان على حماية واحترام دين الإسلام الحنيف وأحكامه، ولا يسمحان بالمساس به، وحيث أن ما نُشر قد أثار المسلمين في هذا البلد وفي الخارج، وفي نشر ذلك تشويه لسمعة هذه الدولة عند المسلمين، ويُعتبر رئيس التحرير هو المسئول الأول عن هذا التشويه، وتسخير أموال الدولة المسلمة في نشر الكفر وإثارة الفتنة، وبذلك يكون قد خان الأمانة التي وكلت إليه فلا يستحق أن يكون رئيس تحرير مجلة تنطق بلسان دولة مسلمة تعمل على نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها في كل المجالات.. ولاريب أن من يروّجون لهذه الأفكار، ويُسهمون في نشرها، إنما هم من صنف المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر، ويكيدون للإسلام والمسلمين، ويزعزعون ثقتهم في عقيدتهم وأنفسهم، ويعملون على تمكين الأعداء من النّيل منهم، وتدمير كيانهم، واستباحة أوطانهم وحرماتهم.

لذلك قرر القضاة بالإجماع، أن أقلّ ما يستحقّه رئيس التحرير من العقوبة هو الإبعاد عن البلاد فوراً، ومنع نشر أية مقالات للمدعو حسين أحمد أمين في دولة قطر. كما نوصي كافة الأقطار الإسلامية بعدم تمكينه من نشر سمومه من خلال وسائل إعلامهم.

وقد حكمنا بما ذُكر، وأمرنا بتنفيذه، والله على ما نقول شهيد".

في الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث، (ولم يكن لي بها أدنى علم حتى أوائل شهر إبريل)، كنت مع زوجتي في مكة نؤدي فريضة العُمرة. وفي مطار القاهرة عند وصولي من الحجاز، لمحت عن بائع الصحف نسخة من عدد أول إبريل من مجلة "الدوحة"، فاشتريتها متوقعاً أن أجد فيها واحداً من أربع مقالات لي لم تكن قد نُشرت بعد. فإذا العدد خال من أيّ مقال بقلمي، وإذا باسم رجاء النقاش وقد رُفع من قائمة أسماء محرّري المجلة، وإذا بمقال يهاجمني أقذع هجوم يتصدّر العدد، بقلم كامل زغموت رئيس قسم العلاقات الإسلامية بقصر الدوحة. فما وصلت السيارة بي إلى البيت ـ وقد قرأت المقال خلال رحلتها ـ حتى كان أثر العمرة في نفسي قد تبدّد كلّه أو كاد.

أدركتُ يومها (يوم ٤ إبريل ١٩٨٣) ما أصبح منذ ذلك الحين وإلى اليوم محور أفكاري الإسلامية. وهو ماعنيتُه بقولي في بداية المقال إن علاقتي برجاء النقاش أسهمت في تغيير مجرى حياتي. أدركتُ أنه من بين كافة المشاعر الشريرة التي تتولّد في غياهب النفس البشرية نجد أقبحها وأشدّها شراسة وهمجية تلك العداوات ومشاعر الكراهية الناجمة عن اختلاف الآراء حول الدين، خاصة أنها تتظاهر بالاستناد إلى أسس عقلانية، وتتخفّى وراء قناعٍ من التقوى والبواعث الروحية السامية. ولا أدلّ على ذلك من اتفاق كافة القائمين على محاكم التفتيش على أن أخطر الناس عليهم وعلى مصالحهم التي يسمّونها مصالح الدين، هم أولئك الذين يحترمون الحقائق الجوهرية في التعاليم الدينية، ويعيشون حياة أخلاقية فاضلة، ويسلكون في تعاملهم مع الناس قويم السلوك، ولكنّهم يُصرّون في نفس الوقت على رفض إجبار العقل على قبول ما يأباه، ويرون أن الإيمان بالخزعبلات لا يمكن أن يندرج تحت مفهوم الإيمان بالله.

الأستاذ محمود محمد شاكر

لم ألتق بالأستاذ محمود شاكر غير مرة واحدة؛ يوم ١٢ ديسمبر ١٩٨٣.

كنت في دار الشروق أحادث صاحبها الأستاذ محمد المعلّم حين أخبرني أنه ينوي القيام في الثامنة مساء بزيارة لمحمود شاكر في منزله لتهنئته بفوزه بجائزة الملك فيصل في الأدب، وسألني عما إذا كنت على استعداد لمرافقته.. وإذ كنت شديد التطلّع إلى مقابلة شاكر منذ قراءتي لكتابه الغريب "أباطيل وأسمار" والمقدّمة الشائقة لكتابه عن المتنبي، ولما أحمله من تقدير لجهوده الفذّة في تحقيق كتب التراث، وما أسمعه عن شخصيته القوية، وآرائه الفريدة، وضخامة تأثير في دائرة المعجبين به من حواريّيه، رغم حدّة طبعه، وسلاطة لسانه، فقد رحّبت بمرافقة المعلم إليه، وإن خالط سروري شيء من الوجل والرهبة، والخشية من الاصطدام به إن كان قد قرأ بعضاً من مقالاتي في مجلة "المصور"، أو كتابي "دليل المسلم الحزين".

وتذكرت ونحن في الطريق إليه حديثاً كان قد دار عام ١٩٨٢ بيني وبين صاحب مكتبة "وهبة" بعابدين.. قصدتُ المكتبة لشراء الطبعة الجديدة المنقّحة من كتاب ابن سلام "طبقات فحول الشعراء" الذي حقّقه شاكر. وإذ دخلتُ مع وهبة في حديث عبّرت خلاله عن إعجابي بشاكر كمحقّق، سألني عما إذا كنت أعرف الرجل شخصياً، فأجبتُ بالنفي. فإذا به يتمتم وهو يبتسم:

ـ أن تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه.

وسألته مندهشاً: كيف؟ أتعرفه شخصياً؟

ـ قضينا فترة في السجن في زنزانة واحدة خلال حكم عبد الناصر. وكنت شديد

الإعجاب به قبلها، فلما عاشرتُه إذا هو أثقل الناس وطأة، وأقلّهم أدباً ومراعاة لمشاعر الآخرين.. كنت على استعداد بسبب تقديري العظيم له لأن أكون خادمه في الزنزانة. غير أنه تقبّل خدمتي له كأمر طبيعي، وعاملني معاملة الخادم الأجير.

ـ أيّ نوع من الشخصيات هو؟

ـ فظّ، فظّ، فظّ! وفي ظني أن مفتاح شخصيته يكمن في إحساسه العميق بالفشل رغم ثقافته الأصيلة، ومواهبه الجمة، وفي شعوره بأن حياته قد ضاعت سُدى في حين كان مؤهلاً لأن يكون أكبر كاتب في العالم العربي.. هذا الإنسان الضخم الذي حصّل من الثقافة الإسلامية ما لم يحصّله غيره ولن يحصّله غيره، ماذا أنتج؟ كتاب عاديّ عن المتنبي كتبه في صباه، وديوان شعر هزيل ضحل، وكتاب ضخم في هجاء لويس عوض، ثم تحقيق لبعض كتب التراث.. أهذا إنتاج خليق برجل مثله؟ لقد كان مؤهّلاً لأن يعطي الكثير. غير أنه لم يفعل. وإحساسه بقدراته مع عجزه عن ممارستها جعلا منه إنساناً حقوداً مُرًّا فظًّا لا يطيق أن يرى غيره ينتج ويحرز الشهرة كطه حسين مثلاً الذي لم يحصّل جزءاً من المائة من ثقافة محمود شاكر. وكانت النتيجة أنه راح يدور كالثور الهائج يهاجم ويطعن، ويسبّ ويلعن، وينسب المسئولية عن فشله وقلة إنتاجه إلى آخرين، وعلى رأسهم طه حسين... إنه بكل تأكيد، المثل الكلاسيكي لمرارة الفشل.

ـ أهي حالة شبيهة بحالة زكي مبارك؟

ـ لا يا سيدي.. مرارة الفشل تجمع بين الرجلين، كما تجمع بينهما كراهية طه حسين والميل إلى إلقاء المسئولية عليه. غير أن الفشل في حالة زكي مبارك كان فشلاً في نيل الجاه والثروة والمنصب الرفيع، وهو في حالة محمود شاكر فشل في الإنتاج. وهو الآن وقد جاوز السبعين وبدأت قواه تضعف ونظره يذهب، كلما لمس من الناس إعجاباً وتقديراً زاده ذلك التقدير ثورة ومرارة وهياجاً إذ يزيد من إحساسه بأنه أضاع حياته هدراً ولم ينتج ما كان بوسعه إنتاجه من مؤلفات تهزّ الحياة الفكرية عندنا هزًّا... إنني لا أحب لويس عوض، وأشارك محمود شاكر رأيه فيه.. ولئن قارن بالله عليك بين حجم إنتاج لويس وحجم إنتاج شاكر، بين نشاط لويس وتوهّجه وكسل شاكر وقعود همّته، بين تأثير هذا في حياتنا الثقافية وتأثير ذاك.

وصلنا إلى الشقة ففتح لنا بابها ابنه فهر. وإذ دلفنا وراءه إلى الصالة، إذا بمحمود شاكر وأم فهر وابنته، وقد اجتمعوا حول جهاز التيليفزيون يتابعون إحدى حلقات تمثيلية مسلسلة.. وقد كانت صدمة لي أن أرى هذا العملاق المخيف جالساً أمام التيليفزيون يضيع وقته في مشاهدة تمثيلية غثّة. غير أنه ترك مقعده أمام الجهاز عن طيب خاطر، واصطحبنا إلى صالون صغير ملحق بالصالة. وإذ اعتذرنا له عن قدومنا في وقت غير مناسب ودعوناه إلى إكمال مشاهدة التمثيلية، تظاهر ضاحكاً بعدم المبالاة بتفاهات التيليفزيون.

هنّأه المعلم بجائزة الملك فيصل وكان واضح السرور بها. وعندما عرّفتُه بنفسي لم ألحظ في وجهه أيّ ردّ فعل، فأيقنتُ أنه لم يقرأ شيئاً من كتاباتي، كما رجّحتُ ـ بسبب فتور ترحيبه بي ـ أنه لم يكن على علاقة طيبة بأبي... ثم بدأنا نتحدّث عن الجائزة، فقال شاكر في مرارة إنه رغم أهميتها العظمى، ورغم أنه شرف عظيم لمصر أن تُعطى الجائزة لأحد أبنائها، لم تتحدّث أيّ من الصحف أو المجلات المصرية ولو في سطر واحد عن فوزه بها، وهو ما ارتآه دليلاً قاطعاً على أن ثمة مؤامرة حكومية ضدّه.. غير أن محمد المعلم نفى أن يكون الإغفال مقصوداً، ونسبه إلى قصور من صحافتنا في تغطية الأخبار.. ثم قال:

ـ سأتصل الليلة بأحد المحرّرين في الأهرام وأطلب منه أن يكتب مقالاً في الموضوع.

ـ هيهات يا سيدي، هيهات! أليس كافة موظفي الأهرام من تلاميذ حسنين هيكل، ذلك الذّنب الأكبر للاستعمار الغربي؟.. أتحسب أن أحداً من زملائي الأفاضل أعضاء المجمع اللغوي خَطَر في ذهنه أن يُهنئني على فوزي بالجائزة؟ لا يا سيدي. بل إن منهم من بلغت به القحة حدّ الاستهزاء أمامي بقيمتها الأدبية.. غير أني لم أعبأ بالردّ أو المعاتبة، إذ ماذا عساي أن أتوقّع من أناس كهؤلاء؟

ولاحظ المعلم بعد فترة من الحديث أن شاكراً لم يوجّه إليّ كلمة منذ أن استقرّ بنا المجلس، ولا هو التفت إليّ بوجهه أثناء حديثه، فحسب أنه لم يسمع اسمي واضحاً حين عرّفتُه بنفسي. فانبرى يقول:

ـ الأستاذ حسين أمين هو ابن أستاذنا المرحوم أحمد أمين.

قال شاكر: أعرف ذلك.

ـ وقد نشرنا له مؤخّراً كتاباً بعنوان "دليل المسلم الحزين" أحرز نجاحاً عظيماً..

سأُرسل إلى سيادتك في الصباح نسخة منه.

فإذا بمحمود شاكر يشير بذراعه إلى الباب المفتوح لغرفة مكتبه (إشارة إلى أن الكتاب موجود بها)، ويتمتم قائلاً: قرأتُه.

قلتُ في دهشة: قرأتَ سيادتك "دليل المسلم الحزين"؟

ـ أيوه يا سيدي!

ـ وما رأيك فيه؟

ـ فَوِّت! (أي لا داعي للحديث عنه).

ـ اسمح لي بأن أصرّ على سماع رأيك مهما كان.

اعتدل في مجلسه ليواجهني، ثم قال:

ـ أتحسبني غافلاً يا سيد حسين عما تفعله؟ أتحسبني غافلاً عن نواياك وخططك من وراء مقالاتك في "المصور" أو كتابك هذا؟ لا يا سيد حسين! لا أنا بالغافل ولا أنا بالأبله حتى أسمّيك كما أسماك عبد العظيم أنيس منذ أسبوع في "الأهالي" بالكاتب الإسلامي المستنير.. ما معنى "الإسلام المستنير" بالله عليك؟ أهناك إسلام مستنير وإسلام غير مستنير؟ أم أن الإسلام كلّه نور ومن لم يستنر به لا يجوز وصفه بأنه مسلم؟.. الكاتب الإسلامي المستنير حسين أمين! محمد عمارة! فهمي هويدي! حسن حنفي!! دعني أقول لك إن كل ما تكتبونه هو عبث أطفال. نعم، مجرد لعب عيال! كلكم أطفال.. يقرأ أحدكم كتابين أو ثلاثة فيحسب نفسه مجتهداً ومؤهلاً للكتابة عن الإسلام والإصلاح والاستنارة!.. محمد عمارة هذا تبلغ به الصفاقة والادّعاء والجهل مبلغاً يجعله يصف كتاب محمد عبده "رسالة التوحيد" بأنه من أهم ما كُتب في التراث الإسلامي في علم الكلام! لا يا شيخ؟!! هل قرأت يا سيد عمارة كل ما كتب في التراث الإسلامي في علم الكلام ثم وصلت إلى اقتناع بأن هذا الكتاب الهزيل الحقير الغثّ لمؤلّفه ضحل الثقافة، من أهمّ الكتب في الموضوع؟! ما هذا العبث وهذا الاستغلال لجهل الناس؟! لا.. الأمر أخطر من ذلك.. إنها مؤامرة!

ـ مؤامرة؟

ـ مؤامرة تستهدف تمجيد رجلين من أخطر عملاء الاستعمار في تاريخ أمة الإسلام: جمال الدين الأفغاني الماسوني، ومحمد عبده الصديق الصدوق للورد كرومر.

ودخلت زوجته، بعد انتهاء التمثيلية التيليفزيونية، تدور علينا بأكواب الشاي. فرشف شاكر من كوبه رشفةً بصوت هائل. ثم عاد يتمتم:

ـ نعم. تبدو مندهشاً. غير أني قائل لك إن المسئولية عن معظم ما يعاني منه الإسلام اليوم تقع على عاتق هذين الخبيثين، خاصة الأفغاني الذي هو أسّ الفساد كله.. وقد تعجبان إن قلت لكم إنني متفق مع لويس عوض في الرأي بأن الأفغاني كان مجرد متآمر وأنه لم يكن صحيح الإسلام. وعلى أيّ حال فإن رأي لويس ليس جديداً، وكلّ هذه الأمور كانت معروفة عن الأفغاني حتى أثناء حياته.

وبدا محمد المعلم نفسه مذهولاً، رغم صلته الوثيقة القديمة بشاكر. فكان أن خيّم علينا الوجوم، وساد المجلس سكونٌ لم يقطعه غير صوت احتساء ربّ الدار لشايه وقد بدا غير عابئ بما أصابنا.

ـ ألف حسرة على العالم الإسلامي وأمة الإسلام!... جهل مطبق بالفكر الإسلامي وبالتاريخ الإسلامي.. تدهور رهيب في اللغة العربية.. نظم التعليم في مدارسنا غربية محضة.. حتى الجماعات المسماة بالإسلامية ألقت بتراث أربعة عشر قرناً في صندوق القمامة.. نعم. ولكنهم ينبرون للتهليل لإسلام جارودي وكأنه حدثٌ هام في تاريخ الإسلام، وذلك لمجرد أن هذا الأفّاق الانتهازي نطق أمامهم بالشهادتين، وأثنى على الإسلام في كتب له كلّها أخطاء وكفر ومغالطات.. وبعضهم يهلّل للخميني والثورة الإيرانية والاثنا عشرية، وما منهم من يدري أن الاثناعشرية هم غُلاة الشيعة لا معتدلوها كما يزعمون، وأن الخميني كافر زنديق.

ـ كافر زنديق؟

ـ بالتأكيد.. ألم يقل بتحريف القرآن وتزنية عائشة؟

قلت: إزاء فداحة اتهامك للأفغاني ومحمد عبده، سأكون شاكراً لو فصّلت لنا الأمر.

ـ وسأكون أنا شاكراً لو غيّرتَ الموضوع!

ـ وهو كذلك.. هل لي أن أسألك سؤالاً يحيّرني منذ مدة؟

ـ قل.

ـ ما السبب يا تُرى في قلة إنتاجك مع غزارة علمك؟

امتقع وجهه امتقاعاً شديداً لسؤالي، وخُيّل إليّ للوهلة الأولى أنه في سبيل أن يسبّني سبًّا غليظاً. غير أنه سرعان ما تمالك نفسه وقال في هدوء:

ـ لماذا توقّفتُ عن الكتابة بعد صدور كتابي عن المتنبي؟ أقول لك بكل بساطة يا سيد حسين إنني خشيت على نفسي من أن يصيبني الغرور.. لقد كتبتُ "المتنبي" في أيام الحداثة، ووصلني بعد صدوره أكثر من ثمانين رسالة تثني عليه وترفعه إلى السماء. وظللت مدة لا تكاد الدنيا تسعني من النشوة والزّهو، إلى أن أفقت لنفسي. أفقت لنفسي وقررت التوقف عن الكتابة، بالضبط كما فعل الشاعر عليّ محمود طه ولنفس السبب... الكتابة لا تهمّني، وإنما تهمّني نفسي وتقويم ذاتي.. وكان أن انصرفتُ إلى تحقيق الكتب القديمة، وبذلت كل جهدي وطاقتي في أن يكون التحقيق غاية في الدقة والإتقان.

ـ غير أنك توقّفت عن إكمال تحقيقك لتفسير الطبري.

قال في ضيق وهو يتململ في مقعده:

ـ نعم.. لأن الناشرين معظمهم لصوص.. لا مؤاخذة يا محمد بك! ولأن الناس لم تعد تقرأ.. فإن قرأوا فليست الكتب الجادّة هي التي يقرأونها، وإنما يقرأون لأنيس منصور، ومحمود السعدني، ومحمد عمارة..

ـ وحسين أمين.

ـ وحسين أمين!

ـ هل لي أن أسألك عن علاقتك بوالدي كيف كانت؟

ابتسم ابتسامة خبيثة ثم قال: فوّت!

ـ لا يا أستاذ شاكر لن أفوّت.

ـ لم أكن أحبّه.

لحظة صمت.

ـ ولم؟

ـ ما كل هذه الأسئلة المحرجة؟ تريد أن تعرف لماذا لم أكن أحبّه؟ حسناً. لم أكن أحبّه لأنه كان رجلاً خبيثاً داهية.

ـ لم يكن ثمة رجل أطيب قلباً ولا أبسط من أبي.

وانفجر شاكر ضاحكاً. ولدهشتي البالغة إذا بمحمد المعلم هو أيضاً يشاركه الضحك لقولي إن أبي كان طيب القلب.. قال المعلم:

ـ لا تؤاخذني يا حسين بك. ولكن المرحوم الدكتور أحمد أمين لم يكن طيب القلب على الإطلاق. ولا كان رجلاً بسيطاً.

ـ كيف؟ كيف؟

قال شاكر: لن نخوض في هذا الأمر.. عبد الوهاب عزام، على عيوبه، كان رجلاً طيباً بسيطاً، أما أحمد أمين فلا. ولكنه على أي الأحوال لم يكن في خبث طه حسين ودهائه ومكره.. غير أن ما أعيبه حقيقة على أحمد أمين هو أنه، وهو الرجل العالم المثقف الذي كان بوسعه أن يقدّم فكراً جديداً مبتكراً في ميدان الدراسات الإسلامية، والذي يُجبُّ علمُه علم كافة المستشرقين، استسلم وأذعن لتأثير طه حسين وآرائه، ووقف موقفاً ذليلاً من أحكام المستشرقين الخبثاء الحاقدين على الإسلام، وتبنّى في كتبه "فجر الإسلام وضحاه وظهره" هذه الأحكام، دون أن يجرؤ على تفنيدها والتصدّي لها.. ما هذا الذّل؟ ما هذه الاستكانة وهذا الضعف، سواء منك أو من أبيك، تجاه المستشرقين الغربيّين؟ أهُمْ أدرى بتراثنا وأقدر على إصدار الأحكام بصدده من علمائنا نحن الذين نهلوا من هذا التراث مع لبن أمهاتهم، ونشأوا عليه منذ نعومة أظفارهم؟ كيف يكون من حقّ "خواجة" بدأ في تعلم العربية في سن العشرين أو الثلاثين، ويظل "يتهته" بها إلى أن يموت، أن يُدلي برأي في المعلقات السبع، وأن يصدر حكما على المتنبي أو أبي العلاء؟ كيف تسوّغ لمسيحي صليبي نفسه أن يتحدث عن الأشاعرة أو المعتزلة حديث الواثق المطمئن لمجرد أنه قرأ كتابين أو ثلاثة في الموضوع؟ أيجوز لي، وأنا العربي، مهما بلغ إتقاني للغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي، أن أؤلف كتاباً عن تشوسر شبيهاً بذلك الذي كتبه بلاشير الفرنسي عن المتنبي؟ هل أسمح لنفسي، وأنا المسلم، أن تبلغ بها الصفاقة والغرور حدّ الكتابة عن دقائق الاختلاف بين المذاهب المسيحية؟ كيف يمكن لعالمٍ إسلامي فذّ كأحمد أمين أن يقع في فخّ هؤلاء الصليبيين؟ الأمر في حالة طه حسين أيسر فهماً؛ فهو لم يقع في الفخّ، وإنما قرر باختياره الحرّ أن يشارك الصليبيين في نصب الأفخاخ لبني قومه ودينه. أما أحمد أمين، بالرغم من ذكائه وعلمه وصدق إسلامه، فقد وقع "زيّ الشاطر" في حبائل الشيطان.

واستطرد يقول:

ـ كلّمني هذا الصباح المدعو مارسدن جونز الأستاذ بالجامعة الأمريكية في القاهرة، يريد أن يجتمع بي.. رفضت، وقلت له إنني لا أريد أن أجتمع به.. أتسمع عن مارسدن جونز هذا؟

ـ محقّق كتاب "المغازي" للواقدي.

ـ آه! حتى أنت قد صدّقت هذه الأكذوبة كسائر الناس.. مارسدن جونز لم يحقّق مغازي الواقدي ولا بذل فيه إلا أضعف الجهد.. وهذا هو السبب في أني رفضت مقابلته. فقد حدث يوماً أن جاءني رجل مصري غلبان اسمه عبد الفتاح الحلو، وأخبرني أنه هو الذي حقق كتاب المغازي من أوّله إلى آخره بناء على تكليف من مارسدن جونز ومقابل بضعة جنيهات كان في حاجة ماسة إليها، ولم يظهر اسمه على الغلاف لا باعتباره محققاً ولا حتى باعتباره مشتركاً في التحقيق، واكتفى جونز بالإشارة إليه في المقدمة باعتباره أحد الذين قدّموا له العون أثناء تحقيقه للكتاب!! هذا مجرد مثل لأخلاقيات هؤلاء المستشرقين الذين تغنّى والدك بفضلهم!

ـ وما الذي مال بك إلى تصديق زعم عبد الفتاح الحلو دون تصديق زعم مارسدن جونز أنه محقّق الكتاب؟

قال شاكر في ضيق وهو يتململ في كرسيّه مؤذناً بانتهاء الجلسة:

ـ الذي مال بي إلى تصديق زعم الحلو يا سيد حسين هو معرفتي بأخلاقيات المستشرقين.. بالمر، جيب، ماسينيون، مرجوليث، شاخت، كلّهم خنازير استعماريون. وإني لأردّ على كل عربي يتحدّث عن فضل هؤلاء سواء في تعليمنا المنهج العلمي في تحقيق التراث أو في كتابة التاريخ أو غير ذلك، بأن المسلمين هم الذين خرجوا على الدنيا في عصرهم الذهبي بالمنهج العلمي في التأليف، وهم الذين ابتدعوا وضع الفهارس للكتب لا الغربيون كما يزعمون... لقد وضعتُ بنفسي فهارس كتاب المقريزي "إمتاع الأسماع" الذي حقّقته، فوصلتني رسالة من مستشرقٍ فرنسي شهير يُبدي فيها انبهاره بروعة هذه الفهارس، ويقول إنه ليس بوسع أيّ غربيّ أن يأتي بمثلها..

ـ أهو أيضاً خنزير هذا المستشرق؟

احمرّ وجهه ولم يلتفت لسؤالي. ومضى يقول:

ـ المسألة إذن ليست مسألة فضل، وإنما هي تتعلّق بخيبة المسلمين المحدثين حيال تراثهم.. كلّ الأمور معنا تسير من سيئ إلى أسوأ، في الثقافة، والسياسة، والاقتصاد، والأخلاق، أو ما شئت. والله سبحانه وتعالى إنما يعاقبنا على ما نرتكب وما نهمل، وهو على كل شيء قدير.

وتحرّك في مقعده حركة من يهمّ بالوقوف، فنهضنا على الفور للانصراف.

ـ بدري يا جماعة!

وكرّر محمد المعلم عند باب الشقة وعده بأن يتصل بالمحرّر في "الأهرام" حتى يكتب عن الجائزة. قال شاكر:

ـ لا تتعب نفسك. لن ينشروا شيئاً.. إنها مؤامرة يا صديقي، وعزمٌ قاطع من جانب السلطة على ألاّ يُذكر اسم العبد الفقير في الصحف والمجلات لا بخير ولا بشرّ حتى ينسى الناسُ وجودي.. لا بأس.. لا بأس.. شرّفتم.. خطوة عزيزة.

وعاد المعلم يهنّئه بالجائزة. غير أني حين حاولت أن أحذو حذوه لم يطاوعني لساني.

مكرم محمد أحمد

طوال النصف الأول من عام ١٩٨٣ كنت أمرّ بفترة ركود واكتئاب وحيرة بسبب حكم رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر يوم ١٥ مارس ١٩٨٣ بفصل رجاء النقّاش من رئاسة تحرير مجلة "الدوحة" لنشره مقالات لي فيها، وبإبعاده عن البلاد فوراً، "وإيصاء كافة الأقطار الإسلامية بعدم تمكين حسين أحمد أمين من نشر سمومه من خلال وسائل إعلامها". فقد أثار هذا الحكم خشية رؤساء تحرير الصحف والمجلات، في مصر وخارجها، من عواقب النشر لي.. ثم كان أن اغتنمت فرصة قيام أنيس منصور يوم ٣ يوليو ٨٣ بنشر مقال افتتاحي كامل في مجلة "أكتوبر" بعنوان "شفاء المسلم الحزين" خصّصه لتقريظ كتابي الأول، فبعثت إليه بمقال عن "عودة النساء إلى الحجاب" نشره على الفور، وطلب مني حين قابلته في مكتبه أن أوافيه بالمزيد، فكان أن توقّعت أن تكون مجلة "أكتوبر" هي ميداني في المرحلة التالية.. غير أن القدر كان يريد لي طريقاً آخر.

في صباح ٢٥ يوليو كنت جالساً مع يوسف القعيد في غرفته الضيّقة المتربة بدار الهلال حين استأذن أن يتركني مدة خمس دقائق. وعاد بعد تلك الدقائق الخمس فواصل حديثه معي حتى رأيته يهبّ واقفاً فجأة ويتّجه مسرعاً إلى الباب للتحدّث إلى رجل عنده جاء في طلبه. ونظر الرجل إليّ ثم إلى القعيد كالمستفهم عن هويّتي، فأسرع يوسف يعرّفه بي:

– الأستاذ حسين أحمد أمين مؤلف "دليل المسلم الحزين" والمتسبّب في نكبة رجاء النقاش.

ثم التفت إليّ يقول: الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس مجلس إدارة دار الهلال ورئيس تحرير مجلة "المصور".

(اعترف لي يوسف القعيد ضاحكاً بعد عدة أشهر بأنه إنما استأذن مني مدة خمس دقائق حتى يخطر مكرم بوجودي في مكتبه).

صاح مكرم وهو يشدّ على يدي في حرارة: موش معقول! يا راجل، يا راجل! أمجلة "أكتوبر" مجلة يكتب فيها أمثال حسين أمين، كيف؟ ولا تكتب للمصور؟! إننا نجاهد في سبيل قضية واحدة، ونفس المبادئ، وهي بالضبط عكس قضية "أكتوبر" إن كان لأكتوبر قضية! لا يا سيدي. نحن نريدك هنا، في صفوفنا. وسيكون من دواعي فخرنا أن تكون أحد كُتّاب "المصور" المنتظمين في الكتابة لها.

أجبتُ وقد هزّني حسن استقباله لي: إنني أحوم حول "المصور" منذ زمن أدرّب نفسي حتى أصبح أهلاً للكتابة لها.

ـ بل الشرف لنا نحن إن أنت قررت النشر فيها.

وحانت منه التفاتة إلى حقيبتي السوداء. ولدهشتي الشديدة إذا بيده تمتدّ إليها فيأخذها مني ويشرع في فتحها دون استئذان، قائلاً:

ـ أعندك مقال لنا الآن في هذه الحقيبة؟

ـ فيها مقالان كنت أنوي تسليمهما اليوم إلى أنيس منصور.

ـ دعني أراهما.. "حاجة المسلمين إلى أدب الحوار في الدين"، و"دفاع عن الكلاب في الإسلام".. سآخذهما.

ـ كنت قد وعدت الأستاذ أنيس أن أسلّمه مقالاً اليوم.. خذ "دفاع عن الكلاب في الإسلام" وسأعطيه "حاجة المسلمين"..

ـ وهو كذلك، مع رجائي أن تقتصر بعد ذلك على الكتابة للمصور.. إنك صاحب رسالة، ونحن أصحاب رسالة. وقرّاء المصور هم جمهورك الحقيقي لا قرّاء "أكتوبر".. إنني سعيد للغاية بالتعرّف بك، وآمل أن يكون فاتحة تعاون مثمر بيننا.

ثم انصرف آخذاً يوسف القعيد معه، وبقيت وحدي في شبه ذهول لهذا التطور. وأحسست بأنه أحد الأيام الحاسمة في حياتي.

وعاد القعيد بعد دقائق مبتسم الوجه:

ـ الأستاذ مكرم سعيد جداً بلقائك وباستعدادك للكتابة لنا.. ولكننا نرجوك ألا تعاود

الكتابة لأكتوبر.. سندعك هذه المرة تنشر "حاجة المسلمين.." فيها، شرط أن يكون هذا هو المقال الأخير لك فيها. وستدرك ما نعني حين تلمس الفارق بين صدى مقالاتك هناك، وصدى مقالاتك في "المصور" التي باتت منذ أن تسلّمها الأستاذ مكرم أرقى مجلة للمثقفين في العالم العربي...

* * *

في ٣٠ يوليو زرت مكرم في مكتبه لتسليمه نسخاً من كتبي، ومقالين جديدين لي، ولتوديعه عشية سفري إلى العجمي لقضاء إجازتي السنوية. وكان أن طلب مني أن أسلّم ما أكتبه من مقالات أثناء الإجازة للمحررة سميرة شفيق الموجودة وقتها في العجمي مع زوجها الرسّام إيهاب شاكر والتي تحضر إلى القاهرة كل يوم أربعاء لحضور اجتماع هيئة تحرير "المصور".. وفي يوم ٢٠ أغسطس أخبرتني سميرة عقب عودتها إلى العجمي من القاهرة أنها قابلت مكرم في مصعد دار الهلال صباح اليوم السابق وأنها سلّمته مجموعة المقالات التي أرسلتُها معها، فسألها مبتسماً: أتقرئين كتاباته؟

ـ نعم.

ـ وما رأيك فيها؟

ـ جيدة.

ـ أقرأتِ مقاله "سير ريتشارد بريتون في مصر"؟ أعتقد أنه خير مقال نُشر في "المصور" خلال عام.

ثم أضاف قوله: سيكون لهذا الرجل شأن في مجلتنا.

* * *

تطاول شهر العسل مع "المصور" حتى مارس من العام التالي (١٩٨٤).. كانت أسعد فترة في حياتي: فترة مجد وشهرة. وقد كان واضحاً أن مكرم يهدف ويخطط لدفعي إلى الأمام، وإحلالي في الصف الأول من الكُتّاب. فاسمي وعناوين مقالاتي هي دائماً على غلاف المجلة، وفي الإعلانات عنها بالصحف.. فإن منحتني الحكومة الألمانية وسام الاستحقاق

الأكبر نشرت المجلة صورة كبيرة للسفير الألماني بالقاهرة وهو يقلّدني الوسام. وإن فاز كتابي "دليل المسلم الحزين" بجائزة أفضل كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨٤، أبرزت المجلة الخبر. ثم ها هو يوسف القعيد يكتب المقال إثر المقال عني، ويصفني "بالظاهرة الفريدة في أيامنا هذه" وبأني "صوت مستنير يكمل المشوار الذي بدأه محمد عبده".. إلى آخره.

عدتُ من إجازتي السنوية وتوجهت إلى دار الهلال لمقابلة مكرم. فلما دخلتُ عليه مكتبه إذا هو في اجتماع مع نحو خمسة عشر محرراً من هيئة تحرير "المصور".. هممتُ أن أعود أدراجي، غير أنه هبّ واقفاً مرحبًا، وأشار إلى الحاضرين أن يهبّوا من مقاعدهم كي يعرّفهم بي ويعرّفني بهم. تماماً كما يشير المدرس إلى التلاميذ بالوقوف حين يدخل ناظر المدرسة الفصل.. ثم ها هو يستدعي مصوّر الدار يطلب منه التقاط صور لي. أو ها هو يطلب منّي كتاباً من تأليفي لتنشره دار الهلال، أو ينقل إليّ إعجاب هذا الوزير أو ذاك بمقالاتي، أو يهتف بي حين آتي إليه بمقال قبل الموعد الذي حدّده: "إن التعامل معك متعة يا سيادة السفير".. وسرعان ما أحسّ موظفو دار الهلال جميعاً بأن لي وضعاً خاصاً، فانعكس هذا الإحساس منهم على مسلكهم تجاهي.. كنت أدخل الدار ملكاً متوجًا، الجميع يحيّونني في حرارة، أوبّخ المراجعين والمصحّحين على ما يرد في مقالاتي من أخطاء مطبعية وكأنّي ربّ عملهم، وإن طلبتُ مقابلة مكرم من سكرتيرته ابتسمت مرحبة وأشارت إليّ أن أدخل لأن مثلي في غير حاجة إلى الاستئذان.

***

ومع ذلك فقد ظل الرجل دائماً سرًا غامضاً لا أستطيع سبر أغواره.. "رجل غويط" بكل ما تحمله العبارة من معان.. هو صحفي من الطراز الأول نعم، ذو حاسة صحفية نادرة لم ألمس مثلها في غيره، وقدرة خارقة على اكتشاف المواهب، وجسّ نبض القراء، ومعرفة من أين تؤكل الكتف، واكتناه رغبات رجال النظام وتوجّهاتهم ثم مسايرتها في كفاءة تامة. وهو مع ذلك ذو مبادئ وقضايا واتجاهات ليبرالية معينة يخدمها في إصرار، ويحاول إقناع المسئولين في الدولة بها. غير أنه لم يكن ليفتح قلبه لأحد، ولا يفصح لمخلوق عما يدور

في خلده، نادراً ما يرفع عينيه لمقابلة عينيْ محدّثه، ويظل طوال حديثه إليك يقلّب ناظريه فيما على مكتبه وكأنه يبحث عن ورقة أو ولاّعة أو مفتاح، وطوال حديثك إليه يقلّب فكره في أمور أبعد ما تكون عن موضوع الحديث وهو ينكش منخاره بسبّابته دون حرج، شأن الإمبراطورة التي تتجرّد من ملابسها أمام خدمها وكأنهم أصنام دون أحاسيس.. ورغم أنه كان يتمتّع بولاء مطلق من جانب عدد من المحررين، يؤمنون به وبكفاءته النادرة، فقد كان ثمة آخرون في دار الهلال يمقتونه ويسيئون به الظن، ويتحدّثون من وراء ظهره عن ديكتاتوريته في الإدارة، وخشونة معاملته، وبذاءة لسانه، ورفضه المتكرر نشر ما يتقدّمون به من مواد.

وقد فاجأتني منه عدة مواقف حِرْتُ وقتها في تفسيرها. من أمثلتها أن زميلي في وزارة الخارجية مصطفى الفقي ناولني في يوم من أيام مجدي مقالاً له، طالباً أن أتوسّط له لدى مكرم حتى ينشره في "المصور". فلما أعطيت المقال لمكرم ألقى عليه نظرة خاطفة، ثم طرحه في أحد أدراج مكتبه دون اكتراث، ودون أن يعد بشيء، معطياً أيّاي انطباعاً بأن المقال سرعان ما سيأخذ طريقه إلى سلّة المهملات.. ثم حدث أن كنت معه في مكتبه بعد شهر أو شهرين حين دخلت السكرتيرة تخبره بأن مصطفى الفقي بالباب يريد أن يقابله. فإذا بمكرم يهبّ سريعاً وفي لهفة من مقعده، ويتوجّه بخطى سريعة إلى الباب للترحيب بالضيف، وإذا هو يحتضنه ويبالغ في إظهار الحفاوة به.. وقد أصابني العجب الشديد وقتها، وهو عجب سرعان ما زال حين علمت بعد أيام بتعيين الفقي سكرتيراً خاصاً لرئيس الجمهورية.

بعد نشري لعدة مقالات في "المصور" في موضوعات مختلفة، رجاني مكرم أن أركّز في مقالاتي التالية على الإسلاميات بوجه عام، وعلى موضوع مطالبة الإسلاميين بتطبيق أحكام الشريعة بوجه خاص.. وقد كان.. وكان أن أثارت مقالاتي الإسلامية زوبعة هائلة من الثناء والمديح، والهجاء والتجريح، يندر حدوث مثلها في مصر. فكان البعض يشيد بها ويرفعها إلى السماء، والبعض يهاجمها ويلعن كاتبها ويخسف بها الأرض، والجميع يشهد في إعجاب، أو يقرّ في استياء، بأنني "نجم الموسم".

وجدت نفسي وسط هذه الزوبعة وقد أصابني دوار الزهو الشديد، والغبطة الزائدة،

خاصة وقد بدأت تنهال عليّ الخطابات والمكالمات التيليفونية بالتهنئة على مقالاتي والتأييد لمواقفي من أناس مثل: يوسف إدريس، وأحمد بهاء الدين، وإحسان عبد القدوس، وأمينة السعيد، ولويس عوض، ومصطفى مرعي، وعبد العظيم أنيس، ونوال السعداوي، وميلاد حنا، وفتحي رضوان نفسه. بل ولم أتأثر إذ يصفني مفتي الديار المصرية عبد اللطيف حمزة في إحدى المجلات بأني لست أميناً على الإسلام، وإذ يهاجمني خطباء المساجد في خطب الجمعة ويصبّون نقمتهم على رأسي ويحذرون الناس من الزواج من بناتي! غير أن الزوبعة امتدّت إلى داخل دار الهلال نفسها، إذ أثارت مقالاتي في "المصور" ثائرة عدد كبير من المحررين، ثم تجاوز السخط المحرَّرين إلى عمال المطبعة، فإذا بأحدهم يدسّ عنواناً فرعياً في مقالي عن "الاتّجار بالدّين"، فيظهر عدد ١٦ فبراير ٨٤ وفي طيّات المقال عبارة "حسين أمين حاقد على الإسلام"، وهو ما دعا مكرم إلى الاتصال بي تيليفونياً للاعتذار، وليخبرني أنه أمر ببدء التحقيق مع ثمانية من الموظفين في هذا الشأن.

أذكر أيضاً أنني التقيت في تلك الفترة بصديق الصبا المؤرخ والقانوني البارز طارق البشري، ودامت جلستنا بنادي الصيد في الدقي نحو ثلاث ساعات... قال إنني حرّ بطبيعة الحال في التعبير عما أشاء من آراء. غير أن ما يأسف له حقاً هو أن يراني وقد وقعتُ في شِباك مكرم محمد أحمد ومَن وراؤه من المسئولين، يستخدمونني لتحقيق مآربهم، ثم يلقون بي جانباً كقشرة الليمونة بعد عصرها حين تنتهي مهمتي.. أجبته بأن الأمر الوحيد الذي يهمّني هو التزامي بألا أعبّر إلا عن آرائي وألاّ أتملّق المسئولين. فإن كان صحيحاً ما يزعمه عن "استخدام" مكرم لي، فإني أؤكد له أن مكرم لم يحاول مرة واحدة أن يدفعني إلى أن أقول ما لا أريد قوله، ولا فَعَل أكثر من أن رجاني التركيز على الإسلاميات. ثم ذكرتُ لطارق جملة وردت في كتاب كينيث جالبريث "السلطة" عن كيف كان بوسع آراء المفكرين القدامى أن تنتشر بين الناس بمجرد نشرها في كتاب أو صحيفة. أما اليوم، في عصرنا هذا، فليس بمقدور أي فكر أن ينتشر ويسود إلا إن كانت وراءه سلطة أو قوّة أو تيارات تريد لهذا الفكر أن يعمّ. وقلت إن أفكاري الإسلامية صادف أن وجدت في "المصور" وفي مكرم محمد أحمد مثل هذا السند الذي تحدّث جالبريث عنه، دون أن يفرض مكرم عليّ اتجاهاً، أو يوحي إليّ بأفكار.. قال طارق: "بل سيؤدي بك في النهاية غرامك بالشهرة

والصيت إما إلى أن تذعن لما يريدون فرضه عليك، أو إلى أن تجد نفسك وقد أصبحتَ كمًّا مهملاً وملقى على قارعة الطريق حين يستنفدون أغراضهم منك".

***

قصتان أخريان أرويهما في صدد مقالاتي في "المصور"، الأولى عن حوار دار في تلك الفترة أثناء لقاء عند المهندس المعماري نبيل غالي.

قال لي المضيف: أريد أن أسألك سؤالاً يحيّرني.. لقد هاجمت شيخ الأزهر في حوار لك مع إريك رولو بصحيفة "لوموند"؛ وهاجمت الشيخ متولّي الشعراوي هجوماً مقذعاً في مقالك "الاتجار بالدين" وغيره.. فما السرّ في أنه لا هذا ولا ذاك فكّر في الردّ على هجومك أو على آرائك الإسلامية، ولم ينبسا ببنت شفة، في حين نجد الشعراوي مثلاً يسارع باتهام كُتّاب آخرين لم يهاجموه، مثل توفيق الحكيم، وزكي نجيب محمود، ويوسف إدريس، بالكفر والزندقة، ويدعوهم إلى المبارزة؟

صاح راجي عنايت قائلاً:

ـ سأجيبك نيابة عن حسين.. السرّ هو أن حسين أمين عنده مفتاح ١٤.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن حسين هو الوحيد بين هؤلاء الذي تعمّق في دراسة الإسلام، وقرأ الكتب الدينية التي تعلّم منها هؤلاء المشايخ، وبوسعه أن ينازلهم بأسلحتهم، ويبارزهم على أرضهم، وأن يستشهد بالآيات والأحاديث وآراء الأئمة وكتب الفقه في مجادلاته معهم. أما الآخرون فلا.. الشيخ الشعراوي يعلم جيداً أنه لا توفيق الحكيم ولا زكي نجيب ولا يوسف إدريس تبحرّ في العلوم الإسلامية، أو بوسعه أن يقف منتصب القامة أمامه في أيّ جدال في الإذاعة أو التيليفزيون أو الصحف. فهو يشتمهم ويلعن أباهم وفي بطنه بطيخة صيفي! أما إن هو سأل حسين أمين متحدّياً عن مصدره حين يقول إن سعد بن أبي وقّاص كان يلبس الحرير، ويتختّم بالذهب، ولا يصوم رمضان، فسيجيبه حسين: الجزء الثالث من طبقات ابن سعد، طبعة دار صادر ببيروت، صفحة ١٧٤!! أو الجزء الأول من "الإصابة" لابن حجر العسقلاني طبعة المكتبة التجارية الكبرى، صفحة ٥٣٢!! هذا في الوقت الذي نجد يوسف

إدريس مثلاً يكتب في مقال له في "الأهرام": "أذكر أني سمعت مرة حديثاً شريفاً يقول فيه النبي لواحد من الصحابة نسيت اسمه ما معناه أنك لن تستطيع أن تخمن ما في قلب الشخص من الإيمان أو الكفر، أو شيئاً من هذا القبيل"!!

أما القصة الثانية فعن كيف أن زميلاً وصديقاً حميماً لي بوزارة الخارجية، وهو شاب متصوّف هادئ، على أرفع درجة من الثقافة والخلق، دخل عليّ مكتبي في الوزارة متمتماً بعبارات تحية لم تلتقطها أذني، ثم فاجأني بقوله: مقالاتك في "المصور" لا تسعدني.

ابتسمتُ قائلاً إنني سأكون سعيداً لو ناقشني في النقاط التي يخالفني الرأي فيها.

ـ أنا لم آت للمناقشة. وليس بإمكاني، ولا أنا على استعداد لأن أناقش نقطاً فرعية، إنها الروح العامة في المقالات التي تبئسني.. ويبئسني أكثر أن ألمسها من صديق حميم مثلك، وأن أرى ارتباط أفكارك بموهبة فنية وثقافة واسعة يجعلك أشد خطراً على الدين.. قد صرتُ أومن بأن سفك دمك حلال. فإن لم توقف نشرها فقد أرى من واجبي أن أتخذ حيالك قراراً.

وأضاف وهو ينهض ببطء من مقعده:

ـ ولن تحول مشاعر المودّة بيننا دون تنفيذي لهذا القرار.

ثم ولّى منصرفاً دون تحية.

***

مع الأسبوع الثاني من مارس ١٩٨٤، بدأتُ ألحظ تغييراً في موقف مكرم محمد أحمد مني، أثار ذكرى حديث طارق البشري إليّ، وكان نذيراً بما هو آت.. غير أني أبدأ بما حدث يوم ٢٢ فبراير:

كنت في زيارة ليوسف القعيد في مكتبه حين دخل علينا ماجد عطية المحرر الاقتصادي بالمصور، يطلب مني المرور عليه في مكتبه المواجه لمكتب القعيد بعد انتهاء الزيارة، لمحادثتي في "أمر هام".. وحين دخلت حجرته وجلست، قام فأغلق الباب، ثم عاد ففتح درج مكتبه وأخرج ملفًا كُتب عليه: "اتحاد البنوك الإسلامية"، وناولني إيّاه.

فتحتُ الملف فإذا هو يتضمن صوراً لكافة مقالاتي في "المصور". وإذ نظرتُ إليه

متسائلاً، قال:

ــ أريدك أولاً أن تعدني بألا تبوح لمخلوق بكلمة مما سأقوله لك الآن، فقد يكلّفني هذا وظيفتي.. غير أني أجد من واجبي أن أحيطك علماً ببعض ما يُحاك من مؤامرات ضدّك.. ففي اجتماع منذ أسبوعين بمقر اتحاد البنوك الإسلامية، وُزّع على كل من الحاضرين ملفّ مماثل لهذا يحوي صوراً لمقالاتك. وقد تم في ذلك الاجتماع اتخاذ قرار بتمويل حملة صحفية ضدّك يشترك فيها بأقلامهم كل من الشيخ متولّي الشعراوي، ومحمد عمارة، وأحمد بهجت، وعبد الصبور شاهين، وعبد الله شحاتة، للردّ على مقالاتك سواء في "المصور" أو غيره.. وفي اليوم التالي جاء إلى دار الهلال أحد أعضاء مجلس إدارة الاتحاد لمقابلة مكرم محمد أحمد، وأخبره أن الاتحاد قرر نشر مقالات متتابعة لبعض كبار الكتاب الإسلاميين في عدد من المجلات والصحف، يردّون فيها على فكر حسين أحمد أمين، ثم سأله عن مدى استعداده لقبول نشرها في "المصور" مقابل مبلغ يعادل قيمة نشر الإعلانات في الحيّز الذي يشغله كل مقال. وقد قبل مكرم العرض بشرط أن يُكتب فوق المقال ما يشير إلى أنه "إعلان مدفوع".. غير أن مجلس إدارة الاتحاد عدل هذا الأسبوع عن هذه النيّة بناء على نصيحة البعض، على أساس أن مثل هذه المقالات قد تزيد من شهرتك ورواج اسمك، حتى مع كونها معادية لك، وقرر بدلاً من هذا بذل المساعي الجادّة لدى الصحف والمقالات التي تنشر لك لإقناعها بسوء وقع كتاباتك لدى الإسلاميين وغير الإسلاميين على سواء، فتوقف نشر مقالاتك، ويختفي اسمك من السوق. وفي ظنّي أن سعيهم سينجح. فإن جاء الوقت الذي تجد فيه أبواب النشر قد أوصدت دونك، فاذكر ماجد عطية وحديثه إليك.

قلت ضاحكاً:

ــ الأمر يذكّرني بقولة برنارد شو حين علم بأن جمعاً من المعجبين به يجمع التبرعات لإقامة تمثال له في لندن: "أعطوني المبلغ وأنا أقف بنفسي بدلاً من التمثال في أيّ مكان تختارونه"!.

لم أجد في حديث ماجد عطية ما يدعو إلى الدهشة غير قوله إن مكرم قبل العرض بنشر ردود كُتّاب اتحاد البنوك الإسلامية.. كيف؟ مكرم؟ ماذا حدث؟ ثم تذكرت ما قاله لي إبراهيم المعلم قبل ذلك بأسبوع من أن محمد عمارة قابل مكرم بدار الهلال، فإذا به ــ أي

عمارة ــ يفاجأ بمهاجمة مكرم لي وسبّه إيّاي. وهي قصة رفضتُ تصديقها، خاصة أن مكرم حدّثني بعد ذلك ــ ومن تلقاء نفسه ــ عن تلك الزيارة، وقال لي إن محمد عمارة الـ.... (شتيمة بذيئة) أتاه ليذكر له أن مقالات حسين أمين في "المصور" لا تأثير لها على الإطلاق في مجال محاربة التطرف الديني، بل على العكس من ذلك تماماً، لا تفعل غير أن تزيد المتطرفين تطرفاً وتصميماً، وأنه من الخير للجميع وقفها. (فهل كان عمارة هو المندوب الذي كلّفه مجلس إدارة اتحاد البنوك الإسلامية بمقابلة مكرم؟).. كذلك تذكّرت أنه في ١٥ فبراير فاجأني مكرم بقوله في هدوء وعلى سبيل الدردشة: "لماذا لا تخصّ مجلة "الهلال" أيضاً ببعض المقالات التي تأتي بها إليّ؟".. وعندما سألته يومها عن مصير الكتاب الذي كان قد طلبه مني كي تنشره دار الهلال بعنوان "حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية"، تمتم بإجابة غير مفهومة، ثم رفع سماعة التليفون ليتّصل بصديق له، وهو ما فهمت أنه إشعار لي بانتهاء المقابلة.

أحسست وقتها بالأرض تميد بي.. لقد كان العالم الذي أتحرك فيه كدائرة من النور يضيئها قنديل، كلّ ما بداخلها مرئي ومكشوف. وكنت أحسب أن هذه الدائرة تشكّل العالم بأسره، وأن الظلمة خارجها لا تعني شيئاً.. داخل هذه الدائرة كان مكرم، و"المصور" ويوسف القعيد، وتعابير الاستحسان من البعض، ووميض الشهرة والمجد، أعيش فيها مطمئناً إلى المستقبل، وإلى وهج النور.. ثم إذا بي أتنبّه فجأة إلى أن ثمة خارج الدائرة أشباح تتحرك في الظلمة، وبريق أعين حيوانات مفترسة تتفرّس في وجهي وتنتظر، تظهر ثم تختفي، ثم تعود إلى الظهور لتهزأ بمتاع الغرور المتمثّل في ضوء المصباح، وفي الشهرة الزائفة، وباطمئنان النائم إلى دفء فراشه، وإلى أنه ما من شيء ذي بال يقبع في الظلمة خارج الدائرة.

***

بعد انتهاء نشر سلسلة مقالاتي الست عن الإسلام في أمريكا، طلب مني مكرم التحوّل "مؤقتاً" إلى الكتابة في موضوعات أخرى غير الإسلاميات، بالنظر إلى ما تثيره مقالاتي الإسلامية من شوشرة ومن لغط وهياج. فكان أن نشرتُ في "المصور" أربع مقالات متتالية

عن بعض مظاهر الحياة في الاتحاد السوفييتي. وعندما جئته يوم ٢٤ إبريل ٨٤ بمقالين الأول عن "حجاب المرأة، هل هو من الإسلام؟"، والثاني عن "العلمانية في العالمين المسيحي والإسلامي"، تطلّع في فتور إلى العنوانين، ثم ألقى بالمقالين في درج مكتبه على نفس النحو الذي ألقى عليه بمقال مصطفى الفقي من قبل.. ثم قال:

ــ أريد أن أخبرك بأمر.. لقد طلب شيخ الأزهر جاد الحق منذ حوالي شهر مقابلة رئيس الجمهورية للاحتجاج على ما ننشره لك في "المصور" فنبّهتني الرئاسة إلى ضرورة التحدّث إليك.. معلهش.. إجراء مؤقت ثم نعاود.

ثم كان أن توقّفت "المصور" عن نشر مقالاتي.

في ٢٣ أغسطس من نفس العام نشر إريك رولو في صحيفة "لوموند" خبر توقّف "المصور" عن النشر لي بناء على شكوى من شيخ الأزهر. فإذا بمكرم ينشر مقالاً افتتاحياً غاضباً ــ مع صورة لي ــ يوم ٢٠ سبتمبر، ينفي ادّعاء رولو بشدّة، وينفي أن يكون قد تلقّى أمراً بمنع نشر مقالاتي، ويقول إنه حاول مراراً إفهامي أن السبب في تأخير نشرها هو انشغال "المصور" بتغطية الانتخابات العامة في مصر في ٢٧ مايو ٨٤، فلم تكن هناك مساحة كافية لنشر مقالاتي، غير أنه سيعاود هذا النشر فيما بعد.

غير أنه لم يعاود النشر.

ووجدت نفسي كَمًّا مهملاً على قارعة الطريق.

أسامة الباز

هو أحبّ رجال العهد الحاضر إليّ، ربما بسبب شدّة تواضعه، وخلوّه ـ رغم أنه كان حتى عهد قريب من أهم رجال الدولة وأخطرهم تأثيراً في مجريات الأمور، داخلية وخارجية ـ من الإحساس المتضخّم بأهميته، وبسبب توقّد ذهنه وحدّة ذكائه وألمعيّته، وقدرته الهائلة على الإصغاء طويلاً إلى الآخرين، وموضوعيته على تدفعه على الفور إلى الاعتراف بالجوانب الصائبة في حجج خصومه السياسيين، ثم اهتمامه بمعظم مناحي الثقافة والفكر والفن في مصر.. ما من معرض فنيّ يُفتتح إلا كان أسامة الباز المفتتح له، أو أحد أوائل زائريه، وما من مسرحية تُعرض في مسارحنا فتثير جدلاً أو ضجة ألا لمحتَه في إحدى أمسيات العرض جالساً يرقبها من مقعده بأحد الصفوف الأمامية.. وقد أصاب التوفيق النظام الراهن حين اختاره ليكون حلقة الوصل بينه وبين المثقفين والعاملين في الحقل الفكري والفني.. فجلّهم ـ على حد اعتقادي ـ يثقون به، ويرتاحون إليه، ويرونه أبعد رجال العهد عن استخدام الكليشيهات المعهودة الممجوجة، وعن أن يكون مجرد بوق من أبواق الدعاية للنظام.. ولديه القدرة على الاستماع طيلة الوقت إلى المعارضين، في تفهّم وتعاطف حتى يُخيّل إلى محدّثيه، وإن لم ينطق إلا بالقليل، أنهم قد أفلحوا في إقناعه، أو أنه أفلح في إقناعهم.

قابلتُه أول مرة إذ كان يعمل ـ وهو في درجة سكرتير أول ـ وكيلاً لإدارة معهد الدراسات الدبلوماسية. وكان الطلبة من الملحقين يعبدونه، ويلهجون طيلة الوقت بمدحه، والثناء على تبسّطه معهم، ومساعدته إيّاهم في بحوثهم، ومشاركتهم في لهوهم، وحرصه على حضور أعياد ميلادهم في منازلهم.. وقد نشأت بيني وبينه على الفور علاقة ودّية لم

تتأثر بترقيه السريع في سُلّم الخدمة الحكومية في عهد السادات، ثم بالأخص في عهد مبارك، وإن كانت فرص تلاقينا بالضرورة قد صارت نادرة. ولم يكن مستغرباً أن أجده أقل الناس تكالباً على نيل الحظوة لدى رؤسائه، وهو السبب في أن المتكالبين ــ وهم كثيرون ــ لم يروا أبداً داعياً للإيقاع به وإزاحته عن مكانه مثلما فعلوا بغيره. فهو يترك لهم المكان عن طيب خاطر إذا تزاحموا، هازئاً في قرارة نفسه بهم، متمسكاً بمبدأ أنه من الأفضل أن يَبْعُدَ فيُقَرَّب، من أن يَقْرُب فيُبعد.

ولا جعله جاهه ومنصبه يوماً يتحوّل عن عاداته، حتى السّيئ منها أو ما يبدو للناس سّيئاً. فهو مثلاً لا يطيق لُبس الحذاء، والغالب أن يستقبلك في مكتبه الفاخر بوزارة الخارجية في جوربه دون حذائه، وأن يمدّ ساقه أثناء حديثه معك فوق المنضدة أمامه إن هو شعر بحاجة إلى مدّ ساقه. وهو يكره كافة ضروب الرسميات، ويمقت الحراسة المعيَّنة لمرافقته في كل تحرّكاته، وكثيراً ما يهرب منها أو يتوجّه بسيارته الخاصة التي يقودهابنفسه إلى المسرح أو المعرض الفني، ثم يقطع على قدميه المسافة بين مكان الانتظار ودار العرض.. وقد التقيت به في ألمانيا والجزائر حين كنتُ في الأولى وزيراً مفوضاً، وسفيراً في الثانية. فكان إذا توجّه رئيس الجمهورية إلى قصر الضيافة للنوم بعد يوم عمل شاق، أصرّ أسامة على أن نخرج سوياً لنذرع على الأقدام شوارع المدينة إلى ما بعد منتصف الليل بساعات، لا نتحادث في السياسة أو في البيان المشترك الذي سيصدر في اليوم التالي، وإنما في المسرح والأدب والفن.

وهو على العكس منّي كان يدرك منذ شرخ شبابه ما يريد من الدنيا، ويدرك كيف يناله، مما جعله ــ رغم قدم خدمته في وزارة الخارجية ــ يرفض تعيينه في أية بعثة في الخارج، ولا كانت فكرة إيفاده سفيراً في دولة كبرى تستهويه قط. فمصر التي يحبّها هي التي اختارها مقراً دائماً لكافة أنشطته.. وكان يحار في أمر أمثالي من الموزّعين بين مطامحهم في ميادين متفرقة، ولا يرضيهم الاكتفاء بواحد.. ومن أمثلة هذه الحيرة موقفه مني في لقاء بيننا يوم ١٩ فبراير ١٩٨٥، أُورد تفاصيله فيما يلي، مع الإشارة اللازمة في البداية إلى أني كنت وقتها وزيراً مفوضاً بالمعهد الدبلوماسي، وإلى أن نجمي في عالم الكتابة كان في صعود سريع، وكانت كتاباتي تُحدث دويًّا وضجة صاخبة لم تعد اليوم

تُحدثهما.

استدعتني لجنة شؤون السلك الدبلوماسي للمثول أمامها في السادسة من مساء ذلك اليوم، في مقر وزارة الخارجية بميدان التحرير.

منضدة طويلة يجلس حولها قرابة عشرين شخصاً: مساعدو الوزير، وعمر سري مدير إدارة شؤون السلك الدبلوماسي الذي سبق لي أن عملت تحت رئاسته في ألمانيا، وبعض مديري الإدارات الأخرى، يتصدّرهم أسامة الباز الذي جلستُ على المقعد الخالي قبالته.

حيّاني أسامة وطلب لي كوباً من الشاي، ثم بدأ يتحدث في بساطة وإخلاص، شأنه دائماً، متّجهاً على الفور إلى صلب الموضوع:

ـ اسمع يا حسين. الجميع هنا يعلم جيداً أنك واحد من أكثر رجال وزارة الخارجية ثقافة وعلماً. وهو ما يسبّب لنا بعض الحيرة إزاء أسلوب تعاملنا معك؛ لا ندري أنعاملك معاملة الشخصية العامة المرموقة، أم معاملة الموظف بوزارة الخارجية. (ضحك من الحاضرين) صحيح! هذا بالإضافة إلى أننا ونحن الآن في سبيل إعداد حركة تنقلات السفراء لهذا العام، وقد حان دورك للسفر، لا نعلم ما إذا كنت تفضّل النقل إلى الخارج، أم البقاء في مصر ومتابعة رسالتك الفكرية فيها.

أجبته بقولي:

ـ كنت حتى زمن قريب أفضّل البقاء في مصر ولا رغبة لي في الخروج منها مرة أخرى. ثم حدث ما جعلني أغيّر رأيي.

ـ وهو؟

ـ توجيه من الحكومة للصحف والمجلات القومية بعدم نشر أية كتابات لي.

ـ من قال هذا؟

ـ هو ليس فقط ما سمعتُه من أكثر من مصدر، بل وما ينطق به واقع الحال.. ما من رئيس تحرير واحد في صحف الحكومة ومجلاتها يقبل الآن نشر مقالاتي.

ـ ولهذا شرعت تنشرها في صحيفة "الأهالي"؟

ـ نعم.

ـ وهذا أمر آخر كنت أودّ التحدث معك فيه.. أنا لا أعترض، ولكني أتساءل ويتساءل

زملائي هنا معي، عما إذا كان من حق موظف بوزارة الخارجية أن ينشر كتابات له في صحف المعارضة.

ــ المقالات التي أنشرها في "الأهالي" مقالات إسلامية لا صلة لها بالنظام القائم ولا تنقده.. ثم إن هذه المقالات نفسها سلّمتها أولاً لأكثر من مجلة حكومية وأبت نشرها، فلم أجد في النهاية بدًّا من تسليمها إلى الجهة الوحيدة التي قبلت أن تنشرها، وهي صحيفة "الأهالي".. سلّمتُها إياها وأنا أدرك جيداً أن نشري لها في "الأهالي" قد لا يخدم غرضي من النشر.

ــ ولم؟

ــ لأن السلاح الرئيسي الذي يستخدمه أعداء فكري في مواجهتي هو اتهامي بالشيوعية. ونشر "الأهالي" اليسارية لكتاباتي يميل ببعض القراء إلى قبول صحة هذا الاتهام. وما أسرع الناس عندنا إلى رفض مناقشة الحجج بالمنطق متى دمغوا صاحبها بصفة معينة، أو نسبوه إلى مبدأ يعادونه.. ولا يعني قولي هذا أنني لا أشعر بالامتنان لحزب التجمع وصحيفته. فقد "آوياني حين نبذني الناس، وصدّقاني حين كذّبني الناس". وإنما أعني هو أنني كنت ــ ولا أزال ــ أفضّل النشر في صحف ومجلات غير يسارية.

ــ ما مصلحة الحكومة في أن تحظر ــ كما تقول ــ نشر كتاباتك وأنت تهاجم فيها الجماعات الدينية المتطرفة؟

ــ السلطات تعتقد أن كتاباتي تُحدث أثراً هو عكس الأثر المطلوب: تثير المشاعر وتزيد المتطرفين ميلاً إلى التطرف.

ــ وهذا غير صحيح في رأيك؟

ــ أنا لا أوجّه الخطاب في كتاباتي إلى المتطرفين بغية إقناعهم بالعدول عن موقفهم، وإنما أوجّهه إلى الشباب ممن لم ينخرط بعد في سلك تلك الجماعات المتطرفة بُغية إقناعه بخطأ منهاجها الفكري.

نظر أسامة إلى ورقة صغيرة على المنضدة أمامه ثم رفع رأسه ليقول:

ــ أمرٌ آخر أريد الحديث معك فيه.. في أغسطس الماضي نشرت صحيفة "الموند" في باريس حديثاً صحفياً لك مع إريك رولو، قلت فيه إنك تتوقع أن تصل الجماعات الإسلامية

المتطرفة إلى الحكم في مصر في بحر عامين أو ثلاثة.. أقلتَ هذا بالفعل لإريك رولو؟

ــ نعم.

ــ الا توافقني أن مثل هذا التصريح يضرّ بمصلحة مصر الاقتصادية إذ قد يدفع رءوس الأموال الأجنبية إلى تجنّب الاستثمار في مصر متى ما صدقوا في الغرب أن ثمة مثل هذا الخطر؟

ــ لم يغب عن بالي هذا الاعتبار. غير أن الاعتبار الأول في ذهني هو خطر الجماعات المتطرفة على مستقبل مصر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والحضاري، وهو ما يدفعني إلى التنبيه إليه في كل مكان، وفي كل وقت.

قال السفير عمران الشافعي مساعد الوزير:

ــ ولكنك تنسى يا سيد حسين أن لك صفة أخرى غير صفة المفكر.. أعني صفتك الوظيفية. وقد ذكر إريك رولو في مقدمة مقاله هذه الصفة، فبدا الأمر وكأنه تصريح رسمي ترضى عنه الدولة.. ثم إذا بك في نفس الحديث تهاجم الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر وتتّهمه بأنه يحاول أن يجعل للأزهر سلطاناً كسلطان الكنيسة في العصور الوسطى... أهذا تصريح يصدر من مسئول رسمي عن مسئول رسمي آخر.

تدخّل أسامة الباز سريعاً فقال:

ــ ليس هذا بتحقيق معك يا حسين، ولا هو اعتراض على ما تفعل. وإنما هو استيضاح منا لموقفك من عملك بوزارة الخارجية على ضوء نشاطك الفكري.. لقد حان دور تعيينك رئيس بعثة في الخارج. غير أننا نريد أن نطمئن قبل أن نصدر قرار التعيين إلى أنك ستعطي هذا المنصب الجديد حقّه، بحيث لا يؤثر نشاطك الفكري في واجباتك الدبلوماسية.. دعني أحدثك بصراحة أكبر.. كان آخر منصب لك هو منصب وزير مفوض في سفارتنا في بون. وقد لاحظ السفير عمر سري هناك أن نهوضك بمسئولياتك في بون لم يكن على المستوى المطلوب، وأن اهتمامك بحضور المسرحيات والحفلات الموسيقية كان أكبر من اهتمامك بحضور حفلات الاستقبال الدبلوماسية، وإقبالك على القراءة في شكسبير أكبر من إقبالك على قراءة الصحف الألمانية والكتب عن السياسة الألمانية.

قال عمر سري:

ـ كنت أقول له وقتها إنني أريد الوزير المفوض عندي أن يفكر أثناء حلاقته لذقنه في الصباح في المقابلات الرسمية التي سيُجريها خلال اليوم مع المسئولين الألمان والدبلوماسيين الأجانب، وأنني واثق من أنه لا يفكر أثناء حلاقته لذقنه في غير شكسبير الذي كان وقتها مجنوناً به.

قاطعه أسامة الباز قائلاً لي:

ـ الواقع يا حسين أنك ـ على حد التعبير الأمريكي too qualified... أكفأ مما ينبغي. وهذا هو سرّ حيرتنا معك. نحن نريد عاملاً كفؤاً لأداء مهمة معينة، فإذا بمهندس حاصل على درجة الدكتوراه يتقدّم لأداء المهمة! ليس في هذا إهدار للطاقات والكفاءات فحسب، ولكن العامل قد يكون في مثل هذه الحالة أقدر على القيام بالمهمة من المهندس لمجرد أنه غير حاصل على الدكتوراه، ولا شهادة لديه يعتزّ بها.

قلت:

ـ مع اعترافي بصحة ما تقول وما قاله السفير عمر سري، أودّ أن أذكر نقطتين. الأولى: أنني واثق من أنه لو كانت هوايتي في ألمانيا (ومن حقّ كل إنسان أن تكون له الهواية التي تسعده) هي لعب التنس أو البريدج، لما وجدها عمر سري مدعاة للاعتراض أو السخرية مثلما وجد إقبالي على قراءة شكسبير.. وهو أمر غير مفهوم، وغير عادل.. السفير عمر سري كان يقضي الساعات في الطابق الأعلى من دار سكن السفير في اللعب بالقطارات الكهربائية المصغّرة، فلماذا ينكر عليّ حقّي في قضاء الساعات في قراءة أعمال أدبية؟

قال عمر سري مقاطعاً:

ـ أنا لا أعترض يا حسين على قراءتك لمسرحيات شكسبير. ولكني أعترض على كونك too much of an intellectual.. لقد كنت كثيراً ما أجلس معك في ألمانيا للتحدّث في الدين والتاريخ والفنون، وكنت أستمع إليك باحترام جمّ وكأنما أنا في حضرة ابن خلدون أو مونتيسكيو.. غير أن هذا لا يعني أن بوسع ابن خلدون أو مونتيسكيو أن يكون دبلوماسياً كفؤاً.

قلت:

ـ وهذا يقودني إلى النقطة الثانية التي أردتُ الحديثَ عنها، وهي أن الاهتمامات الفكرية والثقافية والفنية ليست مما يشين الدبلوماسي. وهو أمر تعرفه فرنسا مثلاً التي كان جوبينو وجيرودو وبول كلوديل وغيرهم من الكتاب والمفكرين سفراء لها في الخارج.

قال عمر سري:

ـ هل كانوا سفراء ناجحين؟ هذا هو السؤال.

ـ لا أعلم. ولكني أعلم أن واحداً من أعظم وأنجح سفراء مصر في تاريخ وزارة خارجيتنا كان عبد الوهاب عزّام الذي كان الباكستانيون وقت خدمته في كراتشي يقدّسونه إلى حدّ العبادة، وكان أحد أسباب هذا التقديس علمه الواسع بالتاريخ الإسلامي، وبشعر إقبال.

قال أسامة الباز:

ـ هذا حقّ.

قلت:

ـ وفي اعتقادي، دون غرور، أن باستطاعتي أن أكون سفيراً على غرار عزّام متى ما أرسلتموني إلى دولة إسلامية. تركيا مثلاً، أو باكستان، أو حتى موريتانيا.

قال عمران الشافعي مساعد الوزير:

ـ سيدي الفاضل. أتظنّنا حقاً نخاطر بإرسالك إلى دولة إسلامية، ثم إذا بك تنشر مقالاً في "الأهالي" أو تنقل "الموند" عنك تصريحاً يمكن أن تُسبِّب به أزمةً في العلاقات بين مصر وتلك الدولة الإسلامية؟! لقد سبق لك في مقال نَشَرَتْه مجلة "المصور" بعنوان "قطع يد السارق" أن هاجمتَ ضياء الحق والنميري في الوقت الذي تسعى فيه مصر جاهدة إلى توثيق علاقاتها بباكستان والسودان!.. ما أجده غريباً حقاً هو أن الوزارة لم تُلفت نظرك إلى هذا في حينه.

قاطعه الدكتور سعد خليل مساعد الوزير قائلاً لي:

حسين! لو طلبت الوزارة منك رسمياً في مقابل تعيينها إيّاك سفيراً في الخارج تعهّداً بأن تمتنع مدة السنوات الأربع القادمة عن نشر أيّ كتابات لك، هل تقبل؟

قلت:

ــ نعم وبكل سرور. لا لأني أنوي التوقّف عن الكتابة، ولكن لأني أصبحتُ الآن أميَل إلى التفرّغ لتأليف الكتب. وستتيح لي إقامتي بالخارج فرصة إكمال كتابي في السيرة النبوية الذي بدأتُه في نيجيريا.

قال سعد:

ــ هو وعدٌ إذن؟

رفع أسامة الباز ذراعه معترضاً وقد قطّب حاجبيه:

ــ لا مؤاخذة يا دكتور سعد.. لا يا حسين.. الوزارة لا تطلب منك تعهّداً بالامتناع عن النشر، كما أنها لا تتعهّد تجاهك بشيء.. لا التزام من أيّ من الطرفين.. وسنبحث الموضوع.. خلاصة القول إذن أنك تفضّل النقل إلى الخارج على البقاء بالديوان العام في القاهرة؟

ــ نعم.

صاح السفير محمود أبو النصر مدير إدارة الهيئات الدولية:

ــ خسارة يا حسين، خسارة! موقعك هنا في بلدك، ومجالك هو الكتابة الإسلامية لا السفارات في الخارج.. لدينا المئات في الوزارة بوسعهم القيام بعمل السفير، وربما خيراً منك، ولكن ما من أحد في مصر يمكنه أن يتصدّى مثلك لفكر الجماعات الإرهابية.. خسارة!

قال أسامة الباز:

ــ هذا شأنه هو، وقراره هو.. شكراً يا حسين.. على فكرة، قد وصلتُ إلى الصفحة السبعين من كتابك "حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية".

ــ وما رأيك فيه؟

ــ لا بأس به.. لا بأس على الإطلاق.. ألف شكر.

يوسف شاهين

التقيت به مراراً خلال الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر ١٩٨٦، وذلك في مدينة ريو دي چانيرو بالبرازيل، حيث كنت أعمل قنصلاً عاماً، وحيث أقيم مهرجان السينما الدولي الذي عُرض فيه أحدث أفلامه "اليوم السادس".. وقفنا نتحدث في الردهة الخارجية حتى دق الجرس إيذاناً ببدء الفيلم، وظننت أنه سيدلف إلى القاعة معي، غير أنه بادرني بقوله:

ــ أعصابي لا تحتمل مشاهدة أفلامي في المهرجانات. سأنتظرك عند حمام سباحة الفندق فتحدثني عن رأيك وعن انطباعات الجمهور.

وفي مساء اليوم التالي (٢٩ نوفمبر) كان حفل توزيع الجوائز. وقد راقبت يوسف شاهين قبل بدئه يروح ويجيء في الردهة في عصبية ظاهرة، يحادث هذا ثم ينتقل إلى ذاك وهو يتحدث فيما بدا لي أنه غضب واحتداد، ومحدّثوه يحاولون تهدئته وجبر خاطره. وأخيراً جاء إليّ حيث كنت أجلس في مقصف الفندق، وصاح بي وقد احمّر وجهه:

ــ لن أتسلم الجائزة. تسلّمها أنت نيابة عني.

ــ ماذا حدث؟

ــ لم تر لجنة التحكيم أن تمنح الجائزة للفيلم، ولكنها قررت ــ ترضيةً لي ــ منحي جائزة "التوكانو" عن "المستوى الرفيع لمجموع أعمالي، وخدماتي الجليلة للسينما الدولية".

ــ وما يغضبك في هذا؟

ــ لا يا سيدي. لستُ ممن يقبلون جوائز الترضية.. حين ينادون عليّ قم واستلم الجائزة من رئيس اللجنة نيابة عني. أما عني فلن أفعل.

ثم دخلنا القاعة وجلس إلى جواري في أحد الصفوف الأمامية وإذ ظننته ــ لسذاجتي

ــ جادًّا في عزمه، فقد شرعتُ أعدّ في ذهني الكلمة التي سألقيها عند تسلّمي لجائزته. غير أنه ما نودي على اسمه، وتحرّكتُ أهمُّ بالنهوض، حتى رأيته يهبّ من مقعده ويتّجه إلى مكان رئيس اللجنة على المسرح مبتسماً وسط تصفيق الجمهور، ويتسلّم الجائزة! (وفي ظني الآن أن نفس المنظر تكرر عام ١٩٩٧ في مهرجان "كان"، حيث حصل يوسف شاهين على جائزة اليوبيل الذهبي للمهرجان "عن مجموع إنتاجه السينمائي"، في حين لم يحصل فيلمه "المصير" على أية جائزة").

دعوتُه إلى الغداء معي في اليوم التالي في أحد مطاعم ريو الفاخرة المطلة على البحر، ودار بيننا حتى الخامسة عصراً الحديث التالي، أصوغه في صورة أسئلة مني وإجاباته عليها:

س. اعترض عددٌ من النقاد المصريين على إسنادك دور "صدّيقة" في "اليوم السادس" إلى داليدا. فهي وإن كانت من مواليد مصر، فإن قضاءها لمعظم سني حياتها في فرنسا أنساها اللغة العربية، وصارت في لسانها عُجْمة تجعل من أدائها لدور فلاحة مصرية صميمة أمراً مستغرباً. وفي رأيهم أن ثمة من الممثلات المصريات من كان بوسعها أن تقوم بهذا الدور عن نحو مقنع ومستساغ، وبكفاءة أكبر، مثل سعاد حسني، أو فاتن حمامة.

ج. قبل أن أفكر في إسناد الدور إلى داليدا، عرضتُه بالفعل على كل من فاتن حمامة وسعاد حسني. فأما فاتن فقد أبت أن تقوم بدور جدّة، وأرادت أن أجري بعض التعديلات على القصة، وهو ما لم أقبله. وأما سعاد فقد ظلّت مترددة بين القبول والرفض ــ ربما لنفس السبب ــ حتى استقر رأيها على الرفض. حينئذ فكرت في الاستعانة بداليدا؛ أولاً: لجودة تمثيلها كما لا شك قد لاحظت، وثانياً: لأن الفيلم إنتاج مصري فرنسي مشترك، وداليدا مصرية فرنسية، واضطلاعها بدور البطولة من شأنه أن يضمن إقبالاً أكبر على مشاهدة الفيلم في كل من مصر وفرنسا.. وقد فكرتُ في أن أستخدم صوت ممثلة مصرية أخرى بدلاً من صوت داليدا. غير أنه اتضح لي أن عملية الدوبلاج هذه ستكلفني من النفقات ما لا قِبَلَ به لميزانية الفيلم.

س. البعض يرى أن أفلامك بوجه عام فوق مستوى المصري العادي، وأنها أصعب وأدقّ من أن تكون مستساغة ومقبولة لدى الجمهور العربي، وأنك حتى مع اختيارك

لموضوعات مصرية، تبدو مخرجاً مصرياً يرتدي قبّعة، وذا نمط من التفكير أوروبي.

ج. أينطبق هذا الاتهام منهم على "باب الحديد"، أو "الأرض"، أو "الناصر صلاح الدين"، أو "اليوم السادس"؟ الجمهور هو الحَكَم في مثل هذا الاتهام. وإقبال الجمهور المصري على مشاهدة أفلامي كافٍ لتفنيده وتكذيبه.. كلّ ما هناك هو أن أيّ عمل فنّي جيّد، سواء كان كتاباً أو فيلماً أو مسرحية أو سيمفونية، يقتضي العودة إليه أكثر من مرة للإلمام بكل أبعاده. وأفلامي من هذا الصنف من الأعمال الفنية؛ من اللازم مشاهدتها أكثر من مرة لفهمها على نحو واضح.. لقد تأثرتُ بالتأكيد بمدارس سينمائية أجنبية، وبالمخرجين البارزين في الشرق والغرب، شأن معظم المخرجين عندنا في مصر. غير أن هذا لا يعني أنني أصبحتُ "خواجة"، أو مخرجاً مصرياً يرتدي قبعة. بالعكس. أنا أدرك تماماً أنه ما من عمل فني مصري يمكن أن يكون عالمياً، وأن يلقى حظوة عند الجماهير في الخارج، ما لم يكن مصري المضمون والطابع والروح، شريطة أن يكون إنسانياً في الوقت ذاته، وأن يصوّر من العواطف والأحاسيس والمواقف والعلاقات ما يشترك فيه البشر جميعاً على اختلاف أجناسهم وأوطانهم.

س. هل يجد جمهور أفلامك في أوروبا، أو الأمريكتين، أو الشرق الأقصى، عقبات في سبيل فهمها نتيجة اختلاف القيم والمفاهيم والمستوى الحضاري والعلاقات الفردية والاجتماعية في مجتمعاتهم عن تلك السائدة في المجتمع المصري؟

ج. بالتأكيد هناك مثل هذه العقبات. فهم قد يعجبون أو يضحكون أو يُذهلون إزاء تمسّكنا الشديد بقيم لا يقيمون لها وزناً، أو إغفالنا لقيم لها وزنها الخطير عندهم. وهذا أمر طبيعي تلمسه ليس فقط في المجتمعات المتباينة، بل وفي المجتمع الواحد في أزمنة متباينة. فالأخلاقيات الجنسية السائدة اليوم في أوروبا مثلاً تحول دون التعاطف الحقيقي الكامل مع مأساة مرجريت في مسرحية "فاوست" لجوته، أو مشكلة "تِس" في رواية توماس هاردي. ولابدّ للمخيّلة والثقافة العامة أن تلعبا دورهما هنا من أجل إعادة بناء قيم الماضي، أو قيم مجتمع غريب بعيد. كما أنه لا شكّ في أن اشتراك مجتمعين معيّنين، كالهند ومصر مثلاً، في مشكلات حيوية، أو في مفاهيم وتقاليد معينة، يجعل كلاً من الشعبين الهندي والمصري أقدر على فهم فنون الشعب الآخر منه على فهم فنون بلد كالسويد أو بولندا أو شيلي.. ومع هذا

فإن تزايد الصلات الملموسة بين أطراف العالم وبلدانه وشعوبه، ونمو السياحة والعلاقات التجارية والسياسية والثقافية بين الدول المختلفة، وتعاظم الرغبة في معرفة أساليب عيش الشعوب الأخرى ودياناتها وقيمها ومعتقداتها، ووفرة فرص لقاء أفراد الأمم بعضهم ببعض، كلها أمور ستؤدي لا محالة إلى تآكل وتضاؤل تلك العقبات والعراقيل التي نتحدث عنها.

س. لاشك في أن منافسة التيليفزيون للسينما أحد الأسباب التي أدّت بالسينما إلى الإكثار من المشاهد الجنسية التي قد يعزف التيليفزيون عن عرضها بحكم تواجده في كل بيت، وفي محيط العائلات، وذلك من أجل ضمان استمرار رواج الصناعة السينمائية.. ولكن ألا ترى أن أغلب المشاهد الجنسية في الأفلام قد بات مقصوداً لذاته، ولا يخدم موضوع الفيلم، أو تصوير نفسية أبطاله، أو تطوّر شخصياتهم؟

ج. منافسة التيليفزيون هي بطبيعة الحال أحد الأسباب الهامة التي دفعت السينما في هذا الاتجاه. ولكنها ليست السبب الوحيد، وليست السبب الرئيسي.. السبب الرئيسي في رأيي هو تزايد حرية السينما في بعض المجتمعات في مجال تناول هذا الموضوع الحيوي تناولاً صريحاً، ونموّ الاعتقاد بأنه ما دام موضوعاً هاماً فلا بدّ من تناوله، ولا بدّ من أن يحتلّ في الفنون نفس المكانة التي يحتلّها في حياة الفرد، دون خشية أو حرج، أو رياء أو حياء.. غير أني أوافقك على أن المشاهد الجنسية غالباً ما تُدرج في الفيلم دون أن تخدم موضوعه، فيكون رواج الفيلم هو الاعتبار الأول لا الجودة ومقتضيات الفن. وهذا هو بالضبط ما استقرّ عليه في الغرب تعريفُ "البورنوجرافيا" ومعيار التفرقة بينها وبين التعرّض لموضوع الجنس لهدف فنّي خالص.

س. ما هو مدى تأثير الأزمة الاقتصادية التي تمرّ بمصر الآن في صناعتها السينمائية؟

ج. لا مفرّ من أن يكون لهذه الأزمة تأثيرُها الضارّ، بل والخطير، في الصناعة السينمائية المصرية. وقد انخفض عدد الأفلام المنتجة بالفعل من حوالي مائة وعشرين فيلم عام ١٩٨٥ إلى ثمانين عام ١٩٨٦، وأتوقّع أن يكون العدد أقلّ فأقل في السنوات القادمة.. والأزمة الاقتصادية تستتبع صعوبةً في ضمان التمويل الكافي لإنتاج الفيلم على نحو مشرّف يُرضي ضمير المخرج ومطامحه الفنية. وإزاء هذه الأزمة قد لا نرى بدًّا من الاستعانة

بمصدر خارجي يشترك في التمويل أولاً، ويضيف سوقاً جديدة لتوزيع الفيلم. وهذه هي علّة لجوئي في السنوات الأخيرة إلى الإنتاج المشترك مع دول أجنبية.. ثم إننا نعلم جميعاً مدى سوء مستوى الصوت في الأفلام المصرية لعجزنا عن شراء الأجهزة الحديثة. وهو ضعف أدّى في بعض مهرجانات الأفلام الدولية إلى رفض اشتراك أفلام مصرية ممتازة لمجرد هذا السبب. وهنا لا بدّ من الاستعانة باستوديوهات دول متقدمة لتدارك هذا العيب..

إن معظم أو كل ما تعاني منه السينما المصرية اليوم من مشكلات عتيدة مستعصية راجع إلى المشكلة الاقتصادية لا إلى الافتقار إلى المواهب، أو ضعف الإمكانيات الفنية.. أفكارٌ لا تجد تمويلاً. وأفلامٌ لا تجد آلات وأجهزة حديثة. ومواهب لا تجد المكافأة المجزية. ونتيجة هذا كله حالٌ من الإحباط والقنوط، وإهدار المواهب والكساد، والتمزّق والثورة.

خذ مثلاً حالة محسن محيي الدين بطل معظم أفلامي الأخيرة.. ممثل رائع، وكفاءة أعتزّ حقيقةً باكتشافها والمساهمة في إنضاجها، وصلة روحية تربط بيننا كتلك التي تربط الأب بابنه.. إنه يبذل في أفلامي جهداً يعجز عن النهوض به أقوى الرجال، وأحمّله ما قد لا يطيق حتى يأتي أداؤه كاملاً من كافة الوجوه.. لقد اقتضى دورُه في فيلم "اليوم السادس" ــ وهو دور القرداتي ــ أن يقضي الأسابيع في التدريب مع القرد، والأشهر في تعلّم الرقص الاستعراضي، وكنت أضطره أحياناً إلى إعادة تمثيل اللقطة الواحدة أكثر من عشر مرات... فما هي مكافأته على كل هذا الجهد؟ ملاليم!.. قروش زهيدة لا تكاد تكفي لإعالته هو وأسرته. ثم إذا بالتيليفزيون يعرض عليه أداء دور البطولة في مسلسلات تمثيلية تافهة لقاء أجر هو مائة ضعف ما يحصل عليه من اشتراكه في فيلم منهك وصعب كفيلم "اليوم السادس"، وإذا به يتلقّى عرضاً من دُبيّ للتمثيل مقابل مائة ألف جنيه. ما عسى هذا الشاب المسكين أن يصنع؟ إنه ضنين بموهبته، حريص على ألا يضيّعها بقبول دور إثر دور لا يرضَى ذوقُه الفنّي عنه.. غير أنه في نفس الوقت بَشَر، يُسعده كما يُسعد أيَّ فرد منا أن تأتي له موهبتُه بالمال، وله عائلة ترى من الحماقة أن يرفض مثل هذه العروض السخيّة. فالإغراء أقوى من أن يصمد له غير القدّيسين.. وقد تعرّضتُ أنا نفسي منذ زمن غير بعيد لمثل هذا الإغراء حين أرسل إليّ رئيس إحدى الدول العربية يعرض عليّ إنتاج فيلم عن حياته مقابل مليوني جنيه!.. ورغم أني رفضتُ العرض في النهاية، فقد ظللتُ مدةً أحاور

نفسي وأحاول إقناعها بأن المليونين كفيلان بأن يحلاّ ضائقتي المالية، ويمكّناني فيما بعد من تمويل أفلام رفيعة المستوى.

س. ألم يكن هذا بالضبط ما يفعله فيتّوريو دو سيكا؟ كانت أفلامه الرائعة مثل "سارقو الدرّاجات" و"معجزة في ميلانو" و"أمبرتو د." تصادف في إيطاليا فشلاً تجارياً ذريعاً. وكان عليه من أجل الاستمرار في إنتاج مثلها أن ينتج من حين لآخر أفلاماً مقبولة لدى الجمهور تجلب له الربح.. أما كان بوسعك أن تحذو حذوه؟

ج. لا يا سيدي.. ربما لعجزي عن أن أنتج فيلماً أنا غير مقتنع به، أو ربما لاعتقادي بأن التضحية مرة إثر مرة بالمثل العليا من شأنها أن تؤثر في مستوى الأداء، بحيث يصعب بعد ذلك العودة إلى مثل هذه المُثُل.

س. أريدك أن تحدثني عن مهرجانات السينما الدولية التي نال بعض أفلامك فيها الجوائز. هل ثمة اعتبارات غير جودة الفيلم تؤثر في قرارات لجان التحكيم بمنح الجوائز؟

ج. بالتأكيد، وبالضبط كما في جائزة نوبيل أو أية جوائز عالمية أخرى.. إن أعضاء لجنة التحكيم ليسوا ملائكة مجرّدين عن الهوى والتحيّز، والمؤثرات الشخصية، واعتبارات السياسة الدولية.. فإن كان في اللجنة عضو بولندي مثلاً، فأغلب الظن أنه سيميل إلى إعطاء صوته للفيلم المجري أو التشيكي.. أو كان فيها حكم مصري فسيسرّه أن ينال الفيلم الهندي الجائزة. فإن اشتركت إسرائيل في المهرجان، فمن المؤكد أن يجد فيلمها أكثر من ناقد متعاطف لمجرد أن الفيلم إسرائيلي ودون أيّ اعتبار آخر.. وكما أن مقرّري جائزة نوبيل في بعض الأحيان يتنازلون ويلتفتون إلى دول العالم الثالث، ويمنحونها لكاتب كالكاتب النيجيري سوينكا، فإن المحكمين في مهرجانات الأفلام يمنحون الجوائز أحياناً (وإن تكن أحياناً كثيرة) لأفلام دول نامية، ربما عن رغبة في إبعاد شبهة التحيّز أو الاستعلاء، أو الجهل بإنجازات تلك الدول، أو على سبيل التشجيع.

س. بصرف النظر عن الأزمة الاقتصادية التي تهدد مستقبل الصناعة السينمائية المصرية، هل يمكنك القول بأنك راض عنها بوجه عام؟

ج. الحقيقة التي يتفق الكثيرون من المثقفين المصريين معي بشأنها هي أن الفن

السينمائي قد أصبح في السنوات الأخيرة أهم وأرقى الفنون في مصر، وأحفلها بالأعمال المتميزة، وذلك بفضل مخرجين مصريين أفذاذ، مثل صلاح أبو سيف ومحمد خان وعاطف الطيب وشادي عبد السلام وتوفيق صالح وعلي بدرخان وأشرف فهمي وغيرهم.. غير أن الأزمة الاقتصادية ـ كما ذكرت ـ تهدّد هذا الفن أكثر مما تهدّد الفنون الأخرى كالأدب والموسيقى والرسم والنحت، وهو ما يجعلني أميل إلى التشاؤم بالنسبة لمستقبله.. وقد صحب هذه الأزمة الاقتصادية، للأسف الشديد، مشكلة رهيبة أخرى خاصة بتجارة الڤيديو. فهناك أناس لا ضمائر لهم قد وجدوها تجارة مربحة طبع الآلاف من النسخ من الأفلام المصرية دون ترخيص أو إذْن على أشرطة الڤيديو، وبيعها بأسعار زهيدة نسبياً، دون أن ينال المنتجون قرشاً واحداً مقابل ذلك. والسلطات عاجزة تماماً عن وضع حدّ لهذا النشاط غير المشروع. ونتيجة هذا كله أن الحافز المادي قد كاد يختفي من الصناعة السينمائية عندنا.. لقد خسر فيلمي "وداعاً بونابرت" نحو نصف مليون جنيه، وأتوقّع أن يخسر فيلم "اليوم السادس" نحو أربعمائة ألف جنيه.. فمن ذا الذي لديه القوة والمثابرة والمال والحافز الفني المُلحّ بحيث يواصل إنتاج أفلام رفيعة المستوى في مواجهة مثل هذه الصعوبات الاقتصادية الضخمة والمتزايدة؟ الكثيرون يهجرون الميدان، والكفاءات تهاجر من مصر، وإذا نحن نعاني من أزمة في الخبراء الموهوبين، كما في حالة كُتّاب السيناريو والحوار مثلاً.. لقد أصبح كُتّاب السيناريو والحوار الممتازون عندنا عملةً نادرة، مما يضطرني في معظم أفلامي إلى أن أكتبهما بنفسي.. وثمة أيضاً مشكلة الرقابة والقيود التي تفرضها على السينما وتشلّ من حريتها. فهناك موضوعات لا ينبغي أن تُمسّ، ومناظر لا ينبغي أن تُضمَّن، وألفاظ لا ينبغي أن تَرِد، وشخصيات لا ينبغي أن تُصوَّر. وقد اعترضت الرقابة مؤخراً على فكرة فيلم كنت أنوي أخراجه عن قصة يوسف الصدّيق، بحجة أن الأنبياء والصحابة لايجوز تصويرهم على المسرح أو في السينما. وتخامرني الآن فكرة أن أُخرج فيلماً عن الشيخ محمد عبده، آمل ألا تعترض الرقابة عليه.

أما عن مستوى التمثيل عندنا ففي اعتقادي أنه عال جداً، وأنه ارتقى بشكل ملحوظ خلال السنوات العشرين الأخيرة بالابتعاد عن الميلودرامية والتمسّك بواقعية الأداء. فإن سألتني عن أعظم الممثلين المصريين طراً أجبتُ بلا أدنى تردّد: محمود المليجي.. لقد كان

الرجل من أجهل الناس بشؤون السياسة، ضئيل الحظّ من الثقافة، وكثيراً ما كنّا نضحك منه أثناء مناقشاتنا. غير أنه كان في التمثيل لا يُضاهَى، مَلَكاً من السماء، وكنت أحياناً لا أملك نفسي من البكاء أثناء تصوير المشاهد التي يظهر فيها، خاصة في فيلم "الأرض" وفيلم "إسكندرية ليه؟" .. نور الشريف أيضاً ممثل ممتاز، بدأ بداية طيبة، ثم أهدر موهبته بقبوله لأدوار هابطة المستوى، ثم تدارك نفسه وأصبح أعظم مما كان في أيّ وقت مضى.. محمود مرسي؟ لا بأس به، غير أنه محدود القدرة على تنويع أداوره أو تصوير شخصيات شديدة التباين والاختلاف، واحترامي له كأستاذ في معهد السينما أكبر من احترامي له كممثّل.. أقربهم إلى قلبي جميعاً تلميذي محسن محيي الدين، ففيه أركّز كل آمالي المحبطة، وأحلامي التي لم يُكتب لها أن تتحقق. وإني لأدعو الله له من صميم قلبي ألا تصرفه إغراءات الدنيا والمال والشهرة عن الطريق الجادّ الذي قطع فيه شوطاً بعيداً.

س. وماذا عن النقّاد السينمائيين في مصر؟

ج. صراحة، أنا لم أستفد من النقاد في مصر إلا بمقدار ما أسهموا به في ذيوع صيتي، أما عن نقدهم وبيانهم لأخطائي ونصائحهم فلا. ومستوى النقد عندنا ــ باستثناء ناقدين أو ثلاثة ــ رديء هابط. وهو محكوم في معظم الحالات إما باعتبارات شخصية (كالصداقة أو العداوة بين الناقد والمخرج)، أو مفاهيم ساذجة فجّة عن الفن السينمائي، أو الغيرة والحسد والرغبة في تحطيم كلّ موهبة حقيقية تبرز في الميدان. فإن شئت مثالاً على ما أذهب إليه قلتُ إنه ليس من النادر أن تشكو إحدى الممثّلات إلى ناقد أو صحفي معيّن هي على علاقة صداقة وثيقة به، من مخرج رفض أن يُسند إليها دورالبطولة في فيلمه، أو جرّبها في الدور فوجدها غير صالحة فاختار غيرها، فيعدها صديقُها الصحفي بأن "يبهدله ويمسح به الأرض" في نقده للفيلم، و"يبهدل" الممثلة التي أخذت الدور منها ويمسح بها الأرض، وكلّ هذا من قبل أن يرى الفيلم، وبصرف النظر عن مستوى أداء الممثلة!!

س. ما هو خير أعمالك السينمائية في رأيك أنت؟

ج. البعض يرى أن "اليوم السادس" هو خير أفلامي على الإطلاق.. ربّما.. والبعض ممن يعتقد أن أفلامي تزداد بمرور الأيام صعوبة أو "حذلقة" كما يسميها، يصرّ على أن فيلم "باب الحديد" الذي أخرجتُه من نحو ثلاثين عاماً (١٩٥٨)، هو خيرها طرًّا.. غير أني أعتزّ

بصفة خاصة بفيلم "إسكندرية ليه؟"، لأكثر من سبب.. كنت قد أُصبت قبله بأزمة قلبية كادت أن تودي بحياتي، وأُجريت لي في أوروبا عملية خطرة معقّدة. وكنت خلال تلك الفترة العصيبة أحاسب نفسي وأراجع حياتي لأرى ما قدّمت يداي، وما إذا كنت تاركاً بموتي عملاً ذا شأن. فإذا بي غير راض عما أنتجتُ فيما سلف، معاهداً نفسي لو قُدّر لي أن أعيش أن أقدم في عملي التالي عصارة حياتي وتجاربي وخبراتي في قالب سينمائي فنّي من الدرجة الأولى. وكان فيلم "إسكندرية ليه؟".. هو أول فيلم على الإطلاق ــ في مصر أو خارج مصر ــ يتحدّث فيه المخرج عن نفسه وعن حياته بصورة مباشرة، وبصدق وصراحة كاملين.. ربما كان فيلم فريدريكو فيلّيني (ثمانية ونصف) مستوحى من حياته، غير أنه خلط فيه الخيال بالحقيقة، والبطل فيه لا يحمل اسمه.. أما "إسكندرية ليه؟" والفيلم المكمّل له "حدّوتة مصرية"، فهما يوسف شاهين من ألفه إلى يائه.. أضف إلى ذلك أنه من الأفلام المصرية النادرة للغاية التي تصوّر عائلة مسيحية مصرية بعاداتها وأسلوب عيشها ومفاهيمها. وفي رأيي أن الفنون المصرية بوجه عام تفتقر بشدة إلى صور لهذا القطاع من المجتمع المصري. وهو تقصير أنسب المسئولية عنه إلى الفنانين المسيحيين المصريين.

على كلّ حال، فإن كل فيلم من أفلامي قطعة من نفسي، وثمرة فترة معينة من حياتي. أو على حدّ التعبير الشائع: "كلّهم أبنائي"!

آرنولد هوتينجر

كنت في مدينة ستراسبورج في نوفمبر ١٩٩١ للاشتراك في ندوة عقدها المجلس الأوروبي لبحث سبل التعاون الأوروبي العربي.. وقد وجدت نفسي خلال حفل غداء أقامته رئيسة المجلس للمشاركين، أجلس إلى جوار الكاتب السويسري أرنولد هوتينجر، الذي أجريت معه الحوار التالي:

***

س: لا شك في أن فهم كل من الأوروبيين والعرب للطرف الآخر تحكمه منذ مئات السنين، وإلى اليوم مجموعة من الكليشيهات أو الأفكار المبتذلة التي عفى عليها الزمن، والتي آن الأوان لتعديلها وإحلال المفاهيم السليمة مكانها.. ما هي في رأيكم طبيعة هذه الكليشيهات، وجذورها التاريخية، وكيفية استئصالها؟

ج: في ظني أنه ما دام ثمة توازن في القوى بين شعبين أو حضارتين يدفع كلاً من الطرفين إلى الاعتراف بقوة الآخر وإلى أخذه بعين الاعتبار والاهتمام، فإن الكليشيهات هنا إن نشأت فهي في العادة كليشيهات تنمّ عن الاحترام والتقدير، حتى مع الاعتراف باختلاف الطرف الآخر، سواء في القيم أو الدين أو أسلوب العيش. فهنا نجد الإقرار بالجوانب الإيجابية ومزايا أساليب الحياة ونواحي القوة في معتقداتهم وقيمهم.. من أمثلة ذلك ما نجده في كتب الأوروبيين في العصر الوسيط من إشادة بحضارة مسلمي الأندلس، ومن مديح لصلاح الدين الأيوبي أو الظاهر بيبرس، وفي كتب المؤرخين المسلمين في نفس العصر من إعجاب بشخصية فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أو ببلاطه

في صقلية.

غير أن كل هذا يتغير متى ما اختل هذا التوازن في القوى وأصبح ثمة طرف أقوى بكثير من الطرف الآخر، سواء من الناحية العسكرية أو الحضارية أو الاقتصادية.. فهنا يصبح الطرف الثاني موضع احتقار الأول، وتضحى نظرة الأول إليه ليست فقط باعتباره "مختلفاً"، ولكن أيضاً باعتباره ضعيفاً و"متخلّفاً"، ولا مستقبل أمامه إلا إن هو تعلّم من الأول وتبنّى مفاهيمه وأسلوب عيشه ومظاهر حضارته. وهنا تنشأ لدى الطرف الأقوى حاجة إلى الحفاظ على ذلك الوضع من اختلال التوازن، لا بالوسائل العسكرية فحسب (فهي وسائل مكلّفة سواء بشرياً أو مادياً)، وإنما أيضاً عن طريق النشر المتعمد لمجموعة من الأفكار والكليشيهات الخاصة بأوجه الاختلاف بين الطرفين، وتصويرها على أنها ثابتة لا تتغير، وذلك من أجل إثبات حقه في استمرار هيمنته، وغرس الشك لدى الآخر في ذاته وفي قدراته على التصدّي بنجاح لمقاومة الطرف الأول الذي ينتمي إلى جنس أرقى، وحضارة أعلى.

حينئذ يهم الطرف الأقوى أن يشيع لدى الجميع، هنا وهناك، فكرة أنه الطرف المتحضر، وأن عليه عبء نشر الحضارة في الأقطار الهمجية المتأخرة، ومسئولية إلحاق هذه الأقطار بركب الحضارة والمدنية ولو في ذيل ذلك الركب.. وفي اعتقادي أنه ربما كان من الأهداف الرئيسية لإنتاج مسلسلات تيليفزيونية أمريكية مثل "دالاس" وغيره، وعرضها في دول العالم الثالث، إطلاع شعوب العالم الثالث على ما تتمتع به الشعوب المتحضرة من رخاء وثراء ونعيم عيش، وهو ما لن يحققه العالم الثالث ولو بعد ألف عام، "ما لم تبدأ شعوبه من الآن بإبداء الرغبة والاستعداد لاقتفاء أثرنا نحن، وإطاعتنا طاعة كاملة، والامتثال لأوامرنا، ببيعها مثلاً ما في أراضيها من النفط لنا نحن، وهو النفط الذي وجدناه نحن في صحاريهم التي تتبعهم اسمياً".. فعن طريق الأفلام والمسلسلات التيليفزيونية وما شابهها إذن يمكن تبليغ هذه الرسالة بصورة غير مباشرة، ولكنها أكثر فعالية وأبلغ تأثيراً، بالنظر إلى أنها تتسلّل إلى العقل الباطن دون أن تلقى مقاومة أو اعتراضاً، فيصعب التصدّي لها أو تحدّيها.

ولا يكتفي الغرب بإبراز الجوانب "الإيجابية" من حضارته هو، وإنما يعني أيضاً بإبراز

الجوانب "السلبية" في المجتمعات التي يهيمن عليها، وذلك من أجل استئصال أي إحساس بالذنب أو تأنيب الضمير قد يشعر به المهيمنون من جرّاء استغلالهم أو استعمارهم لأقطار أخرى.. فهو يصوّر شعوب تلك الأقطار على أنها في حاجة دائمة إلى مساعدة الغرب وتوجيهاته بالنظر إلى عجزها عن مساعدة نفسها، ويحاول أن يخلق لدى تلك الشعوب استعداداً لقبول كل ما يقرّر الغرب أنه مفيد لها وله.. وعلى سبيل المثال: صحيح أنه لا يزال في العالم العربي حمير وجمال ونخيل ورمال وخيام وبدو، غير أن هناك اليوم أشياء أخرى كثيرة غير هذا.. ولذا فإن الشركات السينمائية تكثر من إنتاج الأفلام التاريخية أو المستقاة من قصص الكتاب المقدس، حتى ترسخ في أذهان المشاهدين من الأوروبيين والأمريكيين هذه الصورة القديمة عن الشرق الأوسط.. فإن تناولت الأفلام موضوعات حديثة فهي عادة أفلام بوليسية أو أفلام مغامرات تُظهر أهل المنطقة بنفس الصورة البدائية تقريباً.. ولا يلاحظ المتفرجون عندنا إلا نادراً أن هذه الأفلام تقدّم عامدة خدمة كبيرة لمصالح ذوي النفوذ في الغرب بخلقها مفاهيم وكليشيهات عن مدى تخلّف أهالي الأقطار الأخرى.

***

س: ألم تتغير خلال نصف القرن الأخير طبيعة مصالح الغرب في مستعمراته السابقة، وبالتالي سبل تحقيق أهدافه فيها؟

ج: لا شك في ذلك، حدث تغيير جذري حين وضح في بعض الدول ـ كبريطانيا مثلاً ـ أن المستفيد من المستعمرات ليس هو الشعب البريطاني، وإنما هي جماعات معينة من الطبقات العليا في المجتمع البريطاني.. هذه الجماعات أضحى بمقدورها اليوم تكوين الثروات بطرق أخرى غير الاستعمار، كما أنها اكتشفت فجأة أن الإبقاء على المستعمرات بات يكلف المستعمرين أكثر مما تدرّه هذه المستعمرات من دخل، بالنظر إلى اضطرار المستعمرين إلى الإنفاق على جيوشهم فيها، بل وفي أحيان كثيرة إلى إنفاق بعض الأموال من أجل تخفيف أعباء الفقر المدقع الذي يعيش فيه أهالي مستعمراتهم. وهي أموال رأى المستعمرون من الأجدى إنفاقها على الطبقة العاملة البريطانية.. وبتغيّر طبيعة المصالح،

قررت بريطانيا فجأة منح مستعمرات كالهند ومصر استقلالها الذاتي الذي جاهدت من أجله لسنوات طويلة في الماضي.

وفي السنوات التالية للحرب العالمية الثانية نشأت نظرة أمريكية متفائلة، مؤدّاها أن كل الدول المتخلفة (أو النامية كما سميت فيما بعد) يمكنها أن تلعب دوراً مرغوباً فيه، هو دور الشريك في التجارة والصناعة الدوليتين، شأنها في ذلك شأن ألمانيا الغربية التي ساعدها مشروع مارشال على الوقوف على قدميها.. وقد خُيّل للأمريكيين أن النهضة الاقتصادية للدول النامية يمكن أن تتحقق وأن تؤتي ثمارها في زمن قصير جداً.. بوسعنا أن نسمي تلك الفترة بفترة "أساطير التنمية"، وكان أساسها الفكرة التالية: "نحن نساعدكم الآن حتى تصبحوا قريباً شركاء في عالم الغد الزاهر الذي سنعيش فيه جميعاً في رخاء عميم". وقد كان الجميع مخلصين في قبولهم لهذا الزعم وتصديقه. غير أن الذي حدث هو أن الفكرة لم تتمخض إلا عن تصدير واسع النطاق لرءوس الأموال إلى الدول المتخلفة، وتصدير أوسع نطاقاً للسلع الاستهلاكية، تدفع تلك الدول ثمنها مما لديها من مواد خام، ومما حصلت عليه من قروض وائتمانات، حتى وجدت نفسها دون أن تدري مكبلّة الأيدي والأقدام، وقد زاد اعتمادها سنة بعد أخرى على الدول الصناعية في حصولها على السلع والمواد الغذائية والخبرات، بل والأفكار ذاتها، ثم أفاقت لتدرك أنها باتت غارقة في ديون لا هي قادرة على تسديدها ولا حتى تسديد قيمة فوائدها.

أما عن أفراد الطبقة الحاكمة المتفرنجة في تلك الدول فقد كانوا دائماً من الأنانية وضيق النظرة والتعلق بمصالحهم الخاصة بحيث قدّروا أن أهم احتياجات بلادهم تتمثل في السلع الاستهلاكية ومستلزمات الترف التي شاهدوها في الأفلام المصدّرة إليهم.. أما الأمر الأكثر إيلاماً فهو أن هذا النمط المتبنّى من التنمية لم تصحبه تسوية للنزاعات والصراعات بين الأقطار المتجاورة في العالم الثالث. وقد استغلت الدول العظمى هذه النزاعات لصالحها بتزويد الأطراف المتصارعة بالأسلحة مقابل ما لديها من ثروات زراعية أو نفطية، وانشغلت الأقطار المتخلفة باستخدام هذه الأسلحة في تدمير بعضها البعض.. كذلك فإن تطبيق سبل العناية الصحية والأساليب الطبية الحديثة، نتج عنه زيادة رهيبة في تعداد سكان دول العالم الثالث، مما كان يبتلع أولاً بأول ثمار أي تقدم تحققه مشروعات التنمية.

على ضوء هذه النكسات وغيرها تغيرت مرة أخرى نظرة الدول الصناعية المتقدمة إلى طبيعة مصالحها، فظهرت فيها نظرية جديدة مؤداها "أن الآخرين مختلفون عنا، والأجدى أن نتركهم وحدهم، وأن نركز اهتمامنا على المناطق القليلة ذات الثروات التي لا غنى عنها لنا ولصناعاتنا ومجتمعنا.. وأهم هذه الثروات هو النفط. فعلينا إذن أن "تضمن" ما يسمى بالاستقرار في تلك المناطق أو الدول "الهامة".. ومن حسن الحظ فإن تعداد السكان فيها هو عادة قليل. فلنجعل منها الشركاء الجدد للعالم الصناعي. وكلما زاد اعتماد مواطنيها على حمايتنا العسكرية لهم، زاد حقد جيرانهم الفقراء عليهم. غير أن هذا لن يضير العالم الصناعي في شيء. فالحقد لابدّ أن يستثير المخاوف. وستضطر المخاوف شركاءنا الأغنياء في الأقطار المنتجة للنفط إلى الاعتماد أكثر فأكثر على حماية الدول الصناعية القوية.

سنكون عندئذ كالبرتغاليين الذين أدركوا في مرحلة معينة من تاريخهم أنه لم يعد بمقدورهم الاستمرار في استعمار وحكم بقاع شاسعة من بقاع الأرض، فاختاروا الاحتفاظ بعدد منتقى من الموانئ تظل تحت هيمنتهم، وتضمن تدفق الثروات الناجمة عن التبادل التجاري على البرتغال.

الخطر الوحيد الذي قد يتمخض عن مثل هذا الوضع الجيد من وجهة نظر الدول الصناعية، هو أن تتجه الملايين المتكاثرة من الشعوب التي لم نخترها شركاء لنا والتي تركناها وشأنها، إلى التضامن والتضافر ضدنا، ولكي نحول دون تحقق هذا التضامن والتضافر، علينا أن نتمسك دائماً بسياسة "فرّق تسد"، وأن نخلق الأسباب والدواعي التي تدفعهم إلى التحارب فيما بينهم، في الوقت الذي ننشغل نحن فيه بتنسيق مصالحنا وسياساتنا التجارية والصناعية. كذلك فإنه سيكون بمقدورنا دائماً أن نبعث بقوات دولية إلى تلك المناطق بدعوى الحفاظ على السلام والاستقرار، ثم نبقيها هناك إلى أبد الآبدين.. ففي بعض تلك المناطق، مثل كشمير، ظلت القوات الدولية باقية لأكثر من أربعين عاماً أفلحت خلالها لا في حلّ النزاع وإنما في تطويقه.. وها هي قبرص وقد أضحت مثلاً آخر.. وسيكون بوسعنا أن نقنع الكافة بسهولة أن الذنب ليس ذنبنا وإنما هو ذنب تلك الشعوب المتخلفة التي تتحكم فيها العواطف لا العقل، والتي ستبقى إلى الأبد (على حدّ تعبير أحد الجنرالات الإسرائيليين الذي ربما كان في تعبيره أصرح مما ينبغي) كالصراصير السكارى

داخل زجاجة مغلقة! والأفضل من كل ذلك أن ننشر هذه الفكرة من خلال الأفلام المصورة لهذه الصراعات والاشتباكات، حتى يراها الكافة ويصدّق الجميع زعمنا أنهم هم المسئولون الوحيدون عن وضعهم البائس.

لقد نجحت الدول الصناعية في تكييف مشاعر وآراء الشعوب المتخلفة والمتقدمة على السواء. فقد بات لدى الشعوب الغنية إحساس راسخ بتفوقها وحقها في الهيمنة على مقدّرات العالم، وأضحى لدى الشعوب الفقيرة إيمان بتخلّفها وبمشروعية وضعها الذليل في عالم اليوم. أما الدول المتخلفة الغنية كدول الخليج المنتجة لنفط تبيعه لنا، فلا حاجة بها إلى الإحساس بالنقص، حيث أنها باتت دولاً صديقة لنا وتحت حمايتنا.. فإن حدث ما لا مفرّ من حدوثه في بعض الأحيان وثارت الدول الفقيرة على وضعها، فستنشأ الحاجة من حين إلى آخر إلى استخدامنا للقوة في قمع تمرّدها، ما لم تكن فيها حكومات قوية يمكننا الاعتماد عليها في استخدام الشرطة والجيش من أجل القضاء على القلاقل، وستعمل الصورة التي غرسناها عن حكمتنا وشعورنا بالمسئولية، وعن نزقهم وافتقارهم إلى الشعور بالمسئولية، على تبرير هذه الإجراءات الحكيمة، وهذا التدخل "المشروع" من جانبنا، حتى لو تصادف أن لاحظ البعض كيف أن هذه الإجراءات وهذا التدخل تتفق اتفاقاً تاماً مع مصالحنا الخاصة.

***

س. ما دور الحكومات المحلية في ظل هذا الوضع؟

ج. للحكومات المحلية فوائدها في مثل هذه اللعبة.. وكلما زادت خدماتها لنا سيزيد استعدادنا للتغاضي عن حكمها الاستبدادي في بلادها.. ذلك أن استخدام الحكام المستبدين بالسلطة كأدوات لتنفيذ مصالحنا هو أسهل علينا من استخدام الأنظمة الديموقراطية، وذلك بالنظر إلى شدة خوف المستبّدين على حياتهم، وشدة تعلقهم بمناصبهم، مما يضطرهم اضطراراً إلى طلب حمايتنا.. وهذا هو بالضبط سرّ إبقاء الولايات المتحدة على صدام حسين في حكم العراق بعد هزيمته الساحقة في حرب الخليج. فبالرغم من محاربته وتشبيهنا إياه بهتلر وكل ما صببناه عليه من لعنات، قد أصبح الرجل الآن بعد تأديبه وتقليم أظفاره أهلاً لأن يكون شريكاً لنا. وقد استفاد صدّام استفادة عظيمة من مَثَل جاره الأذكى والأكثر فطنة،

وأعني حافظ الأسد في سوريا الذي فهم قواعد اللعبة، وأخذ نفسه بالانصياع لها، واقتنع بأنه من الأفضل الانضمام إلينا وإلا أطيح به.. غير أننا سنظل دائماً على تفضيلنا للدول النفطية ذات التعداد الصغير من السكان، لأن إدارتها أسهل من إدارة الدول الكثيرة السكان مثل إيران والعراق والجزائر ومصر.

***

س. ألا ترى أن مثل هذه النظرة من الدول الصناعية نظرة ضيقة، وخطرة عليها في المدى البعيد، وشبيهة بقولة لويس الخامس عشر "بعدي الطوفان"؟

ج. بالتأكيد.. ثمة خطر من أن تضحى الدول الصناعية حبيسةً فضحيةً لمفهومها عن مصالحها، وكليشيهاتها عن العالم الثالث وعن نفسها، وهي الكليشيهات التي تخلقها أجهزة الإعلام فيها.. ذلك أن كل ما يشغل بالها حالياً هو كيفية الاستفادة المادية في الوقت الراهن وفي المستقبل القريب، ثم "بعدي الطوفان" كما قلت. انظر إلى مبيعاتنا من السلاح مثلاً إلى الدول النامية. أو انظر إلى أفلامنا وبرامجنا التيليفزيونية التي تخلق الرغبات والتطلعات لدى شعوب فقيرة لن يمكنها أبداً أشباعها أو تحقيقها، اللهم إلا حكامها وطبقة جدّ محدودة من الأثرياء فيها.. نحن نسعى إلى أن تقلّدنا هذه الشعوب لأننا نعرف أن التقليد بطبيعته يرسّخ الإحساس بالنقص والشعور بعدم المساواة.. غير أن إعلامنا وأفلامنا تقول لهم: "عليكم بالعمل على اقتناء ما لدينا مهما كانت كلفة ذلك عليكم وعلى مجتمعاتكم وإلا بقيتم على تخلفكم". ولا شك في أن هذه الرسالة رسالة خطرة. فتزايد رغباتهم وتنامي تطلعاتهم ــ دون القدرة على إشباعها ــ يهدّدان أمننا. وإدراكنا لهذا الخطر سيدفعنا إلى أن نحرص ــ بل وقد بدأنا نحرص من الآن ــ على بناء أسوار عالية حول مجتمعنا الصناعي المتقدم حتى لا يتسلل إلينا الفقراء والإرهابيون وسائر الخطرين على أمننا من العالم الثالث.. بدأنا نضع العقبات في سبيل حصولهم على تأشيرات دخول إلى أراضينا، أو على تصاريح بالإقامة أو العمل فيها، ورفعنا أسعار تذاكر السفر إلى أقطارنا. وسيأتي الوقت الذي لن نسمح فيه بالدخول إلينا إلا لعدد محدود جداً منهم وذلك في أوقات الرخاء حين نكون في حاجة إلى أيدٍ عاملة رخيصة تقوم بالأعمال الوضيعة التي يأبى مواطنونا أداءها، أو إلى

أطفال نتبنّاهم حين يقل عدد السكان في هذا البلد من بلادنا أو ذاك..

غير أن هذه الأسوار لا شك في أنها ستُخترق متى عظم الضغط عليها من الخارج، وسيزداد الضغط عليها كلما ازدادت الشعوب الفقيرة المتخلفة فقراً وتخلفاً.

هنا يكمن الخطر علينا.

بعدي الطوفان نعم، ولكن ليس بعد أولادي.

ولن يتحقق تصحيح الوضع إلا إذا تغيرت طبيعة نظرتنا الراهنة إلى علاقاتنا بالعالم الثالث.. تغييراً جذرياً.

فرج فودة

حين اتّصل بي فرج فودة تليفونياً صباح يوم ٦ مايو ١٩٨٤ يطلب زيارتي في منزلي، لم أكن قد قابلته من قبل، وإن كنت قد سمعت عنه وقرأت كتابه الممتع عن أسباب خلافه مع فؤاد سراج الدين، واستقالته من حزب الوفد الجديد، بسبب ما ارتأى أنه تنكّر من جانب الوفد لمبادئه العلمانية القديمة، وما استنكره من انتهازية فؤاد سراج الدين المتمثّلة في تحالفه مع جماعة الإخوان المسلمين بغرض توسيع قاعدة الوفد الشعبية.. وسرعان ما برز اسم فرج فودة بعد صدور كتابه هذا باعتباره النصير الأول للعلمانية في مصر، والمناضل الذي لا يكلّ ولا يملّ ضدّ الجماعات الإسلامية.

أتى لزيارتي عصر ذلك اليوم، وأمضينا ساعتين في حجرة مكتبي.. رجل في نحو الأربعين من العمر، شديد السمنة، أصلع الرأس، يبدو أكبر كثيراً من سنّه وإن كان جمّ الحيوية والنشاط.. بدأ بالثناء ثناء مفرطاً على كتابي "دليل المسلم الحزين" ومقالاتي في مجلة "المصور"، ملقّباً إيّاي بأستاذه. وقد ظل حتى مات على هذا الثناء المفرط أمامي على كتاباتي وعلى هذا التلقيب لي بأستاذه ومعلّمه، وإن كنت لاحظت خلال السنوات الثماني التالية أنه يكيل نفس الثناء للكثيرين، ويصف نفسه للكثيرين بأنه تلميذ لهم.. مجرد لُطْف معشر لا يرقى إلى درجة النفاق. وقد حبّبه تودّده هذا إلى قلوب معارفه، كما حبّبه إليهم روحه المرحة، وخفّة ظله المتناهية، وذكاء حديثه، وأدبه الجمّ، وخلوّه من علائم الغرور رغم اتّساع نطاق شعبيته يوماً بعد يوم، وبسرعة مذهلة، خاصة بين العلمانيين والأقباط ولدى الدوائر الرسمية.. كنا فيما بعد إذ نستقلّ سيارته أو سيارتي معاً، يفاجئنا ركاب السيارات عن يميننا أو يسارنا إذ يتعرّفون عليه بالهتاف له والدعاء له: "الله ينصرك يا

دكتور فرج! ربنا يخلّيك لنا يا دكتور!"، فتتهلّل أساريره فرحاً، ويردّ على المحيّين بالشكر رافعاً يده إلى صُدغه.

لم يكن ثمة هدف واضح له من تلك الزيارة الأولى غير التعارف وإبداء الإعجاب، والتعبير عن أمله في أن تتوثّق الصلة بيننا.. وقد كان حكمي عليه وقتها أنه وإن كان سياسياً أصيلاً متمكّناً، مجرد مبتدئ في مجال الدراسات الإسلامية، على عكس المستشار محمد سعيد العشماوي.. لذا فقد كانت دهشتي عظيمة إذ أتبيّن بمرور الأيام، سواء من خلال أحاديثه ومحاضراته وما يشترك فيه من ندوات، وكذا من خلال كتبه العديدة المتتابعة في الإسلام، نمواً سريعاً مطّرداً في معارفه الإسلامية، وهو نموّ لم يكن بالوسع تفسيره بغير إلزامه نفسه إلزاماً صارماً بالتوسع في القراءة في كتب التراث العربي.

بعد ستة أيام من تلك الزيارة، دعاني المحامي والسياسي المخضرم القدير الأستاذ مصطفى مرعي إلى تناول الشاي معه في منزله بالجيزة.. تحدّث طويلاً عن تصوّره لكيفية إصلاح أحوال مصر من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وعن أنه في سبيله إلى إعداد برنامج قابل للمناقشة والتعديل، وإلى تأسيس جماعة باسم "أنصار الفكر الحرّ"، هو على استعداد لتمويلها وتهيئة مقرّ لها ولرئاستها إن رأت غالبية الأعضاء أن يرأسها. ثم ناولني قائمة بأسماء مائة من الشخصيات العامة مختلفة الميول والاتجاهات، راجياً إيّاي الاتصال بهم لاستطلاع رأيهم بشأن الانضمام إلى الجماعة. وقد وردت في القائمة أسماء طارق البشري وسعيد العشماوي وفرج فودة ونعمات فؤاد واسمي وأخي جلال. ثم أفادني بأنه على وشك السفر إلى سويسرا مع زوجته (شقيقة الممثل القدير محمود مرسي) لمدة أربعة أشهر، أوافيه بعدها بنتيجة اتصالاتي وتصوّري للقاءات الجماعة ونشاطها وسياستها.. وباتصالي بفرج فودة مساء اليوم نفسه (١٢ مايو ٨٤)، تردّد لحظات قبل أن يجيب بقوله: "الحقيقة أنني الآن في سبيل تأسيس حزب سياسي جديد، هو حزب المستقبل، وقد وضَعتُ برنامجه المشابه في الكثير من ملامحه لأهداف جماعة مصطفى مرعي، وكنتُ على وشك زيارتك لإعطائك نسخة مطبوعة من هذا البرنامج، ولدعوتك إلى الانضمام إلى عضوية اللجنة التأسيسية للحزب. فهل يمكنك إبلاغ أستاذي العظيم مصطفى مرعي عميق امتناني إذ فكّر في شخصي، والصعوبة العملية التي تعترض جمعي بين رئاسة

حزب وعضوية تنظيم آخر، واستعدادي الكامل مع ذلك لإدماج الحزب بالجماعة مع التخلّي من جانبي له عن الرئاسة؟

ثم كان أن لم يُقَدَّر لا لجماعة مصطفى مرعي ولا لحزب فرج فودة أن يرى النور.. لم يقبل فكرة مرعي معظم الشخصيات المائة التي اقترحها، واندثرت الفكرة إلى الأبد بوفاته بعد عودته من سويسرا بفترة قصيرة. أما حزب المستقبل، فقد أقام فرج فودة احتفالاً بتأسيسه بسرادق في جاردن سيتي يوم ٨ أكتوبر ٨٤، دعا إليه السفراء الأجانب ورجال الصحافة وعدداً من الشخصيات العامة المستقلة وزعماء القبط، وقرأ فيه برنامج سياسته الداخلية والخارجية. غير أن الحكومة لم تقبل التصريح بقيام الحزب رغم تأييدها لسياسته العلمانية، خشية مطالبة الإسلاميين بتشكيل تنظيمات دينية مقابلة لهذا الحزب العلماني، أو خشية بذر بذور فتنة طائفية جديدة.

والواقع أني منذ قراءتي لبرنامج الحزب، لم ألمس ما يشجعني على الانضمام إليه. ذلك أنه بالرغم مما حاول فودة إضفاءه عليه من صبغة ليبرالية، تبيّنت في طياته نزعة فاشية واضحة لا تبشّر بخير، وهي نزعة تمثّلت في استعداده لقمع الحركات الإسلامية بنفس الأساليب التي انتهجها النازيون تجاه مخالفيهم في الفكر، أو في تصريحه الساذج بضرورة ضم السودان وليبيا بالقوة إلى مصر، أو فيما لمسته من فرج فودة من اعتماد في تمويل نشاطه على ما يزوّده به نظام صدام حسين في العراق من مال. وقد حاول مرة واحدة جسّ نبضي بصدد إمكان مرافقتي إيّاه في زيارة لبغداد. فلما أبيتُ بقوة، تظاهر على الفور بالاقتناع برأيي، ولم يفاتحني بعدها قط بشأن صلاته بعدد من الجهات الأجنبية.

كان موقف الحكومة منه يتّسم بالتذبذب. فهي من ناحية تقرّ علمانيته ويسرّها هجومه العنيف في كتاباته ومحاضراته على الجماعات الإسلامية، متطرّفها ومعتدلها. غير أنها في نفس الوقت تمنع ظهوره في التليفزيون أو إلقاءه الأحاديث في الإذاعة، إذ كانت تدرك أن عنف هذا الهجوم ــ وإن أطرب العلمانيين والمسيحيين وصحافة الغرب ــ يثير غضب الإسلاميين ويبعثهم على المزيد من التطرف والتصلّب في مواقفهم، خاصة وقد باتوا يعتقدون أن فرج فودة ألدّ خصوم فكرهم، وأن مقالاته الأسبوعية في مجلة "أكتوبر" تسيئ إساءة بالغة إلى صورتهم وسمعتهم لدى المثقفين المصريين.. كانت تلك المقالات، وكتبه

بوجه عام، لاذعة حقاً، مليئة بالسخرية والتهكّم اللذين كثيراً ما كانا يصلان ــ في رأيي على الأقل ــ إلى حدّ الإسفاف والردح.. بل كثيراً ما كانت السلطات توافق على طلب شيخ الأزهر أو غيره مصادرة كتب فودة، وتغض الطرف عن قيام المُلْتَحين في المعارض الدولية للكتاب بالقاهرة بالاستيلاء عنوة على النسخ المعروضة من تلك الكتب ثم إتلافها أو إحراقها، وعن قيام أعدائه في الندوات التي يشترك فيها بسبّه وإهانته والشوشرة على حديثه والهتاف ضده..ومع ذلك فقد عينت الحكومة حارساً خاصاً له بعد تكرّر التهديد باغتياله، فكان الحارس يرافقه في غدوّه ورواحه، يجلس إلى يمينه بالسيارة إن خرج من داره، ويقف مسلّحاً أمام مقرّ مكتبه وأمام مقر سكنه وأمام باب أيّ مسكن لصديق أو قريب يكون في زيارة له.. وقد ضجر فرج فودة في النهاية ــ شأن نوال السعداوي فيما بعد، أو علاء حامد، أو نصر حامد أبو زيد ــ من عبء هذه الملازمة المستمرة التي تقيّد حريته في الحركة، وتنتهك حرمة حياته الخاصة. فكان أن طلب من السلطات أن تسحب الحارس، موقّعاً على إقرار منه بأنه مسئول من وقتها مسئولية كاملة عن سلامته الشخصية.

بالرغم من كل شيء، من عدم رضائي عن عنصر الإسفاف في مقالاته، وشكّي بصدد صلاته بجهات أجنبية، ومصادر تمويل نشاطه وأسفاره العديدة، فقد ظلت العلاقة بيننا طيبة ودّية حتى النهاية، يسرّني الالتقاء به ويسرّه الالتقاء بي في الندوات والمحافل العامة وحفلات العشاء، يزورني في بيتي وأزوره في مكتبه الذي قابلت عنده فيه لأول مرة الكاتب أحمد صبحي منصور، وكان وقتها حديث عهد بفصله من وظيفته كمدرس بالجامعة الأزهرية بسبب آرائه التي وصفها المسئولون هناك بأنها أفكار إلحادية.. أما عن مسكن فرج فودة فلم تطأ قدماي عتبته قط، ولا كان ــ على حدّ علمي ــ يدعو أحداً لزيارته فيه أو تناول وجبة عنده، بسبب مشكلاته العائلية المؤلمة.

غير أنه حدث في ١١ مارس ١٩٩٢ أن نشرت لي صحيفة "الأهالي" مقالاً ضمّنته النص الحرفي لمكالمة تيليفونية بيني وبين الدكتور فرج، وتعرّضنا فيها بالحديث عن المستشار سعيد العشماوي.. وفيما يلي نص المكالمة:

ــ طبعاً سمعتَ الخبر يا أستاذ حسين.

ــ أيّ خبر؟

ـ خبر مصادرة خمسة كتب للمستشار سعيد العشماوي في معرض القاهرة الدولي للكتاب.

ـ نعم. وقد آلمني الأمر وأحزنني أشدّ الحزن.

ـ آلمك وأحزنك؟! اسمح لي أن أسألك: على من أحزنك الخبر؟

ـ على المستشار العشماوي بطبيعة الحال.

ـ على المستشار العشماوي؟! أستاذي الكبير، ارفع سماعة تيليفونك واتّصل بدار سيناء للنشر لتسألها عن حجم مبيعاتها من الكتب الخمسة مُنذ أذيع خبر مصادرتها.. في بحر ثلاثة أيام يا صديقي بيعت سبعة آلاف نسخة من كتاب "معالم الإسلام"، وخمسة آلاف نسخة من كتاب "أصول الشريعة"، وستة عشر ألف نسخة من كتاب "الخلافة الإسلامية"، وهلمّ جرًّا.. كم نسخة بيعت من كتابك "الإمام" حتى الآن؟

ـ ثلاثة آلاف.

ـ اتفرّج يا سيدي.. وأنا لم أبع من كتابي "الحقيقة الغائبة" غير ألفي نسخة!.. كم يدفع ناشرك مقابل إعلان صغير عن كتاب لك في "الأهرام" أو "الأخبار"؟

ـ ستمائة جنيه على أقل تقدير.

ـ والمستشار سعيد العشماوي تتهافت الصحف والمجلات اليوم على نشر الأحاديث معه والمقالات له عن قرار مصادرة كتبه، على ثلاث صفحات أو أربع، ومع صورة كبيرة له، دون أن يدفع شيئاً.. بل ربما دفعت هذه الصحف والمجلات له المكافآت عن هذه الأحاديث والمقالات.. لقد كان جمهور السينما عندنا وقت صباي يهتف بالبطل حين يراه يقبّل البطلة: "أيوه يا عمّ! تبوس وتاخد فلوس!". كذلك العشماوي: تُنشر الإعلانات الضخمة عن كتبه ويتقاضى عنها مكافأة!.. ارفع سماعة تيليفونك واتّصل به هو نفسه لتدرك مدى تهلّله وسعادته بهذه الهبة التي نزلت عليه من السماء في صورة قرار بمصادرة كتبه.. وقد كان الرجل في جميع أحاديثه مع الصحف من الدهاء والمكر بحيث تظاهر بالغضب والاستياء الشديدين من هذا القرار وكأنما أُضير من جرّائه ضرراً بالغاً.. بل وهدّد برفع قضية على مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر!

ـ أجادّ أنت؟ تقول إنه سعيد بما حدث؟

ـ كلّمه أنت.. أليس صديقك؟ دار سيناء يا أستاذي بعد أن نفدت كتبه تستعين بثلاث مطابع في آن واحد لإعادة طبع الكتب، والمطابع تعمل ليل نهار كي توفرّها في السوق في ظرف أسبوع واحد لمواجهة الطلب المتزايد عليها.

ـ هذا خبر سارّ حقاً.

ـ سارّ حقاً؟ اسمح لي أن أسألك: سارّ بالنسبة لمن؟

ـ للعشماوي بطبيعة الحال.

ـ للعشماوي؟ وماذا عني وعنك يا أستاذ حسين؟ ماذا عن كتبي وكتبك؟ لماذا لم يأمر مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر بمصادرتها هي أيضاً رغم أنها تحوي من الأفكار ما هو أخطر ألف مرة مما ورد في كتب العشماوي؟ "دليل المسلم الحزين" مثلاً، أو "الإسلام في عالم متغير"، أو "قبل السقوط"، أو "نكون أو لا نكون".. هل هذه الكتب في رأيك أقل خطراً من كتب المستشار العشماوي؟ أم هي في رأي الأزهر لا غبار عليها من الناحية الدينية ككتب الشيخ الغزالي أو الشيخ القرضاوي.

ـ الحقيقة أنني...

ـ لا يا أستاذي الفاضل.. ليس الأمر كما تظن.. بل أكاد أجزم الآن بأن العشماوي لابدّ قد دفع مبلغاً ضخماً لجهة ما كي توصي مجمع البحوث الإسلامية بمصادرة كتبه.. من المحال أن نجد تفسيراً لما حدث غير هذا التفسير.. العشماوي ـ بحكم خبرته وثقافته ـ يعلم أن بعض المؤلفين الأوروبيين والأمريكيين يلجأ اليوم إلى رشوة نقّاد ليقوموا بمهاجمة كتبهم في الصحف والمجلات الأدبية على نحو يثير شوق قراء الصحيفة أو المجلة إلى شراء الكتاب لقراءته، ويعلم أنه لولا مصادرة السلطات في فرنسا لرواية فلوبير "مدام بوفاري" ورواية زولا "الأرض" لما حظى هذان المؤلفان بما حظيا به من الشهرة والثروة وذيوع الصيت.

ـ ألا يمكن أن يكون أعضاء مجمع البحوث قد أصدروا قرار المصادرة متطوّعين مشكورين غير مأجورين، من تلقاء أنفسهم، ودون سابق اتصال من جانب العشماوي بهم؟

ـ لا يا أستاذنا الكبير! وإلاّ فلماذا لم يصادروا أيضاً كتب فرج فودة وحسين أمين؟ هه؟ جتنا نيلة في حظنا الهباب!.. الحقيقة أنني قد بدأت أغضب من العشماوي.. كان من واجبه

ـ ونحن الثلاثة نجاهد في سبيل قضية واحدة ومن خندق واحد ـ أن يستشيرنا قبل إقدامه على الاتصال بمجمع البحوث، أو أن يلفت نظر المجمع إلى كتبنا نحن أيضاً باعتبارها جديرة مثل كتبه بالمصادرة.. أم أن الأمر لا يعدو أن يكون "كل واحد يالله نفسي وبس"؟!

ـ لا يا دكتور فرج.. الأرجح في رأيي هو إما أن أعضاء المجمع لم يقرأوا كتبنا نحن وقرأوا كتب العشماوي فأمروا بمصادرتها، وإما أنهم قرأوا كتبنا ووجدوها سليمة لا خطر منها.

ـ سليمة لا خطر منها؟! سيدي الجليل، ما كتبه علي عبد الرازق في "الإسلام وأصول الحكم"، أو طه حسين "في الشعر الجاهلي"، لا يمكن أن يقارن خطرُه بخطر فقرة واحدة من كتبي أو كتبك.. كيف يمكن إذن للمجمع أن يجرؤ ويعتبرها سليمة لا خطر منها؟ أما عن احتمال أن يكون أعضاء المجمع غافلين عنا وجاهلين بكتبنا، فما علينا إذن إلا أن ننبهّهم إليها.

ـ كيف؟

ـ بالكتابة إليهم.. بتحريض أصدقاءٍ لنا على تقديم الشكاوي من أفكارنا.. أو بأن نطلب نحن مقابلة شيخ الأزهر أو رئيس المجمع نفسه لتوضيح الأمور ووضعها في نصابها، وتنبيهه إلى أن في كتبنا خطراً على المجتمع الإسلامي لا يمكن السكوت عليه.. سليمة لا خطر منها ؟! يا دي الفضيحة!! هذه إهانة.. إهانة يعاقب عليها القانون.. كيف يمكن أن أري وجهي للناس ومجمع البحوث الإسلامية يعتبر كتبي سليمة ولا خطر منها؟ ما جدواها إذن؟ وما جدوى تعبي في كتابتها؟ جتنا نيلة في حظنا الهباب!".

***

استشاط العشماوي غضباً ـ على ما سمعت ـ من مقالي هذا. وحين قابلت فرج فودة يوم ٢ مايو ١٩٩٢ في الملتقى الفكري الثالث للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان، رأيت في وجهه، لأول مرة منذ تعرّفي به، دلائل استياء لا أحسب أنه كان حقيقياً بقدر ما أنسبه إلى تأثير حديث للعشماوي معه. غير أني سرعان ما أفلحت خلال دقائق في تبديد هذا الاستياء الذي أعلم أنه لا يتّفق مع طيبة قلبه وتقبّله السمح للدعابة.. وقد كان هذا هو آخر لقاء لي

معه، وإن كان قد اتصل بي تيليفونياً ـ للمرة الأخيرة أيضاً ـ يوم الاثنين أول يونيو، يسألني عن رأيي في مقاله عن فهمي هويدي في مجلة "أكتوبر".

وفي ساعة مبكرة من صباح الثلاثاء ٩ يونيو ٩٢، كنت وعائلتي في الطريق بالسيارة إلى المطار للسفر إلى الغردقة.. وحين أوقفتُ السيارة لبضع لحظات لشراء جريدة "الأهرام"، إذا بالخبر المفجع يكاد يملأ الصفحة الأولى بأكملها:

"اغتيال المفكر الكبير فرج فودة مساء أمس، وفرار الجناة بعد ارتكاب الجريمة".

صافي ناز كاظم

لأناتول فرانس قصة قصيرة تنزل فيها جماعة من الرهبان من دَيْرها بالصحراء إلى أقرب بلدة منه، فيشاهدون في سوقها أحد الحُواة وقد احتشد الناس حوله يرقبونه وهو يتجرّع الجاز ثم يُخرج من فمه ألسنة النار، ويقف على رأسه ثم يُلقي في الهواء بيده اليمنى خنجراً إثر خنجر يلتقطه باليد اليسرى في حركة دائرية سريعة خارقة.

وإذ ينتهي العرض الرائع ويتهَيأ الحاوي للانصراف، يقترب أحد الرهبان منه، ويدخل في حديث معه ليقنعه بتفاهة شأن أعمال الحواة، وبأن الله إنما خلق الإنسان لعبادته لا لقضاء عمره في الوقوف على رأسه وإخراج النار من فمه، وبأنه لا سبيل أمامه إلى النجاة بروحه إلا إن هو سَلَك طريقة الرهبان، وانضمّ إلى جماعتهم في ديرهم يصلّون ويتدارسون ويتعبّدون.

ويقتنع الحاوي بحديث الراهب فيُبدي أسفه ويذرف دموع الندم، ثم يمضي معه من فوره إلى الدير، فيلبس زيّ الرهبان، ويتبنّى أسلوب حياتهم، ويصلّي صلاتهم، ويصوم صومهم، ويتعهّدونه بالرعاية والتوجيه والإرشاد.

ويبدو الرجل لشهرين أو ثلاثة سعيداً بحياته الجديدة. غير أنه بمضيّ الأيام، يلاحظ الرهبان أنه قد بدأ يفقد شهيته إلى الطعام، وأن ذهنه يشرد أثناء تلاوة الصلوات، وأن جسمه قد نحل وبدت على سحنته علائم الحزن والاكتئاب. فما حلّ الشهر الخامس حتى بدأ يتجنّب صحبتهم، ويطيل من ساعات انفراده بزنزانته، لا يشاركهم العبادة إلا في القليل النادر، فإن فعل فقلبه ليس وراء لسانه، وذهنه شارد في ملكوت غير ملكوت السماء. ثم إذا بالرجل يعتكف نهائياً في حجرته لا يفارقها، فيضطر الرهبان إلى أن يأتوا إليها كل يوم

بطعامه يتركونه خارج الباب، فلا يفتح بابه ليأخذه إلا حين يأوي رفاقه ليلاً إلى مخادعهم للنوم.

ويستبدّ حبّ الاستطلاع بالرهبان، فيقرّرون التجسس عليه ليروا ما يفعله الرجل في خلوته. وإذ يقتربون من بابه على أطراف أصابع القدم، وينحني أحدهم عند ثقب المفتاح لينظر إلى داخل الزنْزانة منه، إذا به يرى الرجل وقد وقف على رأسه أمام أيقونة للعذراء والمسيح الطفل، يُلقي في الهواء بالخناجر سراعاً ثم يلتقطها في خفّة، وقد قاده اعتقاده إلى أن خير سبل العبادة هو استخدام مواهبه الفريدة، فأراد أن يُدخل السرور على قلب العذراء والمسيح بأعمال الحواة التي مهر فيها!

تقفز هذه القصة التي قرأتها منذ عشرات السنين إلى ذهني كلما قارنتُ بين كتابات صافي ناز كاظم في الإسلاميات وكتاباتها في غير الإسلاميات.

هذه المرأة الموهوبة الفذّة، لا في مجال النقد المسرحي والسينمائي والأدبي فحسب، ولا في ميدان الكتابة وحده، بل وفي محاكاتها البديعة للشخصيات التي تعرفها، من صوت وحركات ومسلك، بحيث تنفذ بك خلال ثوان قليلة من هذه المحاكاة إلى أعمق أغوار الشخصية التي تقلّدها، وإلى حقيقة جوهرها ولبّ موقفها من الحياة.. هذه المرأة التي لا تستمع إلى غنائها إلا آمنتَ بأنه كان بوسعها أن تصبح من أبرز المغنيات، ولا تجلس منصتاً إلى حديثها إلا أثارت من الضحك ما تدمع له عيناك، أو تمسك بطنك بكلتا يديك.. هذه المرأة التي تحدث يوماً مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة "الهلال" إليّ وإلى أخي جلال فقال: "كُلّكم، كلّكم يا معشر الكُتّاب لمجلة "الهلال" أستطيع أن أخمّن من خلال عناوين مقالاتكم ــ ومن قبل أن أقرأها ــ ما ستكتبونه فيها، إلا صافي ناز كاظم، ليس بمقدوري أبداً أن أخمّن ما ستقول!".. هذه المرأة الفريدة، وهذه الفنانة من قمة رأسها إلى إخمص قدميها، نسيج وحدها، تلك التي خلقت الرعب بمقالاتها النقدية في قلوب الجميع فأضحوا يعملون ألف حساب لها خشية الوقوع في براثنها، أو أن تصيبهم لسعة من لسانها، .. هذه المرأة، كيف تسنّى لها مع قوة قريحتها أن تضلّ الطريق على ذلك النحو الذي لمسناه في قصة أناتول فرانس، فتحسب أن كتاباتها الضحلة في الإسلام، ومجادلاتها المتعثرة حوله، وأحاديثها الغثّة فيه، هي أهم ما سيبقى لها في الرصيد الختامي لحسابها، وأنها إنما حققت

ذاتها ووجدت نفسها حين ارتدت الحجاب، وأبت أن تصافح الرجال..

ثمة مع ذلك ما يشفع لها. فقد وقع في مثل هذا الوهم الكثيرون من الكُتّاب قبلها، وسيقع فيه الكثيرون بعدها.. لن أذكر تولستوي الذي تحوّل بعد كتابته لرائعتيه "الحرب والسلام" و"أنّا كانينا" إلى الكتابة الدينية. فقد بقيت موهبته بعد هذا التحوّل قائمة ساطعة في كل ما يكتبه من روايات وقصص ومقالات وكتب تتّخذ من الدين قاعدة أساسية لها.. ولن أذكر باسكال الذي نعى عليه نيتشه تحوّله عن الرياضيات التي نبغ فيها وأوصلتْه إلى اختراع أول شكل من أشكال الكومبيوتر، إلى الكتابة في الدين. فقد خلّف لنا في كتابيه الدينين الأخيرين "الرسائل" و"الأفكار" أثمن دُرّة في عقد الأدب الفرنسي.. غير أني سأذكر بنچامان كونستان الذي قضى عشرات السنين في تأليف كتابه عن تاريخ المسيحية، ظاناً أنه بكتابته قد ضمن لنفسه مكانة خالدة في تاريخ الفكر، فلم يعد الكتاب يُطبع أو يُقرأ في يومنا هذا، وإنما يذكر الناس مؤلفه بفضل روايته القصيرة الرائعة "أدولف" التي لم يستغرق تأليفه إياها غير خمسة عشر يوماً، كتبها على سبيل التسلية ولملء أوقات فراغه، ولم يكن هو نفسه يرى فيها أيّ فضل يؤهّلها للنجاح!

قد نسيت صافي ناز كاظم قولة عليّ بن أبي طالب "قيمة كل امرئ ما يُحسن".. وما كنا لننعي عليها كتاباتها الإسلامية لو أنها كانت متمكنة من موضوعها تمكّنها من النقد والكتابة الأدبية.. ولا نحن بمطالبين الشيخ يوسف القرضاوي مثلاً أو بناصحيه بالتحوّل عن الكتابة الإسلامية إلى النقد المسرحي.. غير أن قلّة حصيلة صافي ناز من المعارف الدينية، وتكرّر وقوعها في أخطاء تاريخية وفقهية لا يقع فيها غير عوام الناس، واعتمادها في تلقّي الكثير من تلك المعارف على الغثّ من الكتب الدينية الحديثة، وإذ أُفاجأ عند زيارتي لها في بيتها بخلوّ مكتبها الخاصة من معظم أمهات الكتب الإسلامية، وكأنما أدلف إلى ورشة نجار فلا أرى فيها من معدّات حرفته غير منشار قديم تآكلت أسنانه بفعل الصدأ، كل ذلك يدفعني دفعاً إلى التحسّر إذ أجدها تخوض فيما لا شأن لها به، بل وتفضّله على ما هي فريدة في بابه!

كانت ضآلة حصيلتها من المعارف الدينية هي سبب هزيمتها المنكرة في جدالها على الهواء مع النائبة الأردنية "توجان الفيصل" في برنامج تيليفزيوني خليجي أذيع على الهواء، وشاهد الجمهور فيه صافيناز وهي تغادر الاستوديو فجأة غاضبة لاعنة، والمذيع يحاول

عبثاً أن يُثنيها عن عزمها، فتتذرّع بحجة أن "توجان" جاوزت حدود الأدب! وبوسعي أن أذكر لها لو أنها أصرّت على طول باعها في الإسلاميات قصة إسحاق الموصلي إذ دخل مجلس القاضي يحيى بن أكثم فأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم، ثم تكلم في الفقه فأحسن، وتكلم في الشعر واللغة ففاق من حضَر. ثم سأل القاضي: أفي شيء مما ناظرتُ فيه نقصٌ أو مَطْعن؟ قال: لا. قال إسحاق: فما بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها، وأُنْسَبُ إلى فن واحد، هو الغناء، قد اقتصر الناس عليه؟ قال القاضي: يا أبا محمد، هل أنت كالفرّاء والأخفش في النحو؟ قال: لا. قال: فأنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأصمعيّ وأبي عبيدة؟ قال: لا. قال: فأنت في علم الكلام كأبي الهذيل العلاّف؟ قال: لا. قال: فأنت في قول الشعر كأبي العتاهية وأبي نواس؟ قال: لا. قال: من هنا نُسبْتَ إلى ما نُسبت إليه، لأنه لا نظير لك في الغناء، وأنت في غيره دون رؤساء أهله!

ليس هذا فحسب. بل إنه حتى في الميدان التي تقدّم لنا فيه رائعة إثر رائعة، ودُرّة تلو دُرّة، نجد مواقفها الدينية تنعكس أحياناً على نقدها فتحول بينها وبين الرؤية الواضحة، وتحجب عنها مواطن القوة في العمل الفني، لا لشيء إلا لما تلمسه من المؤلف من موقف فكري أو ديني أو أخلاقي يختلف عن موقفها.. فهي تصرخ مندّدة بمسرحية سعد الله ونوس العظيمة "طقوس الإشارات والتحوّلات" بسبب تعاطفه مع شخصية ثانوية لديها شذوذ جنسي. أو تخسف الأرض برواية سناء بكر الرائعة "البشموري" بسبب تعاطفها مع أقباط مصر إبّان محنتهم في عصر الخليفة المسلم المأمون. وتردّ إليّ غاضبة مسرحيتي "الإمام" عن الإمام علي بن أبي طالب إذ تلمس فيها انحيازاً إلى جانب معاوية الذي تمقته.. فهي نادراً ما تصبر على اختلاف معها في الرأي.. وقد انعكس هذا أيضاً على علاقاتها بالكثيرين، حتى بات من المألوف لكل من جلس معها أن يسمعها تلعن هذا وتندّد بذاك، وأن يراها تسخر من عمرو أو تقلّد زيداً تقليداً يثير الضحك منه، والازدراء له.. وهو أمر دفعني مرة إلى أن أروي لها قصة وردت في رواية "كانديد" لڤولتير، عن كيف انبهر كانديد أثناء زيارته مع أستاذه بانجلوس لأحد المشاهير، إذ يسمع الضيف طعناً في كل من يرد وما يرد ذكره في الحديث، فإذ هو يهتف بعد خروجه في إعجاب: ما أعظمه من فيلسوف! ما من شيء يعجبه أو يرضى عنه! فأجابه دكتور بانجلوس بقوله: "لا يا صديقي. أقوى المعدات ما

تهضم كل ما دخل إليها لا ما تلفظ كل لقمة تصلها"!

ثمة استثناءات بطبيعة الحال تتعلّق بمن تخالفهم في الرأي، أو تمقت مواقفهم الفكرية. وقد كنت لحسن حظي من بين هذه الاستثناءات. فعلاقتي بها منذ عرّفتني زوجتي بها ــ وكانت زميلة لها في دار الهلال ــ هي علاقة صداقة حميمة، بل هي من أعزّ الناس عليّ، لا أتخيّل الكون خالياً منها، أو أتصورّ خالقه في غنى عن تألّقها وألمعيتها.. وقد يرجع جانب كبير من فضل استمرار صداقتنا هذه إليّ لا إليها. ذلك أنها كثيراً ما هاجمتني وتهاجمني في المجلات والصحف، وتسفّه كتاباتي وأفكاري.. تتناول طعام العشاء عندي يوماً أو أتناول طعام العشاء عندها ثم تكتب المقال اللاذع ضدي في اليوم التالي. فما كنت لأبحث في مقالاتها تلك إلا عن جانبها الفني، أو ألقي اهتماماً إلا إلى روعة التعبير فيها. فإذا بي كثيراً ما أجدني أتصل بها تيليفونياً لأهنئها على توفيقها في سبابها لي، فتردّ بقولها وهي تضحك:

ــ موش كده بذمتك؟ موش بذمتك مسحت بيك الأرض؟!

تُهدي إليّ أحد كتبها الضحلة في الإسلاميات فتكتب في إهدائها: "إلى ابن عمي حسين أحمد أمين. والهدف الرئيسي من إهدائه إليك إغاظتك. فإذا تمّ المراد، تمّ الهناء، وإذا أعجبك الكلام، أمري إلى الله!". ونقابل معاً في حفل بدار الأوبرا الدكتور سعد الدين إبراهيم فتفاجئه بقولها:

"حسين أمين باكره أفكاره بس ما باكرهوش هوّه.. إنما إنت باكرهك وأكره أفكارك وما باطيقش أشوف وشّك!" ثم تنهال عليه بسباب غليظ يدفع ابنتها نوّارة إلى الابتعاد سريعاً عن مكاننا وهي تلطم خدّيها في انزعاج شديد.. أو ها هي ذي ــ قبل طلاقها من الشاعر أحمد فؤاد نجم ــ تستوقفني وزوجتي أمام دار الهلال لتنقل إلينا خبراً هاماً: "اسكتوا! موش نجم استحمى امبارح واكتشفنا بعد ما استحمى وغسل وشّه إن عنده حسنة في خدّه اليمين!". وقد كان خليقاً بها مع كل هذه الحرية التي تسمح بها لنفسها في التعبير عما في صدرها من كراهية أو نقد أو سخرية تجاه الآخرين، أن تسمح للآخرين ولو بقدر بسيط من مثل هذه الحرية تجاهها.. غير أن الحال هو بخلاف ذلك. فهي بقدر ما تطرب لثناء الناس عليها وعلى ما تكتبه، تستشيط غضباً من أيّ انتقاد لها أو مساس بها.. وقد هالني أن

أسمع من مصدر موثوق به أنها انفجرت بالبكاء حين قرأت هجوماً عليها بقلم فريدة النقاش في صحيفة "الدستور"، في نفس العدد من الجريدة الذي نشرت فيه صافي ناز هجوماً عنيفاً عليّ!

توقّع الناس ممن يقرأون هجومها عليّ ولا يعرفون أننا صديقان حميمان، أني أحمل لها كراهية عميقة. فكانوا لا يتحرّجون من سبّها في حضرتي، مطمئنين إلى أني سأتعاطف معهم. فعل ذلك كل من الدكتور مراد وهبة والدكتور منى أبو سنّة أثناء رحلة لثلاثتنا إلى تونس في فبراير ٩٩. فلما رأياني أضحك وأنبري للدفاع عنها وامتداحها، اعترتهما الدهشة وبُهتا، وقطعا حديثهما عنها على نحوٍ اضطرني لتفسير موقفي:

قلتُ مجيباً على وصف الدكتور مراد لها بالأصولية المتعصبة:

– إن من بين المعاني التي تنطوي عليها الأصولية رفض الآخر. وهي تمقت أفكاري ولا ترفضني.. ومن بين المعاني التي ينطوي عليها التعصب الديني نفور من أتباع الديانات الأخرى. وثمة أقباط كثيرون أعرفهم تعتبرهم من أعز أصدقائها وأقرب الناس إليها، سرها عندهم وعندها سرّهم.. وهي أبسط الناس في عاداتها وأسلوب عيشها. تعيش مع ابنتها نوّارة، وهي محجّبة مثلها، في مسكن متواضع نجحت مع ذلك في إضفاء طابعها الشخصي عليه، وملأته بما يُحيي في نفسها ذكريات الماضي، فأضحى أشبه ما يكون بمتحف روحي.. لا تمتلك سيارة. بل ولا تمتلك إلا ما يكفي لسدّ رمقها. وهي مع ذلك تأبى أن تضطرها الحاجة إلى التفريط في استقلالها الفكري بتملّق السلطة أو بيع القلم. فإن أتتها مكافأة كبيرة على كتاب أو مقال، سارعت بشراء تذكرتين لها وابنتها بأربعمائة جنيه لحضور التمثيلية اللبنانية "آخر أيام سقراط".. بها الكثير من طبائع الأطفال، وسرعة تقلّب مشاعرهم. فهي تصبّ في مقالاتها ألذع الهجاء لجابر عصفور مثلاً، فإن هو رحّب باقتراحها إقامة احتفال بذكرى خالها العزيز محمد فريد أبو حديد، تحوّل موقفها منه مائة وثمانين درجة، وصارت تمتدحه لنا وكأننا فاقدو الذاكرة. وهي تكيل الثناء كيلاً على مطلّقها أحمد فؤاد نجم في كل مناسبة، وتنشدنا في جلساتنا أشعاره وكأننا لم نقرأها عشرات المرات.. فإن دعانا أخي جلال إلى حفل تكريم في داره لنجم والشيخ إمام، اعتذرت هي عن الحضور، وأرسلت نوّارة نيابة عنها، مع توصيتها الحارّة لها بألا تسمح لأبيها بأن يكثر من الشراب.

خلاصة القول أنها كاتبة لا يماثلها كاتب، وامرأة لا تشابهها امرأة. متعبة في جميع الحالات. غير أنها كفيلة بمجرد وجودها أن تشيع في الكون بهجة، وأن تملأه صخباً وضجّة.. كل ما يسعنا أن نفعله إزاءها هو أن نبتهل إلى الله عز وجل أن يوفّقها ويهديها، فيصرفها عن الحديث في الإسلاميات.

عبد المنعم سليم

سيتفرّق الجَمْع بعد العزاء فيه ثم ينسونه.. خاصة أنه أخطأ في السنوات الثماني الأخيرة من حياته فحسب أن الأوان قد آن كي "يعرف قدر نفسه"، ويعرف أن موهبته الأدبية "محدودة" فلا يصلح إلا لكتابة مقال أسبوعي في مجلة أسبوعية هي "تصف الدنيا" يعرض فيه لبعض الموضوعات المثيرة في الصحافة العالمية، أو لشيء من هذا القبيل.

ستنساه الناس، نعم، ولكن إلى حين.. إلى حين أن ينبهّهم ناقد يحترمونه إلى أن هذا الرجل الذي "لم يعرف قدر نفسه" خلّف وراءه رواية من أفضل الروايات في الأدب المصري، وأبقاها وأقدرها على مقاومة ريح الزمن، وهي رواية "الخرزة الزرقاء" التي نشرها في النصف الأول من عام ١٩٩٦ فلم يُعرها الناس اهتماماً.

رواية من ثلاثمائة وعشرين صفحة، كل كلمة فيها طابعها الصدق، وكل كلمة صادرة من القلب، وكل فقرة هي من نائحة ثَكْلَى لا نائحة مستأجرة. فالكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب. وإذا خرجت من اللسان لم تُجاوز الآذان. وقديماً قال زهير بن أبي سُلْمى:

وإن أشعرَ بيتٍ أنت قائلُه   بيتٌ يُقال إذا أَنْشَدْتَه: صَدَقا!

كان تولستوي يعيب على قصص أندرييف أن تصرفات أشخاصها وأقوالها غالباً ما لا تتّفق وتكوينها النفسي، ويكتب إليه غاضباً: "ليس من حقك الاختراع عند تحليل النفوس". وقد قفزت هذه الجملة الأخيرة إلى خاطري توّ الفراغ من قراءة رواية "الخرزة الزرقاء" لعبد المنعم سليم. فهي ــ على حدّ علمي ــ أخْلى رواية عربية قرأتها من التزييف والاختراع عند تحليل النفوس.

غير أن الصدق غير كاف وحده للخروج بشعر عظيم، أو أدب عظيم، كما ظن زهير. إذ لابدّ لهذا من ارتباط بمعنى كبير، أو تفسير عميق للحياة البشرية، أو تعبير دقيق عن حيرة الإنسان إزاء العالم الذي وجد نفسه مرغماً فيه، وإزاء من دخل معهم من الناس في صلات وعلاقات. وإنك لواجد في رواية "الخرزة الزرقاء"، إلى جانب الصدق المحض، هذا المعنى وهذا التفسير وهذا التعبير، وهو الأمر الذي دفعني دفعاً، ودون أدنى تردّد أو شك، إلى اعتبارها من خيرة الروايات في الأدب العربي الحديث.

ما عجبتُ له في بادئ الأمر وأطلتُ التفكير فيه، هو كيف يمكن لامرئ أن يفاجئنا وهو في السابعة والستين من العمر، ودون مقدمات قوية تبشّر بما هو آت، بمثل هذه الرواية الرائعة؟ لقد سبق أن قرأت لعبد المنعم سليم عدداً من قصصه القصيرة، وشاهدت له على المسرح مسرحيتين قصيرتين أو ثلاثاً. فإن كان الصدق هو طابع معظم ما قرأته أو شاهدته له، فإن المعاني لم تكن من الضّخامة بحيث تبرّر اعتباره كاتباً كبيراً.. فما عساه أن يكون قد حدث حتى ينتقل هذا الرجل فجأة من أحد الصفوف الخلفية إلى مقعد أمامي؟

أوْعَزَت إليّ بالإجابة قولة قرأتها للجَبَّائي:

"لو تصدى إنسان متوسط في العلم والأدب والحُنْكة ليذكر شأنَه وسيرتَه، ووَصَفَ حالَه وطريقتَه، لحكى كلَّ غريبة، وأتى بكل أعجوبة".

هذا حق. فما بالك لو أن هذا الإنسان الذي تصدّى لهذا الأمر متبحّر في الأدب، عظيم الحُنْكة؟ ألا نجد هنا في حالة عبد المنعم سليم صدى من أصداء حادثين من أغرب وأطرف ما عرفه تاريخ الأدب، وهو اعتبار النقاد وإجماعهم على أن كتاب "حياة صمويل جونسون" لجيمس بوزويل أعظم سيرة في تاريخ الأدب العالمي على الإطلاق، وأعظم من أيّ من مؤلفات جونسون نفسه التي لم يعد يقرأها الآن غير قلة من المثقفين؛ ثم قولة نيتشه عن كتاب إيكرمان "محادثات مع جوته" إنه أهم كتاب في الأدب الألماني، أي أهمّ حتى من "فاوست" وسائر مؤلفات جوته نفسه؟!

فالسبب إذن في حالة "الخرزة الزرقاء" هو أولاً أن صاحبها قد التزم الصدق الكامل، وأنه ثانياً قد التزم هذا الصدق الكامل في عرض للحياة الكاملة للشخصيات الرئيسية الثلاث، عرضاً أبرز للقارئ ــ بقصد من المؤلف أو دون قصد ــ دقائق حياة البشر بوجه عام،

وأعمق أسرارها، تماماً كما قال الشاعر الإنجليزي إنه قد يكون بالوسع فهم الأبديّة من خلال ساعة واحدة قصيرة، والإحاطة بكل صنوف الجمال بتأمّل زهرة واحدة صغيرة.

أجمل ما في الأمر، أن الشخصيات الرئيسية الثلاث شخصيات عادية تماماً، تعيش حياة عادية تماماً، بوسعنا أن نصفها بأنها خالية من الأحداث، وأنه ما من واحد من الثلاثة ملاك أو شيطان، كل منهم له محاسنه غير المبهرة، ونقائصه غير المنفّرة.. فما هو بالضبط، مع عادية الحياة، وعادية الشخصيات، أصل تلك المأساة المروّعة التي وقع ثلاثتهم في شباكها، والتي تكاد تحاكي في أبعادها مآسي الإغريق؟

ما من أحد منهم بوسعه أن يقول مع المتنبي:

عرفتُ الليالي قبل ما صنعتْ بنا فلما دَهَتْنا لم تزدْني بها علما

أو مع شوقي:

لها ضَحك القِيان إلى غبيّ ولي ضحك اللئيم إذا تغابى

فأنت تراهم جميعاً، ودائماً، مُفاجأون بما يحدث، حيارَى لا يملكون تفسيراً أو فهماً واعياً، ولا يستطيعون فكاكاً من العواقب، قد رأوا الحياة ــ كما يراها معظمنا في خاتمة المطاف ــ تُخرج لهم لسانها ساخرة، هازئة من تطلّعاتهم وطموحاتهم التي بدأوا طريقهم بها.

فهذه المرأة التي قضت في لندن أربع سنوات لتحضير رسالة دكتوراه عن الشاعر الإنجليزي في أوائل القرن السابع عشر جون دُون.. بماذا أفادها في النهاية جون دُون؟ ثم تقضي سبع سنوات أخرى في المملكة السعودية لتوفير مبلغ تستعين به على قضاء ثلاثة أغراض:

ــ تجهيز ابنتها التي "ستتزوج عاجلاً أو آجلاً" (فلم تتزوج حتى نهاية أحداث القصة)؛

ــ تجديد أثاث المنزل الذي لم يتغير منذ زواجها (فانهار منزل الزوجية من أساسه قبل أن تشرع في تجديد أثاثه)؛

ــ شراء سيارة لنفسها (فأصابها بعد عودتها من السعودية شلل نصفي أفقدها القدرة على التحرك من سريرها، وأفقدتها محاولة علاجه الفاشلة معظم مدّخراتها).

وهذا الرجل الذي أفنى شبابه لا يخامره غير حلم واحد: أن يطعّم المسرح المصري بما

اكتسبه من خبرات واسعة في مجال التأليف المسرحي أثناء إقامته الطويلة في أوروبا وجولاته بمعظم أقطارها. ما الذي حققه؟ ما الذي خرج به غير الإحساس العميق الدفين بالمرارة والإحباط؟

وهذه الابنة الفذّة متألّقة الذكاء، خريجة المدرسة الألمانية والجامعة الأمريكية، حصّلت في سن مبكرة من الثقافة والعلم ما يندر أن يحصّل مثله مصري، وشاهدت في صباها وشبابها الأول من أقطار الدنيا أكثر مما شاهده ابن جبير. كيف تَأتّى لها أن تُقْدِم على دفع عمّها إلى أن يكتب إليها قرب النهاية:

"إنك تقتلين أباك عمداً، وتُميتينه موتاً، إذ تطفح لديك دوافع القَبَليّة المدفونة في أعماقك، فتدوسين عليه في الأوحال، وتبيعينه علناً في الأسواق"؟

كيف حدث كل هذا؟ ولأيّ غرض؟ وكيف تسنّى لهذه العائلة الصغيرة "العادية" أن يفترس أفرادها بعضهم بعضاً، وأن يجد ثلاثتهم أنفسهم في النهاية حطاماً لا جدوى منه، وهشيماً تذروه الرياح؟

المؤلف لا يفرض عليك تفسيراً، ويمقت الوعظ والمجاهرة شأن كل روائي حاذق.. لكنه يتركك تتلمّس من خلال الخطابات المتبادلة واليوميات طريقك إلى جذور المأساة.. وجذور المأساة تتمثّل في رأيي في انشغال المرأة بأطروحتها عن چون دُون عن ابنتها في السنوات الأربع الأولى الحاسمة من حياتها، وبتوفير المال في المملكة السعودية عن ابنتها في سني المراهقة، وانشغال الرجل بمحاولة تجديد المسرح المصري، وولعه في نفس الوقت بالنساء، عن مقتضيات العلاقات الإنسانية التي كان ينبغي أن تكون لها الأولوية والأهمية القصوى.

نقرأ في رسالة للرجل من لندن أنه لا يريد أن يعود إلى القاهرة لرؤية ابنته الوليدة خشية أن يُمنع من الخروج من مصر ثانية "لأن الكلية الجامعية اكتشفت أنني بدلاً من الدراسة للدكتوراه، فضّلت الانغماس في الحياة الثقافية في لندن والعواصم الأوروبية".. وكانت النتيجة أنه عند عودته النهائية والتقائه بابنته وهي في الرابعة من العمر، لم يستطع أن يحمل نفسه على تقبيلها (وهو أمر لم تستطع هي طيلة عمرها بعد ذلك أن تنساه أو أن تغتفره له).

ونقرأ في رسالة من "تورا" بالقاهرة إلى اختها هويدا بطلة الرواية في لندن بعد حصول هويدا على شهادة الدكتوراه: "ألف ألف مبروك يا ست الشاطرين.. أنا من فرحتي كنت حابعت لك تلغراف.. أظنك الآن تستعدّين للعودة.. نحن في انتظارك على نار". فنبتسم هازئين بهذه التهنئة بالشهادة التي نعلم، كالقدر، (عند القراءة الثانية للرواية) أنها السبب في كل ما حدث بعد ذلك، أو نخرج لساننا ساخرين كما تفعل الحياة بعد عبثها بتطلّعاتنا، وإطاحتها بقطع الشطرنج من لوحتنا.

وخيوط المأساة منذ انبثاقها وبدايتها، إلى حلول ضربتها القاصمة في النهاية، إنما يتبيّنها القارئ ويلمسها عبر آلاف وآلاف من تفاصيل الحياة اليومية العادية التافهة:

"حبيبتي سونسون: يا ترى إيه أخبار البحر معاكي؟ لازم دلوقت بتعومي كويس — بابا".

"عزيزي بابا: إحنا نزلنا في طوكيو في فندق شيراتون بتخفيض ٦٠% — سناء".

حبيبي محسن: ملحوظة: لماذا لا تبعث لي قبلات في خطاباتك — هويدا".

"عزيزتي هويدا: تُرى هل انبسط عديلي العزيز بالجاكتتين، وهل قلت له إني لفّيت على القماش إلى أن تكسّرت قدماي؟ — محسن".

"أختي العزيزة هويدا: أرجوكي تشتري لي ٢ سوتيان من الخُفاف، مقاس ٤٠ب أو ٤٠أ ماركة ميدن فورم، واحد أبيض وواحد أسود أو بيج.. — أختك منال".

***

إنها الحياة نفسها تلك التي تعاينُها إذ تقرأ رواية "الخرزة الزرقاء" لعبد المنعم سليم.

وقد قيل إنه حين سئل إعرابي:

— ما بال المراثي أعظم أشعاركم؟

أجاب بقوله؟

— لأننا ننظمها وأكبادنا تحترق.

والمؤكد عندي أن عبد المنعم سليم كتب روايته هذه وكبده يحترق..

خضـــرة

لم يكن في نيتي أن أكتب ما سأكتبه الآن لولا إلحاح شديد من رجاء النقاش أن أروي للقارئ بالحرف الواحد ما رويته له خلال حفل عشاء..

والقصة قصة حقيقية من ألفها إلى يائها. وسأقتصر على سرد وقائعها المجرّدة دون أي تعليق.

***

في أكتوبر ١٩٧٧ عدت وأسرتي من نيجيريا إلى القاهرة، فاحتجنا إلى خادمة ترعى شؤون البيت. وكان أن أحضرت لنا حماتي من عزبتها في كمشوش بالمنوفية ابنة فلاح فقير في أرضها، هي فتاة أمية سوداء البشرة في الثانية عشرة من عمرها، تدعى خضرة، وأخبرتنا أنها اتفقت مع الوالد على أن يكون راتبها الشهري أربعة جنيهات، تدفع له. ولم يكن لدينا اعتراض على شيء سوى صغر سنها وافتقارها إلى الخبرة. غير أن ما لمسناه فيها منذ الأسبوع الأول من ذكاء واستعداد للتعلم وذاكرة قوية، طمأننا إلى إمكان الاعتماد عليها.

١٩٧٧ ــ ١٩٨٠

لا أزال إلى هذه الساعة أذكر منظرها يوم أن أحضرها والدها الطويل الأسود إلى القاهرة التي لم تكن زارتها من قبل، ثم إلى شقتنا.. كانت ترتدي جلباباً مهلهلاً وصندلاً رثاً ومنديلاً أحمر على رأسها يخفي شعرها وثلاثة أرباع جبينها، وقد بدا في عينيها وعلى

وجهها الوسيم وهي واقفة عند باب الصالة علائم الفزع والخوف، خاصة مني. غير أنها لم تبك ساعة ودعها أبوها وانصرف، ولا بدا عليها التأثر لفراقه. وسرعان ما انطلقت بعد أن أغلقنا الباب خلفه تروح وتجيء في حجرات الشقة بمفردها، ودون أدنى حرج، تتفحص قطع الأثاث والأجهزة الكهربائية فيها، تلمسها بيدها، وتسأل زوجتي أو بناتي الثلاث عن ماهيتها: التليفون، التليفزيون، الفيديو، الفريجيدير، الأباجورات، الخلاط، والكثير منها أجهزة كانت تراها لأول مرة.

شرعت زوجتي تدربها على مهامها المنزلية حتى أتقنتها، ثم انتقلت إلى تعليمها طهي الطعام فبدا الأمر ــ عكس ما توهمنا ــ غير عسير عليها إذ سبق أن كانت تساعد أمها فيه قبل أن تترك القرية.. غير أن عملها كان ينتهي في العادة بعد فراغنا من الغداء وفراغها من غسل الأواني والصحون. فكانت تجلس على الأرض في غرفة الجلوس للتفرج على برامج التليفزيون، حتى تعود بناتي من المدرسة فتدخل وراءهن حجرتهن لتراقبهن وهن يذاكرن دروسهن.

أحبتها بناتي كل الحب، وأشركنها معهن في ألعابهن وأحاديثهن ونزههن، وأعطينها الكثير من ملابسهن. ثم خطر لهن جميعاً إزاء ما لمسن فيها من ذكاء وتوّقد ذهن، أن يتناوبن فيما بينهن في تعليمها القراءة والكتابة والحساب في أوقات فراغهن. فما مضى عام أو بعض عام حتى كانت قد بلغت في كل ذلك الغاية، وحتى انصرفت عن التليفزيون إلى قصص كامل الكيلاني وغيرها من كتب الأطفال، تقرأ فيها أثناء انشغال بناتي بمذاكرة دروسهن.

١٩٨٠ ــ ١٩٨٣

في إبريل ١٩٨٠ صدر قرار بتعييني وزيراً مفوضاً بالسفارة في ألمانيا الاتحادية. فلما استأذنا والدها في اصطحاب خضرة معنا، تردد أسبوعاً أو أسبوعين، ثم وافق شرط أن نضاعف لها أجرها. وقد راقبتها وهي تحضر حقيبتها تدس فيها مجموعة من الكتب العربية، فلما طلبت منها أن تريني إياها إذا بها: قصص شكسبير للأطفال بقلم شارلز وماري لام، "لا تطفئ الشمس" و"البنات والصيف" لإحسان عبد القدوس، ثلاثية نجيب

محفوظ وروايته "بداية ونهاية"، ثلاث مجموعات قصصية ليوسف إدريس، وخمسة مجلدات من أزجال بيرم التونسي.. كانت وقتها في الخامسة عشرة من العمر.

لا بدا على وجهها خوف من ركوب الطائرة في مطار القاهرة، ولا أي دليل من دلائل العجب أو الرهبة وقت نزولنا في مطار فرانكفورت، ولا أمارات الدهشة والانبهار بما شاهدته بعد ذلك من مظاهر المدنية في ألمانيا.. كانت ثمة بالتأكيد خوف وعجب ورهبة ودهشة وانبهار. غير أنها نجحت تماماً في إخفاء مشاعرها حتى لا تبدو لنا (وللألمان) قروية ساذجة قادمة "من وراء الجاموسة".. المرة الوحيدة التي اتسعت فيها عيناها وأصابها الذعر هي حين جلسنا يوماً في منزلنا في بون نشاهد الحلقة الأولى من مسلسل "فيليكس كرول" عن رواية توماس مان، فإذا بالمرأة في المسلسل تتجرد عارية تماماً وتقفز إلى عشيقها في الفراش لتمارس الجنس معه.

اشترينا لها الثياب في ألمانيا فبدت أنيقة كبناتي، وباتت تقصد الكوافير معهن مرة في كل شهر. وإذ كان عليها أن تمضي كل صباح إلى السوق لشراء ما نحتاج إليه من مأكولات ومشروبات وغيرها، أبدت همة لا بأس بها في تعلم الكلمات الألمانية الدالة على هذه الحاجات، مع قدر مناسب من الأفعال. وقد أحبها من كانت تتصل بهم من الألمان، خاصة لسواد بشرتها وجمال ملامحها، ووداعتها ودماثة طبيعية في خلقها، ووقارها اللافت للنظر. وكان بعضهم يخالها ابنة سفير من السفراء الأفارقة. وكثيراً ما كان هذا الوقار الغريب منها يذكرني بقولة الأفغاني لمحمد عبده: "قل لي، ابن أي من الملوك أنت؟!".

في ألمانيا جعلناها تجلس معنا إلى المائدة لتناول الوجبات، بعد أن كانت في مصر تتناولها وحدها في المطبخ بعد انتهائنا منها. وعلمناها استخدام الشوكة والسكين. وسمحنا لها بأن تحتل مقعداً بجوار مقاعدنا في غرفة الجلوس أمام جهاز التليفزيون، بعد أن كانت في مصر تجلس أمامه على الأرض.. واستمر الوضع على ذلك بعد عودتنا إلى القاهرة، مما أثار دهشة أقربائنا وضيوفنا إذ يرونها تأتي بعد تحضير السفرة للجلوس بيننا والمشاركة في الحديث.

١٩٨٣ ـ ١٩٨٥

حين نقلنا إلى مصر كانت في الثامنة عشرة. وقد تقدم لخطبتها خلال الشهرين الأولين من وصولنا ثلاثة من شباب قريتها، فرفضتهم الواحد تلو الآخر. وقد أحسست وزوجتي وقتها ببعض الانزعاج خشية أن تكون إقامتها في ألمانيا وما حصلته من تعليم قد وسعا الفجوة بينها وبين أقرانها، مما ينذر بأن يجعل من أمر زواجها مشكلة عسيرة.

ثم كان أن أقدمت هي على توسيع هذه الفجوة يوماً بعد يوم بانصرافها انصرافاً واعياً ملؤه التصميم والعزم على تثقيف ذاتها.. دخلتُ المطبخ يوماً فإذا بي أجد على أحد الرفوف نسختي من ديوان أبي القاسم الشابي. وحين سألت عمن أخذه من مكتبتي وأتى به إلى المطبخ اتضح أنها هي. ثم بدأت ألحظ ما كانت تأخذه معها إلى المطبخ لتقرأه من كتب أثناء إعدادها الطعام، أو إلى الشرفة الزجاجية حيث تجلس عادة بعد انتهائها من غسل الصحون: رجال وفئران لشتاينبك، أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، ديوان إبراهيم ناجي، المساكين لدستويفسكي، جان دارك لبرنارد شو، مسرحيات موليير، خريف الغضب لهيكل، الأيام لطه حسين، اعترافات تولستوي، العجوز والبحر لهيمنجواي، حظيرة الحيوانات الزجاجية لتينيسي ويليامز، إلى آخره. وكلها كتب إما أخذتها من مكتبي، أو اشترها من مرتبها الذي بدأت منذ عودتها من ألمانيا تحتفظ به لنفسها وتأبى أن تدفعه لأبيها.

وقد تخلصت في تلك الفترة نهائياً من لهجتها الريفية، بل وأضحت كثيراً ما تستخدم في حديثها العادي كلمات من العربية الفصحى.

إلى جانب هذا الإقبال النهم على القراءة، أظهرت خضرة مواهب أخرى.. فقد باتت الآن تتولى إصلاح أي جهاز كهربائي في البيت يصيبه الخلل، وتقوم بكافة أعمال السباكة سواء في بيتنا أو من نغشى بيوتهم من الأقارب، وهي التي تقوم بإعادة تركيب الدواليب، ودق الخوابير، وطلاء الحجرات، ولصق ورق الحائط، وتسجيل الأفلام في جهاز الفيديو، إلى آخره، وسرعان ما أصبح الاعتماد عليها في محيط العائلة الكبيرة في كل شيء تقريباً: "ننتظر حتى تجيء خضرة تصلحه لنا"، "لا بأس، فخضرة ستحضر غداً"، "اسألوا خضرة من أين تشتريه؟".

١٩٨٥ ـ ١٩٩٠

وفي إبريل ١٩٨٥ صدر قرار بنقلي إلى ريو دي جانيرو. وقد رفض أبوها هذه المرة أن يأذن باصطحابنا إياها. وكان محقاً في رفضه فلم نلح. فالفتاة قد جاوزت الآن العشرين، وسيعني بقاؤها معنا في البرازيل مدة أربع سنوات أو خمس، بقاءها دون زواج طوال تلك المدة، وهو ما لا يمكن لأسرتها الريفية أن تقبله. غير أنه وافق أن تنتقل بعد سفرنا إلى منزل حماتي للإقامة معها إلى أن توفق إلى زوج تقبله.

عشية سفرنا كنا نتناول العشاء عند الأخت الكبرى لزوجتي، وهي مساعدة مدير المجلس البريطاني بالقاهرة. وحين عبرت لها عن رغبتي الشديدة في أن تهيئ لخضرة فرصة تعلم اللغة الإنجليزية، أبدت أخت زوجتي استعدادها لقبولها طالبة في قسم تعليم الإنجليزية للكبار عندها، وأبت أن تأخذ مني مصاريف تعليمها، قائلة: إنها ستعينها في مكتبة المجلس في وظيفة يغطي مرتبها هذه المصاريف.

ثم تتابعت الخطابات العائلية إلينا ونحن في البرازيل تنقل أخبار خضرة:

تقدمها في تعلم الإنجليزية قد أدهش الأساتذة..

هي الآن تكتب موضوعات الإنشاء في كفاءة ويسر..

قد عينتها أخت زوجتي مساعدة لأمين مكتبة المجلس..

أمين المكتبة والطلبة يعتمدون عليها في كافة الأمور.

الطلبة يسمونها مس كادرا ويعاملونها باحترام جم..

رؤساؤها الإنجليز بالمركز شديدو الإعجاب بكفاءتها وشخصيتها ودقتها في العمل..

مس كادرا تتلقى دروساً في استخدام الكومبيوتر.

أمين المكتبة نقل إلى منصب آخر وصدر القرار بتعيين مس كادرا مكانه..

مس كادرا الآن تستخدم اللغة الإنجليزية في كل معاملاتها بالمجلس وأحياناً خارجه.

مس كادرا في طريقها إلى أن تصبح أشهر شخصية في المجلس البريطاني..

ثم الخبر الأهم:

علاقة غرامية تنشأ بين مس كادرا وموظف مصري زميل لها بالمجلس هو ابن رئيس مجلس إدارة إحدى شركات القطاع العام.

ابن رئيس مجلس الإدارة يتقدم إليها بطلب الزواج..

خضرة تبكي ليل نهار لا تدري هل تصارحه أم لا بحقيقة أمرها..

أخت زوجتي تنصحها بمصارحته بكل شيء..

خضرة تأخذ بنصيحتها وتصارحه، فيصر في رجولة على الزواج منها، ويقوم هو بدوره بمصارحة أبويه..

أبواه يرفضان بشدة الموافقة على زواجه منها، ويهددانه بالتبرؤ منه إن فعل، فيقاطعهما وينتقل إلى مسكن مستقل في الدقي يبدأ في إعداده للحياة الزوجية.

***

ويقام حفل زفاف خضرة إلى زميلها بالمجلس البريطاني في منزل حماتي يوم ١٩ مايو ١٩٩٠، فلا يحضره أحد من أقارب العريس غير ابن عم له، ويحضره أكثر من مائة من فلاحي كمشوش من أقارب العروس.. وأعود وأسرتي من الخارج في أجازة صيفية، فنزور العروسين للتهنئة في شقتهما الجميلة قرب نادي الصيد، ويكون أكبر دواعي سعادتي بهذه الزيارة أن أجد بالشقة ما لا أجده في بيوت معظم معارفي في مصر: غرفة قد خصصت بأكملها لكتب العروسين. وإذ ألمح على أحد رفوفها المجلدات الضخمة السبعة لتاريخ ابن خلدون، أبادر بسؤال العريس عما إذا كان قد قرأه أو يقرأ فيه، فيجيبني بقوله:

ــ لا هذا ولا ذاك.. هذا كتاب خضرة المفضل.

***

قلت في مستهل مقالي إني سأورد الوقائع دون تعليق.. غير أني أختمه بتساؤل واحد:

هذه الموهبة المصرية التي شاء الحظ أن يلتقطها وأن يجلوها، هل هناك المئات أو الآلاف أو عشرات الآلاف من أمثالها في ريف مصر، وغير ريفها، مما يرزح في أغلال الجهالة والأحوال الاجتماعية المتردية، وتأبى الظلمات له أن يظهر نوره، وينتظر اليوم الذي تمتد يد الحظ إليه أيضاً لتأخذ بيده؟ فإن كانت الإجابة بالإيجاب، فعلى عاتق من تقع مسئولية هذه الخسارة المفجعة، وهذا الإهدار لثروة مصر؟

للمؤلف:

١ـ دليل المسلم الحزين الكتاب الحائز على جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٨٨٤.	١٩٨٣
٢ـ الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها.	١٩٨٣
٣ـ ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم.	١٩٨٤
٤ـ حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.	١٩٨٥
٥ـ في بيت أحمد أمين.	١٩٨٥
٦ـ الإسلام في عالم متغير.	١٩٨٨
٧ـ الإمام (مسرحية).	١٩٩٠
٨ـ مصابيح أقوال العرب.	١٩٩٠
٩ـ حوليات العالم الإسلامي.	١٩٩٠
١٠ـ المائة الأعظم في تاريخ الإسلام.	١٩٩١
١١ـ رسالة من تحت الماء، وسخريات صغيرة أخرى.	١٩٩٢
١٢ـ الاجتهاد في الإسلام: حق هو أم واجب؟	١٩٩٣
١٣ـ الموقف الحضاري من النزعات الدينية.	١٩٩٤
١٤ـ التيار الإسلامي في مصر.	١٩٩٤
١٥ـ التيارات الفكرية في مصر في القرن العشرين.	١٩٩٤
١٦ـ خضرة (قصة للأطفال).	١٩٩٥
١٧ـ كيمياء السعادة، ومقالات أخرى.	١٩٩٩
١٨ـ موقفنا من اللغة والتراث.	٢٠٠٣
١٩ـ لغة العرب وأثرها في تكييف العقلية العربية.	٢٠٠٥
٢٠ـ شخصيات عرفتها.	٢٠٠٦

***

كتب بالاشتراك مع آخرين:

١ـ التراث وتحدّيات العصر.	١٩٨٥
٢ـ L’Islam en questions.	١٩٨٦
٣ـ التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات.	١٩٨٦
٤ـ تكنولوچيا تنمية المجتمع العربي.	١٩٨٧
٥ـ رأيهم في الإسلام.	١٩٩٠
٦ـ Le défi du fondamentalisme Islamique.	١٩٨٨
٧ـ أزمة حقوق الإنسان في الوطن العربي.	١٩٨٩
٨ـ Euro-Arab Understanding.	١٩٩٢
٩ـ أهم مائة كتاب في مائة عام.	١٩٩٢
١٠ـ مصر في عالم متغير.	١٩٩٣
١١ـ المثقفون والإرهاب.	١٩٩٣
١٢ـ جذور الإرهاب.	١٩٩٣
١٣ـ حرية الرأي والعقيدة.	١٩٩٤
١٤ـ دائرة المعارف الإسلامية (مركز الشارقة للإبداع الفكري) ـ مادة "محمد".	١٩٩٧
١٥ـ موسوعة الحضارة الإسلامية (المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن) ـ مادة "أحمد أمين".	١٩٩٨
١٦ـ موسوعة الطفل.	١٩٩٩
١٧ـ المعقول واللامعقول.	٢٠٠٠
١٨ـ الواقع الديني اليوم.	٢٠٠١
١٩ـ ما الحياة؟	٢٠٠١
٢٠ـ ثقافة الاقتصاد.	٢٠٠٢
٢١ـ المعرفة والحكمة.	٢٠٠٣
٢٢ـ الإسلام والغرب.	٢٠٠٢
٢٣ـ الإبداع.	٢٠٠٢

٢٣ـ الإبداع.	٢٠٠٢
٢٤ـ مكتبة الإسكندرية.	٢٠٠٢
٢٥ـ موقفنا من اللغة والتراث.	٢٠٠٣
٢٦ـ مأزق الفرد في الشرق الأوسط.	٢٠٠٤

***

ترجمات:

١ـ معضلة الرجل الأبيض.	لويد بويد أور	١٩٦٣
٢ـ فضل الإسلام على الحضارة الغربية.	مونتجمري وات	١٩٨٣
٣ـ نهاية التاريخ وخاتم البشر.	فوكوياما	١٩٩٣
٤ـ نحو تطوير التشريع الإسلامي.	عبد الله النعيم	١٩٩٤
٥ـ مسرحية "تاجر البندقية".	شكسبير	١٩٩٤
٦ـ مسرحية "يوليوس قيصر".	شكسبير	١٩٩٥
٧ـ مسرحية "حلم ليلة في منتصف الصيف".	شكسبير	١٩٩٥
٨ـ مسرحية "مكبث".	شكسبير	١٩٩٥
٩ـ مسرحية "المقامرون".	جوجول	تحت الطبع
١٠ـ مسرحية "حوض الأزهار".	أوجو بيتّي	تحت الطبع
١١ـ مسرحية "لله مائة اسم"	جونتر أيش	تحت الطبع

قائمة بأعمال دار العين للنشر

م	اسم الكتاب	المؤلف أو المترجم	سنة النشر
١	الداروينية الجديدة	ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي	٢٠٠١
٢	استنساخ الإنسان	ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي	٢٠٠١
٣	الحياة الخفية للغبار	ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي	٢٠٠١
٤	بنية الثورات العلمية	ترجمة: أ. شوقي جلال	٢٠٠٢
٥	تشكيل العقل الحديث	ترجمة: أ. شوقي جلال	٢٠٠١
٦	العلم ثقافة المستقبل	ترجمة: د. أحمد شوقي	٢٠٠١
٧	الجينوم البشري	ترجمة: د. أحمد مستجير	٢٠٠٢
٨	هندسة المستقبل	تأليف: د. أحمد شوقي	٢٠٠٢
٩	علم وحلم	تأليف: د. أحمد شوقي	٢٠٠٢
١٠	حكايات عالم عجوز	تأليف: د. سمير حنا صادق	٢٠٠٢
١١	أسلحة الدمار الشامل	تأليف: د. محمد زكي عويس	٢٠٠٣
١٢	سبع بنات لحواء	ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي	٢٠٠٣
١٣	الختان والعنف ضد المرأة	تأليف: د. خالد منتصر	٢٠٠٢
١٤	تحديات عصر المعلومات	تأليف: د. نبيل علي	٢٠٠٢
١٥	إلا العلم يا مولانا	تأليف: د. أحمد شوقي	٢٠٠٣
١٦	نشأة العلم في مكتبة الإسكندرية	تأليف: د. سمير حنا صادق	٢٠٠٣
١٧	نبش الماضي	ترجمة: د. أحمد مستجير	٢٠٠٤
١٨	تعلم العلم في القرن الحادي والعشرين	ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي	٢٠٠٤
١٩	إدارة المعرفة والإبداع المجتمعي	تأليف: أ. محمد رؤوف حامد	٢٠٠٤
٢٠	وهم الإعجاز العملي	تأليف: د. خالد منتصر	٢٠٠٥

٢١	الجديد عن مرض الإيدز	تأليف: د. رفعت شلبي	٢٠٠٥
٢٢	موسم الهجرة للشمال	تأليف: الطيب صالح	٢٠٠٥
٢٣	السعادة الحقيقية	ترجمة: د. صفاء الأعسر	٢٠٠٥
٢٤	العقل المحبط	ترجمة: ثائر أديب	٢٠٠٥
٢٥	مدخل رياضي إلى عروض الشعر العربي	تأليف: د. أحمد مستجير	٢٠٠٥
٢٦	طفولات مؤجلة	تأليف: ممدوح عدوان	٢٠٠٢
٢٧	المجتمع المدني وثقافة الإصلاح	تأليف: أ. شوقي جلال	٢٠٠٥
٢٨	التنوير الزائف	تأليف: د. جلال أمين	٢٠٠٥
٢٩	لغة العرب وآثارها في تكييف العقلية العربية	تأليف: أ. حسين أحمد أمين	٢٠٠٥
٣٠	المنظمات الأهلية الصغيرة العاملة في مجال المرأة	أ. سهام عبد السلام	٢٠٠٥
٣١	نجمة ماركيز	تأليف: أ. عبد الإله عبد القادر	٢٠٠٦
٣٢	الأعمال الكاملة ليحيى الطاهر عبد الله	يحيى الطاهر عبد الله	٢٠٠٦
٣٣	الرقابة المركزية الأمريكية على الإنترنت	تأليف: د. مصطفى عبد الغني	٢٠٠٦
٣٤	قضايا عصرية رؤية معلوماتية	تأليف: د. نبيل علي	٢٠٠٦
٣٥	كيف يفكر الحاسب	تأليف: د. السيد نصر الدين السيد	٢٠٠٦
٣٦	مداد الحوار	تأليف: أ. إبراهيم فرغلي	٢٠٠٦
٣٧	تأكيد الذات	تأليف: د. مريم عيسى	٢٠٠٦
٣٨	الطريق نجيب محفوظ	تأليف: د. هالة فؤاد	٢٠٠٦
٣٩	التحليل الاجتماعي للأدب	تأليف: د. السيد ياسين	٢٠٠٦
٤٠	التنوير الغائب	تأليف: د. السيد نصر الدين	٢٠٠٦

شخصيّاتٌ عرفتُها

يضمّ هذا الكتاب ستًا وعشرين دراسة شائقة لشخصيات لعب معظمها دورًا هامًا فى حياة المؤلف على مدى أكثر من سبعين عامًا. وقد التزم حسين أمين فى حديثه عنها بأمرين:

الأول : أن يكون الحديث قاصرًا فى معظمه على ما خَبَره بنفسه منها وعاينه، دون ما سمعه عنها أو قرأه.

والثانى : (وهو بيت الشاعر الإنجليزي تشوس الوارد فى "حكايات من كانتربرى") :

ما كلّ الأوانى فى قصر الأمير
مصنوع من الذهب أو الفضة

فالصورة يوردها بغُضُونها وتجاعيدها، بمحاسنها ومساوئها. وقد يكون الحديث عن بعض التفاصيل الدقيقة التى قد لا يعتبرها البعض ذات أهمية كبيرة، هو بالضبط ما يجعل الصورة تنبض بالحياة على نحو لم يسبقه إليه أحد فى حديثه عنها.

هنا صور لأدباء ومفكرين وفلاسفة، لمخرجين سينمائيين وممثلين ولرؤساء دول وسياسيين وسفراء، لدعاة إسلاميين ودعاة إلى العلمانية، لإذاعيين ونقاد، متى اطّلع القارئ عليها ثبتت فى ذهنه إلى الأبد.

الغلاف: أحمد اللباد



